وزارة الشئون الإسلامية
Ministry of Islamic Affairs
State of Kuwait | دولـــة الكويت

الفنية
إدارة الشؤون الفنية
قطاع المساجد

صناعة الخطبة والخطيب

حمادة مسير السليمان الدبلاني

الجزء الأول

إصدار إدارة الشؤون الفنية
١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

صناعة
الخطبة والخطيب
(١)

حقوق الطبع محفوظة
لوزارة الشؤون الإسلامية الكويتية
قطاع المساجد – إدارة الشؤون الفنية

الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

رقم الإيداع في إدارة التخطيط الاستراتيجي
في وزارة الشؤون الإسلامية
(٢٠/٢٠١٨)

- **الرؤية:** الريادة عالميًّا في العمل الإسلامي.
- **الرسالة:** ترسيخ قيم الوسطية، والأخلاق الإسلامية، ونشر الوعي الديني الثقافي، والعناية بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، ورعاية المساجد، وتعزيز الوحدة الوطنية من خلال تنمية الموارد البشرية والنظم المعلوماتية، وفقًا لأفضل الممارسات المالية.
- **القيم:** التميز، العمل المؤسسي، الشراكة، الوسطية، الشفافية والمسؤولية.

قطاع المساجد – إدارة الشؤون الفنية
للتواصل: بدالة 1810111 – داخلي 7370 – 7387
العنوان: الرقعي – شارع محمد بن القاسم – قطاع المساجد

www.awqaf.gov.kw

وزارة الشئون الإسلامية
Ministry of Islamic Affairs
State of Kuwait | دولـــة الكويت

الفنية
إدارة الشؤون الفنية
قطاع المساجد

صناعة الخطبة والخطيب

حمادة مسير السليمان الدبلاني

الجزء الأول

إصدار إدارة الشؤون الفنية
١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٥م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ
مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ
وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا
لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ
إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ
ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾

تصدير إدارة الشؤون الفنية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فيسُرُّ إدارةَ الشؤون الفنية بقطاع المساجد في وزارة الشؤون الإسلامية بدولة الكويت، أن تقدم كتاب (صناعة الخطبة والخطيب)، للشيخ حمادة مِسْيَر الدَّبْلاني، جزاه الله خيرًا.

وهو كتاب مفيد في بابه، فريد في نوعه، اتسم بقوة المادة وسلاستها، وسهولة الأسلوب وجمال العبارة ونصاعتها، جمع فيه مؤلفه كل ما يتعلق بالخطابة، وتوسع فيه حتى كأنه أراده أن يكون موسوعة لما يتعلق بعلم الخطابة، وتاريخها، وصفات الخطيب، والأحكام المتعلقة بالخطبة والخطيب، إذ جمع فيه بين علم الخطابة باعتباره فنًّا، وفقه الخطابة، فجعله في أربعة أبواب:

الباب الأول: تناول فيه الخطابة وتاريخها واتجاهاتها وأنواعها وخصائصها وأهميتها.

والباب الثاني: تحدث فيه عن أصول الخطبة والخطيب.

والباب الثالث: خصه للحديث عن فن الإلقاء.

والباب الرابع: ذكر فيه أحكام الجمعة وآدابها، ليكون الكتاب شاملًا لكل ما يحتاج الخطيب معرفته، مما يتعلق بالخطبة، وأحكام يوم الجمعة وصلاة الجمعة.

وقد قام بمراجعة هذا الكتاب **الشيخ ياسر إبراهيم نجار**، الباحث الشرعي في إدارة الشؤون الفنية، والإمام والخطيب في وزارة الشؤون الإسلامية، وبذل في ذلك جهدًا مشكورًا، فجزاه الله خيرًا.

وإدارة الشؤون الفنية إذ تُخرج هذا الإصدار تهدف من ورائه إلى الارتقاء علميًّا ودَعَويًّا بالعاملين في وزارة الشؤون الإسلامية من الخطباء والأئمة والمؤذنين، وغيرهم من أولي العلم، وحثِّهم على قراءة الكتب النافعة، ودوامِ مطالعتها.

والإدارة إذ تُهدي إصدارها هذا إلى عموم القراء، ترجو الله تعالى أن ينفعَ به، وبمن يستفيد منه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

إدارة الشؤون الفنية

الكويت

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

المقدّمة

إنّ الحمدَ لله، نَحمَدُه ونَستَعِينُه ونَستَغْفِرُه، ونَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلَا مُضِلَّ لَه، ومَنْ يُضْلِلْ فلَا هَادِيَ لَه، وأَشْهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه، وأَشْهَدُ أنّ محمدًا عَبْدُهُ ورَسُولُه(١). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أمّا بعدُ، فإنّ أَصْدَقَ الحديثِ كتابُ الله، وأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمدٍ ﷺ،

---

(١) وهنا في الشهادة أفرد الفعل (أشهد) بخلاف الأفعال المتقدّمة فقد جاء بها بصيغة الجمع، ولهذا نكتة نقلها ابن القيّم رحمه الله فقال: (والأحاديث كلّها متّفقة على أنّ «**نستعينه ونستغفره ونعوذ به**» بالنون، والشهادتان بالإفراد، «**وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**». قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لمّا كانت كلمة الشهادة لا يتحمّلها أحد عن أحد، ولا تَقبل النيابة بحال، أفرد الشهادة بها، ولمّا كانت الاستعانة والاستعاذة والاستغفار تَقبل ذلك، فيستغفر الرجل لغيره، ويستعين الله له، ويستعيذ بالله له، أتى فيها بلفظ الجمع؛ ولهذا نقول: اللهم أعنّا، وأَعِذنا، واغفر لنا. قال ذلك في حديث ابن مسعود وليس فيه «**نحمده**»، وفي حديث ابن عباس «**نحمده**» بالنون، مع أن الحمد لا يتحمّله أحد عن أحد ولا يقبل النيابة...

وفيه معنًى آخر، وهو أن الاستعانة والاستعاذة والاستغفار طلب وإنشاء، فيستحب للطالب أن يطلبه لنفسه ولإخوانه المؤمنين، وأما الشهادة فهي إخبار عن شهادته لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، وهي خبر يطابق عقد القلب وتصديقه، وهذا إنما يخبر به الإنسان عن نفسه لعلمه بحاله بخلاف إخباره عن غيره؛ فإنه إنما يخبر عن قوله ونطقه، لا عن عقد قلبه. والله أعلم). حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود، طبعة عطاءات العلم ١/ ٤٤٦.

وشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها، وكُلَّ مُحْدَثةٍ بِدْعةٌ، وكُلَّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ، وكُلَّ ضلالةٍ في النَّار[١][٢].

إن الخطابة بالمكانة العَليّة التي لا تُنكر، وبالشرف الرفيع الذي يعلو ويُذكر، ولها من الفضل أكمله، ومن البيان أجمله، وحظّها من الرِّفعة القِدْحُ المُعَلَّى، ومن التأثير النصيب الأوفى والكعب الأعلى، وهي التي تلين لسياط مواعظها القلوب، وترعوي لأنوار نصائحها النفوس، وهي أُخَيّة الشعر وقرينتُه، وذروة سنام البيان وناصيتُه، وحسبها شرفًا أنها وظيفة الأنبياء والمرسلين، وأداة الدعوة الأبرز للواعظين، ولسان الدعاة العاملين، ولا غَرْوَ؛ فإن النبي ﷺ بُعث في قوم هم أرباب الفصاحة وفرسان البيان، يتبارَون في الشِّعْر، ويتنافحون بالنَّثْر، وتقام فيهم أسواق المبارزة البيانية، ومرابد المنافحات الشعرية؛ كسوق عُكَاظ، وهي أعظم أسواقهم، اتُّخذت سوقًا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة – ٥٤٠ للميلاد، يقيمون بها شهرًا يتبايعون ويتناشدون، وفي هذه السوق كان يخطب الشاعر الفحل بقصيدته، والخطيب المصقع بكلمته. وسوق «ذي المجاز» بناحية عرفة، وسوق «مِجَنّة» وهي تقام قرب أيام موسم الحج ويؤمّها كثير من قبائلهم[٣].

ولمّا بُعث النبي ﷺ بدأ نجم الخطابة بالسطوع والعلوّ؛ ذلك أن الداعية

---

(١) وعند مسلم: «فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرُ الهُدَى هُدَى محمدٍ، وشرُّ الأُمورِ مُحْدَثاتُها، وكلُّ بِدْعةٍ ضلالةٌ».

(٢) هذه خطبة الحاجة – في النكاح وغيره- التي كان النبي ﷺ يخطب بها ويعلّمها أصحابه. وقد وردت هذه الخطبة المباركة عن ستّة من الصحابة وهم: عبد الله بن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله وأبو موسى الأشعري وعائشة ونُبَيْطُ بن شَرِيطٍ رضي الله عنهم، وهي مجموع روايات وألفاظ لمسلم وأحمد وأبي داود والترمذي وابن ماجه والنسائي وغيرهم.

(٣) ذكروا أنّ أسواق العرب الكبيرة كانت في الجاهلية ثلاث عشرة سوقًا، وهذه الثلاث أشهرها.

يحتاج إلى الكلمة التي تجتذب القلوب وتختلب الألباب، وهذه منبعها الخطابة والشعر؛ لكن النبي ﷺ لم يكن شاعرًا ولا ينبغي له ذلك؛ فلذا قامت دعوته وسائر دعوات الأنبياء عليهم السلام على الخطابة، فكانت اللسان الذي يصدع بالحق ويدحض الباطل، والدعوة في كل زمان ومكان يُعْوزها البيان والسِّنان؛ البيان الذي يجلّي الحقائق ويكشف عوار الأباطيل بالحجة والبرهان، والسنان الذي يقارع الباطل ويردع الظلم والعدوان.

وحسبها شرفًا ويكفيها فضلًا أنها أداة قادة الأمم من الأنبياء ووسيلتهم إلى دعوة أقوامهم، فكان نبي الله شعيب خطيب الأنبياء عليهم السلام؛ لفصاحته وعلوّ عبارته وقوّة بلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته، وكان ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ رضي الله عنه خطيب النبي ﷺ.

وهي أداة قادتها أيضًا من الملوك والسلاطين والعظماء؛ لأنها تُحرِّك العواطف، وتستجيش الضمائر، وهي التي إن شاء صاحبها استثار النفوسَ الفاترة، أو هدّأ من حماس المشاعر الثائرة، وبها يحرّك العقول الجامدة، ويستنهض النفوس الخامدة، وهي أداة لرفع الحق وتجليته، وخفض الباطل وتنحيته، وإقامة العدل في نصابه، وردّ المظالم وردع الظالم عن الظلم وأسبابه، وتفضّ النزاعات، وتقطع الخصومات، وتُميت العداوات. فالخطابة أداة عظمى لإقناع العقول، ووسيلة كبرى لاستمالة النفوس؛ في تهييجها أو تسكينها.

ومن أوائل خطبه الدعوية ما ثبت عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: لمَّا أُنْزِلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دَعَا رسولُ الله ﷺ قُرَيْشًا، فاجْتَمَعُوا فعَمَّ وخَصَّ، فقال: «**يا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ**

مِنَ النَّار، يا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّار، يا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّار، يا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّار، يا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّار، يا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّار، يا فاطمةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّار، فإنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شيئًا، غيرَ أنَّ لَكُمْ رَحِمًا سأَبُلُّها بِبَلَالِها»(١).

وأمّا العرب فقد كان لكلّ قبيلة شاعر وخطيب يذود كلّ واحد منهما بلسانه عن قبيلته، وكلٌّ منهما محلّ افتخار القبيلة واعتزازها بين القبائل الأخرى، ومصدر قوّة وهيبة.

ولئن كانت الخطابة أظهر وسائل الأنبياء والرسل عليهم السلام في الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ شرعه إلى الناس؛ فإنها ما تزال وسيلة الدعاة إلى الله وأداتهم الدعوية ونافذتهم الإعلامية الأقوى التي يطلّون من خلالها على مجامع الناس في يوم الجمعة وفي المناسبات الشرعية الأخرى؛ كالعيدين والحج والكسوف والاستسقاء. وممّا زاد أهمّيّتها وأبرز مكانتها أنها شُرِعت فرضًا على المسلمين في يوم الجمعة، فهم يسعون إليها طائعين متعبّدين يعتقدون أنهم يؤدّون فرضًا من فرائض الله، ويلبّون نداء الله لهم بلا سوط ولا عصًا، ولا أجرة من أهل الدنيا يرتجونها، ولا غنيمة من المخلوقين ينتظرونها.

فأجملْ بها من لسان للدعاة، وأكرمْ بها من حُجّة للقضاة، وأعظمْ بها من سلاح للكُمَاة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤).

وإذا كانت الخطابة تمرّ بمدّ وجزر عبر العصور، فقد آل أمرها في هذا العصر إلى تردٍّ وانحطاط لأسباب بسطتها في آخر هذا الكتاب. ومن هنا جاءت فكرة تأليف هذا الكتاب المتواضع لعلّه يكون سببًا في الارتقاء بمستوى الخطبة والخطيب، وسبيلًا للتذكير بماضيهما التليد الذي شهد أزهى عصوره الذهبية في العهد النبوي الشريف، ثم عهد الخلفاء الراشدين المنيف، ومَن بعدهم ممّن تميّز بهذا الفنّ وعلا كعبه فيه، سواء عصر خلفاء بني أُميّة أو العصور التي تليه.

إنّنا نصبو من ورائه إلى صناعة الخطبة التي تستحوذ على قلوب الحاضرين، وتهيمن على عقول السامعين، ومن قوّتها وشدّة تأثيرها تدع من يسمعها يعاجل إلى ترجمتها استجابةً سريعة فورية، وسلوكًا ماثلًا وطاعة عمليّة. ونصبو كذلك إلى صناعة الخطيب المِصْقَع المتفوّه الذي تهتزّ له المنابر، وتتحرّك له المشاعر، وتلين لخطبته القلوب الصِّلَاب، وتهدأ بها النفوس الغِضَاب، وإن شاء أثار المشاعر الداثرة، وبعثَ الهمم الفاترة، وحرّك العزائم الخائرة، وأيقظ النفوس البائرة، وهدى القلوب الحائرة، أجلْ فإننا نرنو إلى تكوين الخطيب الماهر المتمرِّس الذي ترقّ لخطبته القلوب، وتذرف لموعظته العيون، وتهيج له المشاعر مِنْ كُمون، وتتحرك له العواطف بعد سكون، ويضطلع بواجبه الشرعي الشريف، دونما توانٍ أو تقصير فيما نِيط به من تكليف، ويكون له أثر واضح في حياة الناس ودنيا البشر، ويقود مسيرة التأثير والتغيير في مسارب الحياة بلا إضرار ولا ضرر.

وقد جعلته في أربعة أبواب مقسّمة على فصول ومباحث، على النحو التالي:

الباب الأول: الخطابة وتاريخها واتجاهاتها وأنواعها وخصائصها وأهميتها، وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: تعريف علم الخطابة وعلاقته بالعلوم الأخرى وتاريخه، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف علم الخطابة.

المبحث الثاني: تعريف الخطابة في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثالث: علاقة الخطابة بالعلوم الأخرى.

المبحث الرابع: طرق تحصيلها.

المبحث الخامس: نشأة الخطابة، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الخطابة عند اليونان.

المطلب الثاني: الخطابة عند الرومان.

المطلب الثالث: الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي.

المطلب الرابع: الخطابة في صدر الإسلام.

المطلب الخامس: الخطابة في العصر الأموي.

المطلب السادس: الخطابة في العصر العباسي.

المطلب السابع: الخطابة في العصر الحديث.

الفصل الثاني: اتجاهات الخطابة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: اتجاهات الخطابة عند غير العرب.

المبحث الثاني: اتجاهات الخطابة عند العرب.

الفصل الثالث: أنواع الخطابة، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: الخطابة السياسية.

المبحث الثاني: الخطابة الاجتماعية.

المبحث الثالث: الخطابة العسكرية.

المبحث الرابع: الخطابة القضائية.

المبحث الخامس: الخطابة الدينية.

الفصل الرابع: خصائص الخطابة وأهميّتها، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: خصائص الخطابة.

المبحث الثاني: أهمية الخطابة.

الباب الثاني: أصول الخطابة والخطيب، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تكوين الخطبة، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: كيفية تكوين الخطبة وتحضيرها.

المبحث الثاني: مراحل إعداد الخطبة.

المبحث الثالث: مصادر الخطابة.

المبحث الرابع: تقسيم الخطبة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المقدمة.

المطلب الثاني: الموضوع.

المطلب الثالث: الخاتمة.

الفصل الثاني: الإنشاء الخَطابي (التعبير)، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: الألفاظ.

المبحث الثاني: الأسلوب، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الأسلوب.

المطلب الثاني: أنواع الأسلوب.

المطلب الثالث: اختلاف الأساليب.

المطلب الرابع: خصائص الأسلوب الخطابي.

المطلب الخامس: صياغة الأسلوب.

المبحث الثالث: المقاطع.

الفصل الثالث: آداب الخطيب وثقافته وصفاته، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: آداب الخطيب.

المبحث الثاني: ثقافة الخطيب (العلوم الدينية والدنيوية).

المبحث الثالث: صفات الخطيب، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: الصفات العقلية (الصفات الفطرية والصفات المكتسبة).

المطلب الثاني: الصفات النفسية.

المطلب الثالث: الصفات الخُلُقية.

المطلب الرابع: الصفات العلمية.

المطلب الخامس: الصفات البيانية.

المطلب السادس: الصفات الخِلْقية والشكلية.

الباب الثالث: فنّ الإلقاء، وفيه فصلان:

الفصل الأول: الإلقاء، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإلقاء لغة واصطلاحًا.

المبحث الثاني: المهارات القولية.

المبحث الثالث: المهارات الفعلية

الفصل الثاني: فنّ الإقناع والتأثير، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإقناع والتأثير لغة واصطلاحًا، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الإقناع في اللغة.

المطلب الثاني: تعريف الإقناع اصطلاحًا.

المطلب الثالث: تعريف التأثير في اللغة.

المطلب الرابع: تعريف التأثير اصطلاحًا.

المبحث الثاني: أهمية الإقناع والتأثير.

المبحث الثالث: أثر الميول والمواهب.

المبحث الرابع: قواعد عامة للإقناع والتأثير، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: فيما يتعلق بالخطيب (المُرسِل).

المطلب الثاني: فيما يتعلق بالمخاطَب (المستقبِل).

المطلب الثالث: فيما يتعلق بالخُطبة (الرسالة).

الفصل الثالث: نجاح الخطبة والخطيب، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نجاح الخطبة.

المبحث الثاني: نجاح الخطيب.

المبحث الثالث: الجمهور.

الباب الرابع: أحكام الجمعة وآدابها، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الجمعة وفضائلها وخصائصها، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الجمعة لغة واصطلاحًا وسبب تسميتها ومبدأ الجمعة.

المطلب الأول: تعريف الجمعة لغة.

المطلب الثاني: تعريف الجمعة اصطلاحًا.

المطلب الثالث: لماذا سميت الجمعة بهذا الاسم؟

المطلب الرابع: مبدأ الجمعة.

المبحث الثاني: فضائل الجمعة.

المبحث الثالث: خصائص الجمعة.

الفصل الثاني: حكم الجمعة وشروط فرضيتها وشروط صحتها، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: حكم صلاة الجمعة.

المبحث الثاني: شروط فرضية الجمعة.

المبحث الثالث: شروط صحة الجمعة.

المبحث الرابع: شروط وجوب وصحة الجمعة معًا.

الفصل الثالث: أحكام خطبة الجمعة وآدابها، وفيه ستة عشر مبحثًا:

المبحث الأول: بيان معنى خطبة الجمعة وحكمها.

المبحث الثاني: شروط خطبة الجمعة.

المبحث الثالث: أركان خطبة الجمعة.

المبحث الرابع: سنن خطبة الجمعة.

المبحث الخامس: المنهيّات والمكروهات في الخطبة.

المبحث السادس: صلاة الجمعة.

المبحث السابع: سنن الجمعة.

المبحث الثامن: مفسدات الجمعة.

المبحث التاسع: مواضع الخطبة.

المبحث العاشر: هدي النبي ﷺ في خطبه.

المبحث الحادي عشر: ما يطرأ على الخطيب أثناء خطبته.

المبحث الثاني عشر: مسائل تتعلق بالخطيب.

المبحث الثالث عشر: أحكام البيع والشراء بعد الأذان الثاني للجمعة.

المبحث الرابع عشر: السنن القبلية والبعدية للجمعة.

المبحث الخامس عشر: الحكم إذا وافق يوم الجمعة يوم عيد.

المبحث السادس عشر: الأعذار المبيحة لترك الجمعة.

راجيًا ممّن وجد فيه خطأ أن يبصِّر أخاه؛ ليُقوِّم اعوجاجه ويتوخّاه، فبالقوادم والخَوَافي قوّة الجناح، وبالأَسِنّة والعوالي فعل الرِّمَاح.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

حمادة مِسْيَر السليمان الدَّبْلَانيّ

الباب الأوَّل

الخطابة وتاريخها واتجاهاتها وأنواعها وخصائصها وأهميتها

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: تعريف علم الخطابة وعلاقته بالعلوم الأخرى وتاريخه.

الفصل الثاني: اتجاهات الخطابة.

الفصل الثالث: أنواع الخطابة.

الفصل الرابع: خصائص الخطابة وأهميّتها.

الفصل الأوَّل

تعريف علم الخطابة
وعلاقته بالعلوم الأخرى وتاريخه

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف علم الخطابة.

المبحث الثاني: تعريف الخطابة في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثالث: علاقة الخطابة بالعلوم الأخرى.

المبحث الرابع: طرق تحصيلها.

المبحث الخامس: نشأة الخطابة.

المبحث الأول

تعريف علم الخطابة

الخطابة - كسائر الفنون الأخرى - علم من العلوم، ولكلّ علم أصول وقواعد وقوانين يُعْرَف بها، فمن أخذ بهذه الأصول والقوانين علمًا وفهمًا، وحُنْكةً ومَلَكةً، ودُرْبةً ورغبة: كان خطيبًا مِصْقعًا، وخاطبًا مِسلاقًا(١)، تهتزّ له المنابر، وتنقاد له الكلمات، وتأتسر له القلوب، وتسلِّم له الألباب، وتُلقِي إليه السمع وهي شهيدة، وتُدْنى بينه وبينها مسافات شاسعة بعيدة. وسنعرِّف علم الخطابة باعتبار مفرديه (علم - خطابة) وهو المركّب الإضافي. وباعتباره فنًّا.

أوّلًا: العلم في اللغة:

العلم جمعه (علوم) وهو في اللغة مصدر بمعنى: الفهم والإدراك والمعرفة واليقين. قال في المصباح المنير: (العِلْمُ: اليَقِينُ. يُقَالُ: عَلِمَ يَعْلَمُ إذَا تَيَقَّنَ. وجَاءَ بِمَعْنَى المَعْرِفَة أَيْضًا)(٢).

ثانيًا: العلم في الاصطلاح:

والعلم اصطلاحًا قد يطلق ويراد به قواعد ومسائل العلم تارة، وإدراك هذه المسائل تارة، وملكة إدراك المسائل تارة ثالثة(٣).

---

(١) يقال مِسْلَقٌ ومِسْلاَقٌ إذا كان نِهايةً في الخَطابة. (النهاية في غريب الحديث ٢ / ٣٩١).
(٢) المصباح المنير ٢/ ٤٢٧.
(٣) أبجد العلوم لصدّيق خان ص ٢٤. وانظر: طريق الهداية ص ١٠٧.

فيُطلق الْعلم على (مجموع مسائِلَ وأصولٍ كُليّةٍ تجمعها جهةٌ واحدة)؛ كعلم الكَلام وعلم النَّحْو وعلم الأَرض...

فهو يشمل جملة من الأصول والمسائل التي تجتمع في موضوع كلّيٍّ واحد.

والغالب أن تكون تلك المسائل نظرية كلّيّة، وقد تكون ضروريّة، وقد تكون جزئيّة أو شخصيّة)[1].

ويُطلق العلم حَدِيثًا على العُلوم الطبيعيّة التي تحتاج إلى تجربة ومشاهدة واختبار، سواء أكانت أساسية؛ كالكيمياء والطبيعة والفلك والرياضيات والنبات والحَيَوان والجيولوجيا، أم تطبيقية؛ كالطّبّ والهندسة والزِّراعة والبيطرة ونحوها[2].

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ص١٣.
(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٦٢٤.

المبحث الثاني

تعريف الخطابة في اللغة والاصطلاح

أوّلًا: الخطابة في اللغة:

هي الكلام المَنثورُ المُسَجَّعُ ونحوُه. يقال: خَطَبَ الخاطبُ على المِنْبَر خَطابةً وخُطْبَةً، وذلك الكلامُ: خُطْبَةٌ أيضًا، وقال الجَوْهَريُّ: خَطَبْتُ على المِنْبَر خُطْبَةً، وخَطَبْتُ المرأةَ خِطْبَةً، واخْتَطَبَ فيهما.

ورجلٌ خَطِيبٌ: حَسَنُ الخُطْبة، وجَمْع الخَطِيب خُطَباءُ. وخَطُبَ خَطابةً: صار خَطِيبًا[1].

ثانيًا: الخَطابة في الاصطلاح:

لقد عُرِّفت الخطابة تعريفات متعدّدة، وتنوّعت أساليب من قام بتعريفها وعباراتهم، **فهي في اصطلاح الحكماء**: مجموع قوانين يُقتدر بها على الإقناع الممكن في أيّ موضوع يراد.

وعرّفها أرسطو بأنها: قوّةٌ تتكلّف الإقناعَ المُمْكِنَ في كلِّ واحدٍ من الأشياء المُفرَدة.

ومعنى هذا أنَّ الخطابة: قوّة يُطِيق صاحبُها إقناعَ المخاطَبين في كلِّ شيءٍ يَدَّعي أنه غرضٌ صحيح، وإنما وصف الإقناع بالإمكان؛ لأنّ شأن هذه الصناعة إعدادُ النفوس لعمل الإقناع، وإن لم تبلغ غايتَها القُصوى.

---

(١) لسان العرب ١/ ٣٦١، القاموس المحيط ٨١، تاج العروس ٢/ ٣٧٢.

وإنما قال: (في كلِّ واحدٍ من الأشياء المفرَدة)؛ لأنّ الخَطابة تتناول كلّ العلوم والفنون.

والإقناع - وهو الذي تعتمد عليه صناعة الخطابة-: حمل السامع على التسليم بصحّة المقول وصواب الفعل والترك. وهو نوعان: بُرهانيّ، وخَطَابيّ.

وغاية البرهاني: إذعان العقل لنتيجة مبنيّة على مقدّمات ثبتت صحّتها؛ كقولنا: العالم حادث؛ لأنه متغيّر.

وغاية الخطابي: إذعان العقل بصحّة المقول وصواب الفعل أو الترك بأقيسة مؤلَّفة من أقوال مظنونة أخذ فيها بالمحتمل الراجح، أو مقبولة صدرت ممّن يُعتقد صدقه وسداد رأيه.

وعند الأدباء تطلق على معنيين: الأول: الكلام المنثور، مسجوعًا كان أو مرسلًا (الخُطْبة). والثاني: إلقاء الكلام المنثور (الطريقة).

ومن ناحية أخرى فقد عرّفها بعضهم بأنها: (فنّ مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة)[(١)]. وعرّفها آخرُ بأنها: (الكلام الذي يُلقى في جمهور الناس للإقناع والتأثير)[(٢)]. وثَمّة من عرّف الخطابة بأنها: (فنّ مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته)[(٣)]. وثمّة تعاريف أخرى لها.

ويمكننا أن **نعرّفها تعريفًا جامعًا** فنقول: (الخَطابة: كلام يتضمّن وعظًا

(١) فنّ الخطابة، علي محفوظ ص١٣، الخطابة وإعداد الخطيب عبد الجليل شلبي ص١٥، الخطابة عند العرب ص١٧٦.

(٢) الأسلوب – أحمد الشايب ص١١٦.

(٣) فنّ الخطابة – الدكتور أحمد الحوفي ص٥.

وإبلاغًا يُلقى في جماعة من الناس بقصد إقناعهم بأمر من الأمور والتأثير في وجدانهم لحملهم على ما يراد منهم).

وهذا التعريف مبنيّ على أن الخطابة بمعنى الخُطبة كما مرّ معنا في تعريفها اللغوي، وأمّا إن جعلنا الخطابة عَلَمًا على الفنّ المعروف فيمكننا أن نقول في تعريفها: (فنّ مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته). أو بما سيأتي بعد قليل من تعريف علم الخطابة فنًّا ولَقَبًا.

وفنّ الخطابة يعني الممارسة العملية للخطابة، ويعني - أيضًا - مهارة الخطيب وامتلاكه قوّة التأثير والإقناع. وأما علم الخطابة فيعني: مجموع قوانين وأصول تعين على ممارسة الخطابة.

١- فلا بدّ من كلام يقال، وهذا الكلام قَصْدُ صاحبه منه ترغيبُ المخاطَبين في شيء أو ترهيبهم من شيء، أو إبلاغهم بأمر من الأمور التي تخصّ أو تعمّ؛ جلبًا لخير أو منفعة، أو دفعًا لشرّ أو مفسدة.

فقولنا (كلام) يشمل المنظوم والمنثور، فخرج به الرسائل والكتب ونحوها.

٢- ولا بدّ كذلك من أن يكون الكلام مشافهة مع المخاطَبين، ويتضمّن وعظًا أو إبلاغًا عن أمر من الأمور التي تهمّ الناس في حرب أو سلم، في اختلاف أو اتفاق... وإلا كان كتابةً أو شعرًا مدوَّنًا.

٣- ولا بدّ أيضًا من جماعة من الناس (جمهور) يستمعون إليه، وإلا كان حديثًا أو وصية من الوصايا، فإذا كان يتحدث إلى شخص أو شخصين فإنه لا يحتاج إلى الأسلوب الخطابي، وإنما يكفيه أن يُعْرب عن مراده أو يعبّر عن غايته وهدفه بطريقة عادية.

٤- ولا بدّ من أن يكون بطريقة إلقائية، ويحتاج أسلوب الإلقاء إلى قوة الصوت وجهارته، والتحكّم به ارتفاعًا وانخفاضًا، والتفنّن بنبراته، والانتقال به من حال إلى حال، فيستعمل التعجّب في موضعه والاستفهام في موطنه، والتقرير أو الاستنكار، أو الترغيب أو الازدجار، مع تفاعل وانفعال بما يقول. ومن مكمِّلات الصوت أيضًا الإشارة باليدين عند وجود الداعي والمقتضي الذي تحسن معه حركة اليدين بلا سرف.

٥- ويشتمل الخطاب على الإقناع بإيراد البراهين العقلية القاطعة، والأدلة النقلية الساطعة؛ ليحملهم على اعتقاد ما يَعتقده والتزام ما يَلتزمه. فخرجت المحاضرة والدرس والمناظرة ونحوها؛ لأن للمحاضرة والدرس والمناظرة جمهورها الخاصّ، وأسلوبها الخاص، ووقتها الواسع، وحرية المحاضر والمدرّس والمناظر في العرض والوقت والمادّة أرحبُ، ويكون فيها مجال للأسئلة والنقاش. أما الخطبة فجمهورها عامّ ومتنوّع، وتختلف عن الدرس والمحاضرة... في أكثر ما ذُكِر.

٦- ولا يتمّ للخطيب مراده من جمهوره إلّا إذا استطاع التأثير فيهم واستمالتهم، بشحن عواطفهم وإلهاب مشاعرهم واستثارة وجدانهم، فإذا بلغ منهم هذا المبلغ وأخذ بمجامع عواطفهم انقادوا له واستجابوا لما يريده منهم.

وأسلوب الإقناع والتأثير جاء في كتاب الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل ١٢٥]،

فالحكمة في الآية تعني - على الصحيح - الدليل الصحيح المحكم والحجة القاطعة، مع الأخذ بعين الاعتبار مراعاة مقتضى الحال. والموعظة الحسنة هي: الترغيب والترهيب.

فالإقناع إذًا يقوم على العقل والوجدان (العاطفة) معًا.

وبعد هذه التعاريف وشرح مضمونها وفحواها يتبين لنا أنه لا بدّ للخطابة من ركائز تقوم عليها وهي: المشافهة، والجمهور المتلقِّي مباشرة، والإقناع، والتأثير.

أمَا وقد عَرَفْنا معنى علم الخطابة بتركيبه الإضافي: علم وخطابة، فإننا ننتقل إلى تعريفه باعتباره فنًّا لهذا العلم ولَقَبًا له. فقد عرّف الأقدمون علم الخطابة بأنه: (مجموعُ قوانينَ تُعرِّفُ الدارسَ طُرقَ التأثير بالكلام، وحُسنَ الإقناع بالخطاب).

أي أنه علم له أصول وقواعد ينبني عليها ويرجع إليها، وليس أمرًا ارتجاليًّا، أو عملًا انفعاليًّا، ولا عشوائيًّا يتأتّى للإنسان عفوَ الخاطر أو بمحض المصادفة.

فالخطابة علم له أصول وقوانين، من سار في طريقها تهيّأ لأن يُعَدَّ خطيبًا، وهذا العلم يُعْنَى بدراسة طرق التأثير، ووسائل الإقناع، وصفات الخطيب، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة، وأساليبها، وترتيب أفكارها وتسلسل عناصرها.

وهذا العلم ينير الطريق، ولا يحمل على السلوك؛ فهو يرشد الدارس إلى دراسة مناهج وقواعد ومسالك، ولا يحمل على السير فيها، فليس كلّ من درس علم الخطابة صار خطيبًا، ولا كلّ من تعلّم الأخلاق أضحى ذا

خلقٍ نبيل وفعلٍ جميل، بل لا بدّ لمن أراد أن يكون خطيبًا مؤثّرًا أن يكون - مع العلم بقواعد الخطابة - ذا فهم ثاقب ورأي صائب، وأن يمرّن نفسه على الخطابة، ويدرّب لسانه على الإلقاء، وأن تكون لديه مَلَكة ورغبة، وهي ما تعرف بالموهبة أو الاستعداد الفطريّ والنفسيّ.

فإذا حاز المرءُ العلمَ بفنّ الخطابة، وألمّ بأصوله وقواعده، واطّلع على نماذج من فحول الخطباء والبلغاء وخطبهم وأساليبهم، فاقتفى أثرهم وتأثّر بسِيَرِهم، وصَقَلَ الموهبة واستعداده الفطريّ بالمِران والتجربة - مع توافر الفرصة والقدرة -: كان خطيبًا لا يُشَقُّ له غبار، ونال قصب السبق في هذا المضمار.

ومن خلال التعريف السابق يتضح لنا أنّ الخطابة هي القوّة الصّانعة للأقوال المُقْنِعة، وأن هذا العلم يقوم على طرق التأثير والإقناع، فمن طرق التأثير وأساليبه: الإخلاص، والقدوة الحسنة، واختيار الوقت المناسب للوعظ والإرشاد، والقدرة على التعبير والبيان، وترتيب الأفكار وتسلسل العناصر، وفهم حاجات البشر ودوافعهم، وتوظيف ميولهم واتجاهاتهم، ومراعاة الجانبين العاطفي والعقلي معًا، والإيمان الحقيقي بقضيته أو فكرته التي يريد من الناس أن يعتنقوها أو ينفّذوها ويعملوا بها.

ومن طرق الإقناع وأساليبه: مخاطبة العقل، وإيراد الأدلة والبراهين النقلية ودعمها بالأدلة العقلية، ومخاطبة العاطفة لدى المتلقّي، فيستعمل الخطيب أسلوب الإقناع العقلي بالحجج العقلية، وأسلوب الإقناع العاطفي، وتوظيف الميول والاتجاهات واستثمارها، وهو مذكور في قول الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾.

فالحكمة في الآية تعني - على الصحيح كما سبق - الدليل الصحيح المُحْكَم والحجّة القاطعة، مع الأخذ بعين الاعتبار مراعاة مقتضى الحال. والموعظة الحسنة: الترغيب والترهيب.

فالإقناع إذًا يقوم على العقل والوجدان معًا؛ كما سبق القول آنفًا. (مكرر قبل أسطر)

ولكي يستبين لنا ذلك جليًّا لا بدّ من الولوج إلى مبادئ كلّ فنّ من الفنون، وهي عشرة مبادئ، تعرِّف بهذا العلم وتوضِّح بعض خصائصه وصفاته، وينبغي لكل طالب علم أو شارعٍ في فنّ أن يكون على علم بها وبصيرة؛ ليعرف حقيقة كلّ علم وموضوعه وثمرته... وقد جَمَعَها محمد بن عليّ الصَّبَّان في هذه الأبيات فقال:

إنّ مَبَادِي كُلِّ فَنٍّ عَشَرَهْ ... الحَدُّ والموضوعُ ثُمَّ الثَّمَرَهْ
وفَضْلُه ونِسْبَةٌ والوَاضِعْ ... والاسمُ الاستمدادُ حُكْمُ الشارِعْ
مسائلٌ والبعضُ بالبعضِ اكْتَفَى ... ومَنْ دَرَى الجميعَ حازَ الشَّرَفا

١- حدّه (التعريف): وقد سبق تعريف الخطابة لغة واصطلاحًا.

٢- موضوعه: موضوع كلّ علم ما يُبحَث فيه عن عوارضه الذاتيّة؛ كجسم الإنسان بالنِّسْبة لعلم الطِّبّ، واللَّفْظ العربيّ بالنِّسْبة لعلم النَّحْو. وعلم الخطابة يُعنَى بمعرفة طرق الإقناع وأدوات التأثير ودراستها، وما ينبغي أن يكون عليه الخطيب من صفات وآداب وأسلوب، واطّلاعٍ على واقع المخاطَبين، وإلمامٍ بكيفية الإعداد، وسبلِ النجاح والإعدادِ المتميِّز، والإلقاء المؤثِّر.

والأقرب أنّ الخطابة ليس لها موضوع معيَّن تلتزم به لا تَعْدوه، بل تتناول كلّ العلوم والفنون، وإن كانت ألصقَ بالمجال الديني إضافة إلى استعمالها في الردّ على الدعاوى؛ ولذا كان ينبغي على الخطيب أن يكون مُلِمًّا بكلّ العلوم والثقافات والفنون؛ ليملك ناصية الإقناع والتأثير في المخاطَبين مهما كانت مشاربهم وثقافاتهم. فموضوع الخطبة - باختصار - يشمل الحياة الدنيا والآخرة.

٣- **ثمرته**: والغاية من الخطابة: إنارة العقول وتنبيه الأذهان، واستمالة النفوس واستثارة الوجدان؛ بالدعوة إلى الله تعالى باللسان، وترغيب الناس فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأُخراهم، وترهيبهم مما يضرّهم في معاشهم ومعادهم، وقصد حملهم على الحق والاستجابة له، هذا إذا كانت الخطابة دينية، وإلّا فقد تستخدم لأغراض أخرى وفي مجالات متنوّعة ولغايات شتّى كما سيأتي. وغايتها عند الحكماء: الوصول إلى قوة الإقناع والتأثير.

٤- **نسبته**: لعلم الخطابة علاقة واتصال بالعلوم الأخرى؛ كعلم الشرائع واللغة والآداب والمنطق، وهو يستمدّ منها أصوله وقواعده وأساليبه.

٥- **فضله**: لمّا كان شرفُ العلم بشرف المعلوم؛ كان لهذا العلم فضل عظيم وشرف كريم، فهو بحسب غايته التي يُرْنَى إليها، وغاية الخطابة هي إرشاد الناس إلى ما ينفعهم وتحذيرهم مما يضرّهم، وحملهم على الحقائق التي تنفعهم عاجلًا أو آجلًا. وحسبها شرفًا ويكفيها فضلًا أنها أداة قادة الأمم من الأنبياء عليهم السلام ووسيلتهم إلى دعوة أقوامهم، ومن الملوك والسلاطين والعظماء؛ لأنها تحرِّك العواطف، وتستجيش

الضمائر، وهي التي إن شاء صاحبها استثار النفوسَ الفاترة، أو هدّأ من حماس المشاعر الثائرة، وبها يحرّك العقول الجامدة، ويستنهض النفوس الخامدة، وهي أداة لرفع الحق وتجليته، وخفض الباطل وتنحيته، وإقامة العدل في نصابه، وردّ المظالم وردع الظالم عن الظلم وأسبابه، وتفضّ النزاعات، وتقطع الخصومات، وتميت العداوات. فالخطابة أداة عظمى لإقناع العقول، ووسيلة كبرى لاستمالة النفوس؛ في تهييجها أو تسكينها.

٦- **واضعه**: الخطابة قديمة قدم الإنسان، وهي مخلوقة معه؛ لأنه يحتاج إلى البيان للإفصاح عن مكنوناته ومراداته، وقد عُرِف بها الأنبياء والرسل عليهم السلام، ومن الأمم التي اشتُهرت بالخطابة: اليونان والرُّومان والعرب قبل الإسلام وبعده. وكتبوا فيها أبحاثًا وتوسّعوا في ذلك، لكن لم يدوَّن كعلم وفنّ بقواعد وأصول بعدُ، وأوّل ما دُوِّنت قواعده في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد على أيدي ثلاثة من فلاسفة اليونان وهم: بروديكوس وبرتاغوراس وكانا في عصر واحد، وجورجياس، ثمّ جاء الفيلسوف اليوناني الشهير (أرسطو) في القرن الرابع قبل الميلاد فجمع شتاته ولمّ شعثه ووضع أصوله وقواعده في كتاب سمّاه (الخطابة)، وقد نقله إلى العربية بشر بن متى، وذلك في القرن الثالث الهجري، ولخّصه ابن رشد، ثم تلقّف الفلاسفة كتاب أرسطو هذا وانتشر فصار عُمدةً في علم الخطابة.

٧- **الاسم**: علم الخطابة أو فنّ الخطابة.

٨- **الاستمداد**: يُستمدّ من تتبُّع الأصول والقواعد العلمية والفروع المتعلقة

به في كتب اللغة والأدب والمنطق، وإن كان خاصًّا بالخطابة الدينية فمن الأصولِ المعتمَدةِ - زيادةً على ما سبق - وغيرِها في الكتب الخاصّة بكلّ دين.

٩- **حكم الشارع:** الخطابة هي الدعامة الأولى للدعوة إلى الله عز وجل وهداية الخلق للحق، وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين، والدعاة والمصلحين، وإذا كانت الدعوة إلى الله تعالى واجبة؛ فالخطابة واجبة أيضًا وجوبًا كِفائيًّا إذا قام به بعض المكلَّفين سقط الإثم عن الباقين، وإلّا أَثِموا كلُّهم.

١٠- **مسائله:** مسائل جمع مسألة من السؤال وهو ما يُبرهن عنه في العلم، وهي المطالب والفروع التي يبحثها ويقرّرها العلم. فعلم الخطابة يُعنَى بمعرفة طرق الإقناع وأدوات التأثير، وما ينبغي أن يكون عليه الخطيب من صفات وآداب، واطّلاع على واقع المخاطَبين، ومعرفةٍ بكيفية الإعداد المتميِّز، وطرق الإلقاء المؤثِّر.

المبحث الثالث

علاقة علم الخطابة بالعلوم الأخرى

يرتبط علم الخطابة بغيره من العلوم على تفاوت في مدى ارتباطه واستفادته من هذا العلم أو ذاك؛ إذ بعض تلك العلوم لصيقُ الصلة به ومتأثر به ونابع منه ولا ينفكّ عنه، فنجد علم الخطابة وثيق الصلة بعلوم القرآن والسّنّة قويَّ العَلاقة بهما، ولن ينجح خطيب مسلم في دعوته دون الاعتماد عليهما ودوام النَّهَل من معينهما. ولا يستغني علم الخطابة عن اللغة بنحوها وصرفها، وبيانها وبديعها، وبلاغتها ومعانيها، وأدبها شعرًا ونثرًا.

وعلم الخطابة كذلك متأثر بالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع، فعلاقة علم الخطابة بالمنطق: علاقة تقارب وتلاؤم وتشاركٍ، يدلّنا على ذلك أن كتاب أرسطو (الخطابة) - وهو أول كتاب أُلِّف في علم الخطابة وقواعدها وأصولها - قائم على المنطق، حتى إن ابن سينا عدّ الخطابة في كتابه (الشفاء) قسمًا من أقسام المنطق.

والحقيقة أن علم الخطابة يستفيد من علم المنطق؛ لأن كثيرًا من قوانين المنطق تخدم هذا العلم وخاصة بعد أن أضحى علم المنطق لا يبحث عن القوانين التي تعصم الذهن من الخطأ فحسب، بل صار يبحث في أهواء النفس وخواطرها وأسباب الخطأ... فهو يغور في النفس البشرية ويسبر دوافعها وميولها، وهذا ممّا يعين الخطيب على استمالتها ومعرفة طرق التأثير فيها، وبهذا ينتفع الخطيب من علم المنطق في الإقناع العقليّ والتأثير الوجدانيّ، وحظّه من الأول أكثر بكثير من الثاني.

علاقة الخطابة بعلم النفس:

وإذا كان موضوع علم النفس هو الإنسانَ من حيث هو كائن حيّ يرغب ويُحسّ ويدرك وينفعل فيبحث في انفعالات النَّفس ووقائعها، وعلم النَّفس الاجتماعيّ: فرع من فروع علم النَّفس الإنسانيّ الذي يبحث في سلوك المجموعات وتأثير العوامل الاجتماعيّة في الفرد؛ فإن معرفة الخطيب بطبائع النفوس وأحوالها ودوافعها وما يثير كوامنها أو يهدّئ من غلوائها، وما يستحوذ على اهتمام الناس ويستجلب رضاهم، أو يبعد عن دائرة اهتمامهم ويهيج سخطهم؛ إن معرفته بذلك كلّه مَدْعاة لإقناع الجمهور واستمالتهم لجعلهم يقومون بفعل المراد منهم. وهذا يشير بكلّ تأكيد إلى متانة الصّلة ووثوق العلاقة بين علم الخطابة وعلم النفس[1].

علاقة الخطابة بعلم الاجتماع:

إذا كان علم الاجتماع: علمًا يبحث في نشوء الجماعات الإنسانيّة ونُمُوّها وطبيعتها وقوانينها ونُظُمها؛ فإن من المؤكَّد أن معرفة طرق التأثير بالكلام تُعين الخطيب على إنجاح مهمّته وأداء رسالته، ولا يتأتّى له ذلك إلّا من خلال معرفته بالناس وطبائعهم، وتنوّع مشاربهم وتعدّد مآربهم، واختلاف أحوالهم وتمايز أخلاقهم، فإذا عرف ذلك وراعاه حقّ المراعاة، وزاول الحياة الاجتماعية، وأكثر من مخالطة النَّاس حتى فَهِمهم ووقف على جوانب التأثير فيهم، وخاطب كلّ فئة من الناس وكلّ صنف من البشر بما يتناسب وأحوالهم البشرية وميولهم النفسية واستعداداتهم العقلية: أثّر فيهم أيَّما تأثير، وانقادت له بطواعية تلكم الجماهير.

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة ٣/ ٢٢٥٤.

فقوانين علم الخطابة وقوانين علم الاجتماع يتلاقيان ويتلاقحان الأفكارَ والقواعدَ وأُسسَ التأثير.

قال الأديب الأريب مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (واللغة هي التي جذبتهم - يعني العرب - إلى هدي الأخلاق بالشعر، وإلى هدي السياسة بالخطابة، وإلى هدي الدين بالقرآن)[1].

(١) تاريخ آداب العرب ص٦٥.

المبحث الرابع

طرق تحصيل الخطابة

لا يولد الإنسان خطيبًا ولا عالمًا ولا داعية، ولكنه يتدرّج في التعلّم مرحلة مرحلة، ويتدرّب شيئًا فشيئًا، مع الاستعانة بالصبر والمصابرة، والاستدامة على الجِدّ والجَلَد والمثابرة؛ حتى يُنمّيَ ما لديه من مهارات، ويقوِّيَ ما عنده من استعدادات؛ ليحصل على مبتغاه وينال مرتجاه، ولمّا كانت الخطابة ذات شأن عظيم وخطر جِدّ جسيم: احتاجت - كغيرها من العلوم والفنون - إلى ما ينمّيها، ويعين على تحصيلها ويغذّيها، وإليك أهمّ طرق تحصيلها:

أوّلًا: الاستعداد الفطري (والمَوْهبة):

إن الله عز وجل خلق الإنسان، وخلق فيه استعدادات ومَلَكات نفسية وعقلية يختلف بها بعضُ الناس عن بعض، والناس يُولَدون ولدى كلّ واحد منهم استعداد وموهبة للبراعة في فنّ من الفنون أو للتميّز في علم من العلوم، أو للبروز في جانب من جوانب الحياة، ومن الناس من ينمّي هذا الاستعداد والموهبة، ومنهم من يهملها حتى تذهب عنه وتضيع منه هدرًا، لا ينتفع بها لنفسه ولا ينفع بها غيره، ومن المعلوم بداهةً أن هذا الاستعداد الفطريّ بداية السُّلّم للارتقاء والصعود للوصول إلى الغاية في البراعة في فنّ الخطابة، بعد تنمية المَلَكَة وصَقْلها بالممارسة والتدريب والصبر والمثابرة.

ويعرف الإنسان من نفسه أنه ذو موهبة في الخطابة إذا كان يميل إليها

ولديه مؤهِّلاتها من طلاقة في اللسان، وفصاحة في البيان، وثبات في الجَنان، وصوت جَهْوَرِيّ وخيال تعبيريّ، وفؤاد ذكيّ وعقل ألمعيّ، مع صحّة في مخارج الحروف، وقدرة على التحليل والتأليف.

ثانيًا: تعلّم أصول الخطابة ودراسة قوانينها:

إذا عَلِمنا أن العلوم منها ما هو فطريّ ومنها ما هو مكتسب؛ فإن على كل من أراد أن يبرع في الخطابة ويكون له فيها شأن يشار إليه ويُذْكَر: أن يضمّ إلى جانب موهبته في الخطابة هضم قوانينها، والامتلاء من أصولها وقواعدها، ودراستها عن كثب وجِدّيّة؛ إذ الاستعداد وحده لا يكفي في أيّ شأن من الشؤون، فلا بدّ إذًا من مزاوجة الموهبة بمعرفة الأصول والقواعد، فكما أنّ تعلّم قواعد النحو لا يصيّر صاحبه نحويًّا بالضرورة ما لم يمرّن نفسه عليه، وأنّ دراسة علم الأخلاق لا تكفُل لدارسها سلوكًا قويمًا وخُلقًا كريمًا ما لم يروّض نفسه عليها، فكذلك وجودُ الموهبة وحدها لا يغني عن تعلّم أصول الفنّ وقوانينه، ولا مجرَّدُ تعلّم تلك الأصول دون وجود الموهبة وتنميتها يصنع خطيبًا.

ومما يدلّ على صدق ما نقول أن الفيلسوف اليوناني الشهير (أرسطو) الذي ألّف كتاب (الخطابة) - وهو من أوائل الكتب التي أُلِّفت في قواعد هذا الفنّ وأصوله إن لم يكن أوّلها على الإطلاق - لم يكن خطيبًا، بل كان بَكِيء اللسان كما قال الجاحظ: (لليونان فلسفة وصناعة منطق، ولكن صاحب المنطق كان بكيء اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وخصائصه)[(١)].

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٤. بكيء اللسان: قليل الكلام خِلقةً - المحكم والمحيط الأعظم ٧/ ٩٧.

ثالثًا: قراءة كلام البلغاء والاطّلاع على أساليب الخطباء ومعرفة طرق الأدباء:

إن من يتصدّى للخطابة – أو لديه موهبة فيها – لا بدّ من أن يكوِّن لديه ثروةً لغويةً من الألفاظ والأساليب، وبلاغةً تُعينه على التَّفنُّن بالكلام وحسن التعبير وجمال الأسلوب، وخبرةً نظرية وعملية عن أساليب الخطباء المصاقع[1] تهبه براعة وتشحذ قريحته، ويكوِّن لديه أيضًا اطّلاعًا على نتاجِ الأدباء نظمِه ونثرِه؛ ليتذوّق عذوبة الكلمات وسِحْر الأسلوب.

فإذا تمّ له ذلك: استطاع أن يصل إلى أعماق جمهوره ويحرّك مشاعرهم ويوقظ ضمائرهم بأيسر الطرق وأقربها إلى العقول والقلوب.

قال ابن الأثير: (الاطّلاع على كلام المتقدِّمين من المنظوم والمنثور، فإن في ذلك فوائدَ جَمَّةً؛ لأنه يعلم منه أغراض الناس، ونتائج أفكارهم، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك، فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة، وتُذْكِي الفطنة...)[2].

رابعًا: الاطّلاع على العلوم والفنون الأخرى:

إن إحاطة الخطيب بالعلوم الأخرى وإلمامه بالثقافات المتعدّدة والفنون المتنوّعة التي تتصل بالجماعة المخاطَبة يعطي الخطيب قوّة في فهم المخاطبين ومعرفة طرق التأثير فيهم، فلا بدّ للخطيب الناجح أن يُلمّ بالمعارف الأخرى من علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والسياسة

---

(١) الخطيبُ المِصْقَع؛ أي البليغُ الماهرُ في خُطبتِه، أو هو الذي لا يُرْتَج عليه ولا يتتعتع في كلامه، وأصله من الصَّقْع وهو رفع الصوت ومتابعته.

(٢) المثل السائر من أدب الكاتب والشاعر ١/ ٥٩.

والاقتصاد والأديان والمِلَل والنِّحَل والشرائع والقوانين، بل يجمُل به – إلى حدّ الوجوب العُرْفيّ – أن يكون مطّلعًا على عادات الناس وتقاليدهم وثقافاتهم واهتماماتهم؛ لينجح في دعوته ويؤدّيَ واجب مهمّته. ولا يليق أبدًا بالخطيب أن يقوم بين أيدي الناس ليخاطب عقولهم ونفوسهم وهو جاهل بتلك العلوم غير والج لأبوابها ولا ملازم لمحرابها أو غير آخذ بأسبابها؛ لأن تأثيره – إن أثّر فعلًا – سيكون وقتيًّا محدودًا، وفاقد الشيء لا يعطيه.

خامسًا: الارتياض والممارسة:

لمّا كانت الخطابة تقوم على الاستعداد الفطريّ والنفسيّ – أوّل الأمر – كان لا بدّ لمن يسعى لِأَن يكون خطيبًا ناجحًا من تنمية مهارته وصقل موهبته، ولا يتمّ له ذلك إلّا بالتدريب الدائم والممارسة المستمرة؛ إذ الخطابة مَلَكة نفسية وسجيّة وجدانية، لا يمكن أن تتكوّن دفعة واحدة كضربةِ لازِبٍ، بل لا بدّ من طول مِران وممارسة وكثير تعب وتدريب؛ حتى تنقاد له الألحاظ والمعاني، وتستجيب للسانه الألفاظ والمباني، وتسترسل معه الأفكار وتَسْتَجْمِع له الأنظار.

هذا وتدور الممارسة والرياضة على الخطابة على أركان ثلاثة هي: الفكرة، والأسلوب، والإلقاء.

فأمّا الرياضة على الفكرة: فأَنْ يعوّد نفسه ترتيب أفكاره، وضبط آرائه، ومعرفة شؤون الناس، دائم الاتصال بهم، عميق التفكير في أمورهم وأحوالهم؛ ليمتزج بهم روحًا بروح وقلبًا بقلب، ولئلّا يُفاجَأ إذا جاء داعٍ للخطاب فلا يملك من أمره شيئًا ولا يقوى على مخاطبة الناس خطابَ إقناع وتأثير.

وأمّا الرياضة على الأسلوب: فأنْ يحفظ له زادًا من الجمل والمفردات ذات القوّة والبلاغة، فمن أراد معنىً كريمًا؛ فلْيلتمسْ له لفظًا كريمًا، والمعنى الشريف حقّه اللفظ الشريف.

وأن يعوّد نفسه أن يتحدّث بأنمق العبارات، وأقوى المفردات والمركَّبات، مع وضوح وإيجاز، آخذًا من أساليب البلغاء، ومقلِّدًا فحول الخطباء، مقتبسًا من عباراتهم، ومتفقّهًا بإشاراتهم، يسير على مثالهم، وينسج على منوالهم، بعيدًا عن التكلّف والتعقيد، متفنّنًا بالأسلوب الأخّاذ الفريد، فتارة يستعمل أسلوب التعجّب، وأخرى أسلوب الاستفهام، وتارة بضرب المثل، وأخرى بالاستعارة والكناية وما يناسب المقام.

قال الجاحظ: (وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نيّة صاحبه وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا، وكان صحيح الطبع بعيدًا من الاستكراه ومنزّهًا عن الاختلال مَصُونًا عن التكلّف: صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة)[١].

وأما الرياضة على الإلقاء: فأنْ يُحسن اختيار المعاني واختيار أحسن الألفاظ التي تعبِّر عنها، وأن يمرّن لسانه على إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، وأن يدرّب نفسه على توظيف صوته ونبراته، رفعًا وخفضًا،

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٥٩.

وصلًا ووقفًا، استفهامًا أو استنكارًا، فرحًا أو حزنًا، رضًا أو سخطًا، أمرًا أو زجرًا. وكلّما كان الأسلوب قويًّا والموضوع واقعيًّا، والحماس مناسبًا والانفعال صادقًا: كان تأثيره عجيبًا، وتطويع مخاطَبيهِ قريبًا.

قال أبو داود بن جرير: (رأسُ الخَطابة الطَّبْع، وعَمودُها الدُّرْبَة، وجَنَاحاها روايةُ الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وبهاؤُهَا تخيُّرُ اللفظ؛ والمحبّةُ مقرونة بقلّة الاستِكْراه)[1].

ولا يخفى ما للتشجيع من أثر كبير في تنمية المهارات وتحفيز الطاقات، فربّ كلمة طيّبة أو نصيحة يُسديها امرؤ لأخيه أو معلّم لتلميذه أو أستاذ لطالبه يجعل الله فيها خيرًا عظيمًا، قال خَلَفٌ الخيَّامُ: سمعت إبراهيم بن مَعقِلٍ، سمعت أبا عبد الله [يعني الإمام البخاريّ] يقول: كنتُ عند إسحاق بن راهويه، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لسنن النبيّ ﷺ! فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب. يعني: كتاب الجامع (المعروف بصحيح البخاري)[2]. وذكر الحافظ الذهبيّ رَحِمَهُ اللهُ أن شيخه علم الدين البِرْزالِيّ هو الذي حبّب إليه العناية بالحديث النبوي الشريف قال: (وهو الذي حبّب إليّ طلب الحديث، فإنه رأى خطّي، فقال: خطّك يشبه خطّ المحدّثين! فأثّر قوله فِيّ)[3].

وصفوة القول: إن ذا الموهبة في الخطابة إذا تمرّن ومارس الخطابة حتى تشبّع منها وارتوى من منهلها - نظريًّا وعمليًّا - وصار بعد طول

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٠١، تاريخ بغداد ٢/ ٣٢٢.
(٣) فوات الوَفَيَات ٣/ ١٩٧-١٩٨.

الدُّرْبة والممارسة ذا قلب مفكِّر، وبيان مصوِّر، ولسان معبِّر: فقد تأهّب للاستحواذ على قلوب الناس وعقولهم إذا ما خاطبهم، وأضحى أهلًا لأن يكون خطيبًا مِصْقَعًا لا يشقّ له غبار.

المبحث الخامس

نشأة الخطابة

إن الخطابة فنّ وعلم، فأمّا من جانب كونها فنًّا فهي قديمة قدم الإنسان؛ لأن كلّ إنسان - منذ خُلِق - يحتاج إلى اللغة ليعبّر عما في صدره ويُبِين عما في ضميره، والاستعداد للخطابة بهذا الشكل مستقرّ عند كلّ أحد، ولم تخلُ منها أمّة من الأمم، ولكنْ لا ينبغ فيها إلا النادر من الناس، ولا يتفوّق فيها إلا القليل من الرجال، وقد نقل الجاحظ أن (الخطابة شيء في جميع الأمم وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة)[١].

وأشهر الناس في الخطابة وأرسخهم قدمًا وأعظمهم تأثيرًا: الأنبياء والرسل عليهم السلام، وخطيبهم هو شعيب عليه السلام، وذلك لأن الخطابة هي دعامة الدعوة الأولى والآلة الأقوى والسلاح الأمضى؛ لإحقاق الحق وتعرية الباطل، وبيان المحجة وإيضاح السبيل. وفي بعض الكتب المقدّسة نماذج من تلك الخطب النبويّة.

وأمّا عن نشوء الخطابة من حيث كونُه علمًا مستقلًّا له أصوله وقواعده وقوانينه فلم يكن كذلك إلّا في عصر اليونانيين، كما سيأتي قريبًا إن شاء الله تعالى.

المطلب الأول: الخطابة عند اليونان:

كانت اليونان عبارة عن دويلات صغيرة، وقبائل من أماكن شتّى، لا

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٩٨.

تكاد تجمع بينها جامعة، فهي ليست كالقبائل عند العرب مثلًا، ولكنهم كانوا قومًا منطقيين يفكّرون ويتكلّمون بالعقل، ويربطون العلوم والأحداث بالعقل وقوانينه، ولهذا يبدو أن الخطابة عند اليونانيين نشأت متأثرة بالفلسفة والمنطق، تستمدّ منهما قوانينها وأصولها.

ومن عوامل اشتهار اليونانيين في الخطابة: الحروب التي دارت بينهم أو بينهم وبين غيرهم، وهي تحتاج إلى تشجيع المحاربين واستثارة الجماهير، وقوّة العاطفة ورهف الإحساس لديهم، والتأثر بالعلم والمنطق والفلسفة، إضافة إلى كثرة العلماء والفلاسفة والشعراء، وتنافس الناس أفرادًا وأحزابًا، وانتشار الحرية الفكرية والسياسية، وكثرة النزاعات والخصومات في المحاكم، وكانت طبيعة النظام - السياسيّ والقضائيّ - في اليونان أن يدافع كلّ شخص عن نفسه ولا يدافع عنه أحد. كل هذه الأسباب وسواها أوجدت بيئة خصبة وحاجة ماسّة لتعلّم الخطابة.

زد على ذلك أن الفلاسفة السوفسطائيين[1] لم تكن الحقيقة هدفهم من الجدال الذي يثيرونه، وإنما كان هدفهم اجتذاب الناس إليهم وإقناعهم بما يرون ويفكّرون.

وبلغ من تقدير اليونانيين للخطابة وتشجيعهم لأهلها أنها صارت سلّمًا لبلوغ المناصب في الدولة بحيث لا يرقى إليها إلا الشرفاء من الناس، وهم الذين يقرّرون الحرب والسلم، ويوجّهون الحكومة بخطبهم، ويسنّون

(١) وهم جماعة من الفلاسفة اعتمدوا على الجدل والمغالطة واتّخذوا الفنّ الخَطابيّ أساسًا لنشر أفكارهم ومعتقداتهم بين الناس عامّة والشباب خاصّة. والسُّوفِسْطَائيّة: فرقة يُنكرون الحسّيّات والبديهيّات وغيرها، الواحد سُوفِسْطَائِيّ. المعجم الوسيط ٤٣٣ مادّة سفسط، وكشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ١/ ٩٥٧.

الضرائب، ويخوضون في شؤون الدولة صغيرها وكبيرها، بل عُهد إلى بعض الخطباء إدارة أمور البلد، من ذلك أن كلون عُيِّن قائدًا، وتولّى الخطيب الشهير ديموستين حرب فيليب وحلفائه من أجل حرّيّة اليونانيين واستقلالهم(١).

وقد عُنِيَ اليونانيون بالخطابة عناية بلغت الغاية والقمّة، وكتبوا فيها أبحاثًا وتوسّعوا في ذلك، لكن لم يدوَّن كعلم وفنّ بقواعد وأصول بعدُ، وأوّل ما دوِّنت قواعده في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد على أيدي ثلاثة من فلاسفتهم، وهم: بروديكوس وبرتاغوراس وكانا في عصر واحد، وجورجياس ٣٨٠ قبل الميلاد، ثمّ جاء الفيلسوف اليوناني الشهير (أرسطو) في القرن الرابع ٣٢٢ قبل الميلاد فجمع شتاته ولمّ شعثه ووضع أصوله وقواعده في كتاب سمّاه (الخطابة)، وقد نقله إلى العربية بشر بن متى، وذلك في القرن الثالث الهجري، ولخّصه ابن رشد، ثم تلقّف الفلاسفة وغيرهم كتاب أرسطو هذا وانتشر حتى أضحى عُمدةً في علم الخطابة؛ كما سبقت الإشارة إليه.

ومن أشهر خطباء اليونان: ديموستين، وإسكينز، وسولون، وخطيب المحافل: جورجياس، وخطيب المحاكم: لوسياس.

المطلب الثاني: الخطابة عند الرومان:

كان الرومان يتشبّثون بتراثهم ويقاومون كلّ دخيل، ولم يكن لديهم اهتمام بالأدب والفنون وكان زعيمهم (كاتو) يقاوم الأدب الإغريقي

(١) تاريخ الحضارة شارل سنبوبوس ١٠١.

بقوة، حتى إذا هلك في عام ١٤٨ قبل الميلاد واستولى الرومان على بلاد الإغريق بعد عامين من وفاته: عجّت روما بالمثقفين والفلاسفة والخطباء اليونانيين، وفتح الرومان مدارس يتلقّون فيها العلوم والفنون على أيدي معلمين يونانيين، وكان منها تعلُّم الخطابة، وقد أقبل عليها الرومان باندفاع حتى أضحت اهتمامهم الأوّل، وأصبحت - كما كان الحال في اليونان - سلّمًا للوصول إلى المناصب والمواقع المؤثِّرة.

وفي العهد المسيحيّ للرومان تطوّرت الخطابة نوعًا ما لمعنًى دينيّ، وبرزت خطب وخطباء، لكن هيمنة هِرَقْل على الشأن العامّ ومنه الدينيّ وتعصّبه لمذهبه الذي ارتآه في المسيحية؛ أدى إلى اتّباعه أسلوب القوة والبطش الذي أطاح بالخطابة والخطباء.

والجدير بالذكر هنا أن الخطابة عند الرومان تأثرت بالثقافة القانونية التي برعوا فيها، فكانت خطبهم تعتمد على التفصيل والقياس والاستنباط، بخلاف الخطابة عند اليونان فإنها كانت تعتمد على الأدلة المنطقية والعقلية وترتيبها؛ لتأثُّر الخطباء اليونانيين بالفلسفة.

ومن أشهر الخطباء الرومان: ماركوس توليوس شيشرون ١٠٦- ٤٣ قبل الميلاد، وأنطونيو وهو صاحب القيصر اليونانيّ يوليوس، وكونتليان الذي ألّف كتابًا في اثني عشر جزءًا في أسس الخطابة.

المطلب الثالث: الخطابة عند العرب في العصر الجاهليّ:

لقد عُرف عن العرب - في العصر الجاهليّ - بساطتهم وسليقتهم، فهم على سجيّتهم؛ إذْ كانوا يعيشون في صحارى وقِفَار جرداء لا نبات فيها ولا ماء، يرضون من الحياة بالكفاف، ويكتفون بما لديهم وإن قلّ، مع العزّة

والعفاف، وهذه الخشونة في العيش، والقناعة باليسير - مع القيم التي يحملونها ويعتزّون بها - ولّدت لديهم الأَنَفَة والاعتزاز بالذات، فعاشوا أحرارًا أُباة للضيم، يتفاخرون بحسن الكلمة وإجادة القول، كما يتفاخرون بالنخوة والشجاعة والكرم، وعلى الرغم من أنهم كانوا أميّين يقلّ فيهم من يقرأ ويكتب؛ إلا أنهم كانوا أرباب الفصاحة وأهل البلاغة وفرسان البيان، فلقد رُزِقوا بديهة حاضرة، ولغة ناضرة، وخصالًا باهرة؛ من شدّة بأس، وقوّة بطش، وحماية للذِّمَار، ورعاية لحرمة الجوار، مع قوة الصبر والتحمّل بنفس أبيّة، وأنفة وحميّة، وإكرام للضيف واعتزاز بالسيف.

ولم يقلّل من شأنهم في هذا الميدان أنهم كانوا قبائل بدائية لا يحتكمون إلى قانون يربطهم، ولا إلى حكومة منظَّمة تضبطهم، وليس لهم في هذا الجانب إلا زعيم ترجع إليه القبيلة إذا ما أتاها أمر ذو بال من الخير أو الشرّ؛ لأن عصبيتهم القويّة وقِيَمَهم الأبيّة حلّت محلّ القانون والحكومة، ولذلك تجدهم يثورون لأوهى الأسباب أو يشنّون الحرب تلو الحرب؛ دفاعًا عن حميّتهم وأعراضهم وأموالهم، وربّما أثّر فيهم القول أكثر من الصَّوْل، فكانت الخطابة لهم ضروريّة، وفيهم فطريّةً؛ إذ كان لكلّ قبيلة شاعر وخطيب يذود كلّ واحد منهما بلسانه عن قبيلته، وكل واحد منهما محلّ افتخار القبيلة بين القبائل الأخرى.

بَيْدَ أنه غلب عليهم في خطبهم الارتجال، وأكثروا فيها من ذِكْر الحِكَم والأمثال، فالعربيّ يستخرج الكلام من منبعه كما يسلّ السيف من غمده، فتأتي كلماته غاية في الصدق والسجيّة والتأثير، بعيدًا عن التصنّع والمبالغة والتقعير، أيْ دونما سابق تحضير ولا استعداد ولا استقصاء ولا ترابط أفكار، وهذا من شأنه أن يجنّبهم المبالغة والغلوّ في التعبير، وهو من أهم

ما ميّز الخطابة عند العرب؛ أيْ أنهم لم يكونوا كاليونان والرومان يعتمدون كثيرًا على الإعداد وترتيب الأدلّة العقلية والمنطقية وتنسيق الأفكار.

سئل أبو عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ فقال: نعم لِيُسمَع منها، قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليُحفَظ عنها. قال: وقال الخليل بن أحمد: يطول الكلام ويكثر ليُفهَم، ويُوجَز ويختصر ليُحفَظ؛ وتستحبّ الإطالة عند الإعذار، والإنذار، والترهيب، والترغيب، والإصلاح بين القبائل؛ كما فعل زهير، والحارث بن حِلِّزة، ومن شاكلهما، وإلا فالقطع أطير في بعض المواضع، والطوال للمواقف المشهورات.

ويحكى أن الفرزدق لمّا وقع بينه وبين جرير ما وقع وحُكم بينهما قال بعض الحكّام: الفرزدق أشعر؛ لأنه أقواهما أسر كلام، وأجراهما في أساليب الشعر، وأقدرهما على تطويل، وأحسنهما قطعًا، فقدم بالقطع كما ترى. وقال بعض العلماء: يحتاج الشاعر إلى القطع حاجته إلى الطوال، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثّل والمُلَح أحوج إليها منه إلى الطِّوَال(1).

ويقول الجاحظ: (وكلّ شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلّا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالًا [أفواجًا]، وتنثال عليه

(1) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني ١/ ٦٠، أدب الكاتب للصولي ١/ ٦٢.

الألفاظ انثيالًا، ثم لا يقيّده على نفسه، ولا يدرّسه أحدًا من ولده. وكانوا أمّيين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكلّ واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلّف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب)[١].

وقال أبو حيان التوحيديّ يحكي إحدى النوادر المفيدة عن أبي سليمان: (سمعته يقول: نزلت الحكمة على رؤوس الروم، وألسن العرب، وقلوب الفرس، وأيدي الصين)[٢].

وأكثر ما كانت الخطابة عند العرب في التحريض على القتال، وإصلاح ذات البين، والتحكيم في الخصومات، وفي المفاخرات والمنافرات، وفي الوصايا والوعظ. وكانوا مُقِلّين من خطب التأبين والوفود والتكريم والإملاك والتزويج.

ومن أهمّ العوامل التي ميّزت العرب في الخطابة وطارت بشهرتهم فيها: القدرة على البيان، وسرعة البديهة، وقوّة الحافظة، والسليقة النّقيّة، وكثرة الحروب والنزاعات والخصومات، فكانت كلّ قبيلة تحتاج إلى من ينافح عنها ويدافع عن كيانها وعرضها، إضافة إلى وجود المناسبات العامة أو

---

(١) البيان والتبيين ٣/ ٢٠.
(٢) المقابسات ص٢٦٠.

الحفليّة؛ كالرثاء والتأبين والزواج والصلح... والدعوة إلى الفضيلة والقيم الأصيلة.

(وكان من عادة الخطيب في غير خطب الإملاك والتزويج أن يخطب قائمًا أو على نَشَزٍ ومرتفع من الأرض، أو على ظهر راحلته؛ لإبعاد مدى الصوت، والتأثير بشخصه وإظهار ملامح وجهه وحركات جوارحه، ولا غنى له عن لوث وعصب العِمامة، والاعتماد على مِخصَرة أو عَصًا أو قناة أو قوس، وربّما أشار بإحداها أو بيده)[1].

ولقد حلّت الخطابة أعلى منازلها، وتسنّمت أسمى مراتبها، حينما انحطّ قدر الشعر عند العرب، وقلّ مقدار الشاعر عندهم، وذلك لأن الشعراء اتخذوا الشعر للتكسّب، وتعرّضوا فيه لِلحُرَم، ولوّثوه بالأطماع، وصار مهنة يتعاطاها في كثير من الأحايين السفهاء والمتملِّقون.

قال الجاحظ: (وقال أبو عمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم ويفخّم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السُّوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر)[2].

ولم ينقل إلينا إلا النَّزْر اليسير من خطب العرب في جاهليتهم؛ لعنايتهم بالشعر أكثر من عنايتهم بالخطابة، ولصعوبة حفظ النقل في الخطب دون الشعر.

---

(١) جواهر الأدب للهاشمي ٢/ ١٧، وانظر البيان والتبيين ٣/ ٨٠ فما بعد.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٠٣.

أبرز صفات الخطيب في العصر الجاهليّ:

يتميز الخطيب العربي في الجاهلية بمزايا عديدة وصفات فريدة، ومن أبرزها:

١- أن الخطيب له شأن كبير وشأوٌ خطير في قومه، فإما أن يكون زعيم القبيلة أو أحد شجعانها أو فرسانها، أو حكيمًا من حكمائها، أو قاضيًا، أو رجلًا من آحادها، لكنه تميّز بأهليّةِ أن يكون مسموع الكلمة مُلبَّى الدعوة، فكعب بن لؤيّ كان سيّد كِنَانة، وأكثم بن صيفيّ حكيم تميم، وقُسّ بن ساعدة حكيم قومه ومُفَوَّههم وقاضيهم إذْ كان الناس يتحاكمون إليه.

٢- الخطيب العربي ذو فصاحة وبيان وإلقاء؛ لأنه في قوم اتصفوا بذينك، فلا يصلح للخطابة فيهم تمتام ولا تأتاء ولا فأفاء، ولا ذو عِيّ وحَصَر، ولا شيء من عيوب اللسان والبيان.

٣- والخطيب العربي ثابت الجَنان رابط الجأش قويّ النفس، لا يعتوره اضطراب، ولا تعروه رِعْدة، ولا يتبعه ضعف، ولا يصيبه خَوَر.

٤- والخطيب العربيّ جَهْوَريّ الصوت قويّ النبرة؛ ليُسمعَ الناس ويؤثّر في نفوسهم، وقد قالت العرب في وصف الخطيب المُجيد (خطيبٌ مِصْقَع) من الصَّقْع وهو رفع الصوت.

٥- ومن صفاته أيضًا أنه شديد الذكاء حاضر البديهة؛ يدل على ذلك أنه يعتمد الارتجال في خطبه، والارتجال يحتاج لبديهة حاضرة تسعفه عند الحاجة.

٦- ومن صفاته أيضًا: جمال الصورة، وحُسْن القَوَام، وسلامة الفم والأسنان، وذو شرف ومهابة ووقار، وذو حسب ونسب في قومه، ولذا قال قيس بن عاصم مادحًا خطباء قومه:

خُطباءُ حينَ يقومُ قائلُهمْ بيضُ الوجوهِ مَصاقِعٌ لُسْنُ(١)

وقال آخر يفتخر بقومه في المعنى:

وإنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كِرَامٍ أَعِزَّةٍ لأَقْدَامِهِمْ صِيغَتْ فُرُوعُ المَنَابِرِ
خَلائفُ في الإسلامِ في الشِّركِ قادةٌ بِهِمْ وإلَيْهِمْ فَخْرُ كلِّ مُفَاخِرِ

أشهر خطباء العرب في الجاهلية:

واشتهر من العرب خطباءُ مصاقعُ بارعون كان لهم تأثير كبير في أقوامهم، ومن أشهرهم:

١- كعب بن لؤيّ: (توفي ١٧٣ق هـ = ٤٥٤م) وهو كعب بن لؤيّ بن غالب، من قريش، من عدنان، أبو هُصَيص: جدٌّ جاهلي، وهو الجدّ السابع للنبي ﷺ، خطيب من سلسلة النسب النبوي. كان عظيم القدر عند العرب، حتى أرّخوا بموته إلى عام الفيل، وهو عام مولد النبي ﷺ، ثم أرخوا بالفيل إلى أن ظهر الإسلام، فكانوا يؤرّخون بالوقائع إلى أن اتّخذ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الهجرة تاريخًا للمسلمين. وبين موت كعب بن لؤي والفيل ١٢٠ سنة. وهو أوّل من سنّ الاجتماع يوم الجمعة، وكان اسمه يوم العَروبة، فكانت قريش تجتمع إليه فيه،

(١) الخطابة ١٩١-١٩٢ لأبي زهرة، نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري ٦/ ٤٧.

فيخطبهم ويعظهم(١). وفي البداية والنهاية ذكر ابن كثير أن بين موت كعب بن لؤي ومبعث النبي ﷺ ٥٦٠ عامًا(٢).

٢ - وقُسُّ بن ساعِدةَ الإياديّ خطيب عُكَاظ، وهو خطيب العرب قاطبة، والمضروب به المثل في البلاغة والحكمة، كان يَدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث، ويدعو العرب إلى نبذ العكوف على الأوثان، ويرشدهم إلى عبادة الخالق، ويقال: إنه أول من خطب على شرف، وأول من قال في خطبه: أما بعد، وأول من اتّكأ على سيف أو عصًا في خطابته، وكان الناس يتحاكمون إليه، وهو القائل: البيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، وقيل: إن النبي ﷺ سمعه (قبل البعثة) يخطب في عكاظ فأثنى عليه، وعُمِّر قسّ طويلًا ومات قبيل البعثة.

ومن خطبه: خطبته التي خطبها في سوق عكاظ كما يروى: (أيُّها النّاسُ اسْمَعُوا وعُوا، إنّه مَن عاش مات، ومَنْ مات فات، وكُلُّ ما هو آتٍ آت. لَيْلٌ داج، ونهارٌ ساج، وسماءٌ ذاتُ أبْرَاج، ونُجُومٌ تُزْهِر، وبحارٌ تزْخَر، وجِبالٌ مُرْساة، وأرضٌ مُدْحاة، وأنهارٌ مُجْرَاة، إنّ في السماءِ لَخَبَرًا، وإنّ في الأرضِ لَعِبَرًا. ما بالُ النّاس يَذْهَبُونَ ولا يَرْجِعُون؟ أَرَضُوا فأَقامُوا؟ أم تُرِكُوا فنامُوا؟ يقسم قُسٌّ بالله قسمًا لا إثم فيه إن لله دينًا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكرًا). وهو أوّل من خطب على العصا والراحلة، وأول من أظهر التوحيد بمكّة وما حولها مع ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نُفَيل.

---

(١) الأعلام للزركلي ٥/ ٢٢٨.
(٢) البداية والنهاية ٢/ ٣٠٣.

٣- وأكثم بن صيفيّ زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى، وهم: أَكْثَمُ بن صَيْفيّ وحاجب بن زُرَارة التَّميميّان، والحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريان، وخالد بن جعفر وعَلْقَمة بن عُلَاثَةَ وعامر بن الطّفيل العامريون، وعَمْرُو بنُ الشَّرِيد السُّلَمِيّ، وعَمْرُو بن مَعْدِ يكَرِبَ الزُّبَيديّ، والحارثُ بن ظالمٍ المُرّيّ.

وأكثم بن صيفيّ هو أعرف الخطباء بالأنساب، وأكثرهم ضرب أمثال وإصابة رأي وقوة حجّة، وقلّ من جاراه من خطباء عصره، ولقد بلغ من إعجاب كسرى به أن قال له: (لو لم يكن للعرب غيرك لكفى). وقد عُمّر طويلًا حتى أدرك مبعث النبي ﷺ، وجمع قومه وحثّهم على الإيمان به، وفي إسلامه روايات.

وكان في خطبه قليل المجاز حسن الإيجاز حلو الألفاظ دقيق المعاني مولعًا بالأمثال(١).

٤- وذو الإصبع العَدْواني وهو: حُرْثان بن مُحَرِّث، أو حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة (توفي نحو ٢٢ ق هـ = نحو ٦٠٠ م) من عَدْوَان، ينتهي نسبه إلى مضر: شاعر حكيم شجاع جاهلي.

لقب بذي الإصبع لأن حيّة نهشت إصبع رجله فقطعها، ويقال: كانت له إصبع زائدة. وعاش طويلًا حتى عُدّ في المعمّرين. له حروب ووقائع وأخبار. وشعره مليء بالحكمة والعظة والفخر(٢).

٥- وقيس بن خارجة بن سِنان الغَطَفَانيّ: من غَطَفَان، خطيب حرب داحِس

(١) جواهر الأدب للهاشمي ١٧-٢٠، الأوائل للعسكري ٦٧.
(٢) الأعلام ٢/ ١٧٣.

والغبراء، وخطيب غطفان، قالوا: خطب يومًا إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولا معنًى، وعرفت خطبته بالعذراء[1].

٦- وخُويلد بن عمرو الغَطَفَانيّ خطيب يوم الفِجَار.

نماذج من خطب العرب في الجاهلية:

١- ومن ذلك خطبة قسّ بن ساعدة الإيادي بسوق عكاظ فيما يروى: (أيها الناس، اسمعوا وعُوا، مَن عاش مات، ومَن مات فات، وكلّ ما هو آتٍ آت، إنّ في السماء لخبرًا، وإنّ في الأرْض لَعِبرًا، سَحَائِبُ تَمُور، ونُجُوم تَغُور، لا فلك يَدور، ويُقْسم قُسٌّ قَسَمًا، إن لله لَدِينًا هو أرضى من دِينكم هذا. ثم قال: ما لي أرى الناس يَذْهبون ولا يَرْجِعون، أَرَضُوا بالإقامة فأقاموا؟ أم تُركوا فناموا؟)[2].

٢- ومنها: خطبة أبي طالب حين خطب النبي ﷺ خديجة رضي الله عنها: (الحمد لله الّذي جعلنا من زرع إبراهيم وذريَّة إسماعيل، وجعل لنا بيتًا معمورًا وحرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كلِّ شيء، وجعلنا الحكَّام على النّاس في مولدنا الّذي نحن فيه، ثم إن ابن أخي محمّد بن عبد الله بن عبد المطلّب لا يوزن برجل من قريش إلّا رجح به، ولا يقاس بأحدٍ منهم إلّا عظم عنه، وإن كان في المال قلةٌ فإنّ المال رزقٌ جاءٍ وظلٌّ زائل، وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، والصَّداق ما سألتم، عاجله وآجله من مالي، وله خطرٌ عظيم وشأن شائع جسيم)[3].

(١) البيان والتبيين ١/ ٧٦، جواهر الأدب ١/ ٢٦٩.
(٢) العقد الفريد ٢/ ٢٢، صبح الأعشى ١/ ٢٥٥، جمهرة خطب العرب ١/ ٣٨.
(٣) الجليس الصالح والأنيس الناصح ٤١٧، صبح الأعشى ١/ ٢٥٦.

٣- خطبة أكثم بن صيفيّ بين يدي كسرى: (إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمّها نفعًا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح فساد الرعيّة خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان الغاصّ بالماء. شرّ البلاد بلاد لا أمير بها. شرّ الملوك من خافه البريء. المرءُ يَعْجِزُ لا المحَالَةُ. [يعني أن العجز أتى من قِبَلِه فأمّا الحيلة فواسعة].

أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يراءِ بالنصيحة. أحقّ الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلّغك المحل. حسبُك من شرٍّ سماعُه. الصَّمْتُ حُكْمٌ وقَلِيلٌ فَاعِلُه. البلاغة الإيجاز. من شدّد نفّر، ومن تَرَاخَى تألّف)[١].

المطلب الرابع: الخطابة في صدر الإسلام:

كان ظهور الإسلام في جزيرة العرب إيذانًا بعهد جديد في كل مناحي الحياة، وحدثًا جللًا غيّر مسار العرب ومجرى تاريخهم، ودعوةً صريحة لمحاربة الشرك ولنبذِ كلّ رذيلة، ولتوحيد الله وإشهارِ كلّ فضيلة، ولمّا كانت الخطابة سلاح الدعوة الأولى فقد اتخذها النبي ﷺ أداة لتبليغ دعوة الله إلى الناس ومشعلًا لهدايتهم، وكان أشهر موقف للنبي ﷺ قام فيه خطيبًا

---

(١) العقد الفريد ١/ ٩٧، جمهرة خطب العرب ١/ ٥٦.

في قومه - في أوائل دعوته - يوم أنزل الله عز وجل عليه قوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، صَعِدَ النبيُّ ﷺ على الصَّفا، فجَعَلَ يُنادِي: «يا بَنِي فِهْرٍ، يا بَنِي عَدِيٍّ» لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حتّى اجْتَمَعُوا، فجَعَلَ الرَّجُلُ إذا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رسولًا لِيَنْظُرَ ما هو، فجاء أبو لَهَبٍ وقُرَيْشٌ، فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قالوا: نَعَمْ، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلّا صِدْقًا، قال: «فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فقال أبو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد][1].

وانتقلت الخطابة في طورها الإسلامي الأول نُقْلَة نوعية عظيمة في شكلها ومضمونها، فبينما كانت الخطابة في العصر الجاهلي تنبعث من الحمية والعصبية الجاهلية، وفي التحريض على القتال والتحكيم في الخصومات، والمفاخرات والوصايا والمنافرات... لم تعد كذلك بعد ظهور الإسلام، إذ تبوّأت منزلة شريفة، ومكانة عالية منيفة، وأصبحت فرضًا شرعيًا لا بدّ من أدائه، وواجبًا لا محالة من قضائه، إذْ أضحت لازمة في كلّ يوم جمعة وفي العيدين، وشُرعت في الكسوف وفي الاستسقاء، وفي عرفة وفي بعض أيام التشريق في موسم الحجّ، وفي الجهاد لبثّ الحماسة في نفوس المقاتلين واستثارة عزائمهم، وفي غيرها من المواضع والمناسبات.

وصار من أعظم غاياتها وأجلى سِماتها: الدعوة إلى التوحيد، ونبذ

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

الشرك والتنديد، وإلى الأخلاق الكريمة والقيم العظيمة، ومحاربة العصبية والحرص على إذابتها ومحوها، وإحلال الأخوّة الإسلامية السامية محلّها، والدعوة إلى وحدة الأمة والاستظلال بظلال قيم الإسلام التي لا تفضّل عربيًّا على أعجميّ ولا أعجميًّا على عربيّ، ولا أبيضَ على أسودَ ولا أسودَ على أبيضَ إلا بمقدار تقواه لله وعمله الصالح.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعن أبي نَضْرةَ: حدَّثَني مَنْ سَمِعَ خُطبةَ رسولِ الله ﷺ في وَسَطِ أيّام التَّشْرِيق فقال: «**يا أيُّها النَّاسُ: ألَا إنّ رَبَّكُمْ واحدٌ، وإنّ أَباكُمْ واحدٌ، ألَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ على أَعْجَمِيٍّ، ولَا لِعَجَمِيٍّ على عَرَبِيٍّ، ولَا لِأَحْمَرَ على أَسْوَدَ، ولَا أَسْوَدَ على أَحْمَرَ، إلّا بِالتَّقْوَى**»(١).

وهذا أسمى ما كانت عليه الخطابة في هذا العصر من حيث المضمون.

وأما من حيث الشكل فقد تميّزت بالفصاحة والبلاغة وجودة العرض وحسن الأسلوب، إذ أصبحت الخطب تُفتتح بالحمد والشهادتين وآيات من القرآن الكريم، وتُختتم بذكر الله تعالى والدعاء، حتى إن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان ما زالوا يسمّون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد ويستفتح كلامه بالتمجيد (البتراء)، ويسمّون التي لم تُوشَّح بالقرآن وتُزيَّن بالصلاة على النبي (الشوهاء)؛ كما قال الجاحظ.

وتأثرت بأسلوب القرآن الكريم، وما فيه من الوعد بالثواب والوعيد

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩) وصحّحه محقِّقه شعيب الأرناؤوط.

بالعقاب، والترغيب والترهيب، والوعظ والتذكير، وذكر أحوال الأمم الماضية وأخبارها السالفة، فرقّق الطباع، وهذّب الأخلاق، وغرس القِيَم، ومحا المستنكر من الصفات والمستقبح من الشِّيَم، وقد كان للقرآن أثر عظيم في تقوى النفوس وتزكيتها، وفي قوّتها وتغذيتها، وتأثَّر الخطباء بمنهجه في الإقناع بالاستدلال وقوة الحجة، وباستمالة المخاطبين بقوة الأسلوب ومخاطبة هواجس النفوس وخلجات الصدور ومشاعر الوجدان.

وكذلك كان لحديث النبي ﷺ بالغ الأثر في تحوّل وجهة الخطابة وتطوّرها قلبًا وقالبًا، فقد أضاف الحديث النبوي إلى اللغة ثروة جديدة في الأسلوب والمعاني، وسهولة وعذوبة في الألفاظ والمباني، فهو فصل الخطاب، ومحَزّ الصواب، فالقرآن والحديث ألانا القلوب بعد قسوة، وقرّباها إلى الرقة والرحمة بدل العنف والجفوة، وصار الاقتباس منهما سمة كلّ خطيب، وتحوّلت الغاية من الحمية الجاهلية والمفاخرة وكسب الشهرة والصيت، إلى الدفاع عن الإسلام وقيمه المثلى، وإعلاء كلمة الله والسعي لرضوانه وإسعاد الناس بدينه.

ومما زاد الخطابة هنا أهمّيّة وأولاها عناية فائقة أن النبي ﷺ كان هو الذي يتولّى الخطابة بنفسه، وكذلك كان خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم. قال ابن خلدون رحمه الله: (إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية، في منثورهم ومنظومهم، فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونُصَيب وغيلان ذي الرُّمّة والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدرًا من الدولة العباسية، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة

بن عبدة وطَرَفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة.

والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللذينِ عجَز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقًا من أولئك، وأصفى مبنًى وأعدل تثقيفًا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمّل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة)[١].

وبالجملة: فالخطابة في صدر الإسلام أحدثت قفزة هائلة وتطوُّرًا بارزًا في أسلوب الخطباء ظاهرًا وباطنًا، ومبتَدَأً وغاية، ومنطلقًا وهدفًا، وكمًّا ونوعًا.

وخطباء هذا العهد الميمون - بعد النبي ﷺ - هم الخلفاء الأربعة الراشدون رضي الله عنهم، وثابت بن قيس بن شمّاس خطيب النبي ﷺ.

نماذج من خطب صدر الإسلام:

١ - «إنّ دِمَاءَكُمْ وأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، أَلَا كُلُّ شيءٍ مِنْ أَمْرِ الجاهِلِيّة تحت قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، ودِمَاءُ الجاهِلِيّة مَوْضُوعةٌ، وإنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ

(١) مقدّمة ابن خلدون ٣٧٤.

ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كان مُسْتَرْضَعًا في بَنِي سَعْدٍ فقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، ورِبَا الجاهِلِيّة مَوْضُوعٌ، وأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب، فإنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّه، فاتَّقُوا اللهَ في النِّساء، فإنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ الله، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجهُنَّ بِكَلِمَةِ الله، ولَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فإنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّح، ولَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوف، وقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِه، كتابُ الله، وأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فما أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فقال بِإِصْبَعِهِ السَّبّابة، يَرْفَعُهَا إلى السماء ويَنْكُتُهَا إلى النَّاس: «اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ» ثلاثَ مَرَّاتٍ[(١)].

٢- ومنها: خطبة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين تولّى أمور الخلافة: «يا أَيُّها النَّاسُ، إنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ ولَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فإِنْ ضَعُفْتُ فقَوِّمُوني، وإِنْ أَحْسَنْتُ فأَعِينُوني، الصِّدْقُ أَمانةٌ، والكَذِبُ خيانةٌ، الضَّعِيفُ فِيكُمْ القَوِيُّ عِنْدِي حتّى أُزِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إنْ شاء الله، والقَوِيُّ فِيكُمُ الضَّعِيفُ عِنْدِي حتّى آخُذَ منه الحَقَّ إِنْ شَاءَ الله، لَا يَدَعُ قَوْمٌ الجِهَادَ في سبيلِ اللهِ إلَّا ضَرَبَهُمُ اللهُ بالفَقْر، ولَا ظَهَرَتْ - أو قال: شاعَتِ - الفاحِشَةُ في قَوْمٍ إلَّا عَمَّمَهُمُ البَلَاءُ، أَطِيعُوني ما أَطَعْتُ اللهَ ورسولَهُ، فإذا عَصَيْتُ اللهَ ورسولَهُ فلَا طاعةَ لي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إلى صلاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللهُ»[(٢)].

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البيهقي (١٢٧٨٨)، وعبد الرزاق (٢٠٧٠٢)، وابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢١٨) وقال: إسناده صحيح.

٣- ومنها خطبة عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عن أبي عبدِ الرحمنِ السُّلَمِيِّ قال: خَطَبَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالكوفة فقال: «يا أَيُّها النَّاسُ، إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَيْكُمْ طُولُ الأَمَلِ واتِّبَاعُ الهَوَى، فأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فيُنْسِي الآخِرةَ، وأَمَّا اتِّبَاعُ الهَوَى فيُضِلُّ عنِ الحَقِّ، أَلَا إنَّ الدنيا قَدْ وَلَّتْ مُدْبِرةً، والآخِرةُ مُقْبِلَةٌ، ولِكُلٍّ واحدةٍ منهما بَنُونَ، فكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، ولَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ ولَا حِسَابٌ، وغَدًا حِسَابٌ ولَا عَمَلٌ»[١].

المطلب الخامس: الخطابة في العصر الأموي:

يبدأ العصر الأموي من بعد مقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة ٤٠هـ وتنازل ابنه الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لمعاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة ٤١هـ. وينتهي بمعركة (الزَّاب) بين العباسيين والأمويين في جمادى الأولى سنة ١٣٢هـ التي هُزم فيها الأمويّون بقيادة آخر خلفائهم مروان بن محمد.

والعصر الأمويّ من العصور الإسلامية الزَّاهية المزدهرة علمًا وثقافة وسياسة... والخطابة من بين تلك العلوم التي ازدهرت ونمت في عهد بني أمية، وهو عهد استمر تسعين سنة تقريبًا، لكنه بالإضافة إلى الازدهار والفتوحات التي كانت فيه، كان عصرًا انفتحت فيه أبواب للفتن، بَدْءًا بمقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة ٣٥ هـ، ثم بمقتل الخليفة الراشد الرابع عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثمّ بالقتال الذي كان بين فئة عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي بويع بالخلافة وبين فئة معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المطالِبة بالاقتصاص من قَتَلَة عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهم كانوا قد انضمّوا إلى فئة عليّ، كما أن أمير المؤمنين عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ابتُلِي

---

(١) أخرجه البخاري مختصرًا معلقًا بصيغة الجزم قبل الحديث (٦٤١٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦١٤).

بالخوارج الذين رفضوا التحكيم وخرجوا عليه، ثم تنازل الحسن بن عليّ لمعاوية رضي الله عنهم، ثم مقتل الحسين رضي الله عنه، ثم النزاع بين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وبني أمية، وما تلا ذلك من سفك للدماء واستباحة للحرمات.

وفي وسط هذه الخلافات والمناحرات اشتدّ عود الخطابة أكثر ونمت واستوت على سوقها، وصارت الخطابة أمضى من السيوف، وأقدرَ على التأثير في النفوس في المحافل وعند التحام الصفوف؛ لتوافرِ دواعيها وقيام أسبابها، إضافة إلى كثرة الوفود على الخلفاء والولاة والسلاطين، وتنصيب خطباء يستميلون الناس بقوة إقناعهم وتأثيرهم، وكلّ فئة تفعل ذلك لاكتساب الأنصار والمؤيّدين، وكُلٌّ يدعو إلى فكرته ومناصرة دعوته، وأقيمت مجالس للتباري في الخطابة كتلك التي أقامها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز - والي العراق آنذاك - بين خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى وواصل بن عطاء يوم خطبوا عنده، فنال واصل بن عطاء - وكان معتزليًّا - قصب السَّبق، وكان بشار صديقًا لواصل بن عطاء قبل أن يدين بالرَّجعة ويكفّر الأمة، وكان قد مدح واصلًا وذكر خطبته التي خطبها فنزع منها كلّها حرف الرَّاء وكانت على البديهة، وهي أطول من خطبتي خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة، وقد كان واصل بن عطاء يلثغ بحرف الراء فتجنّبه طول خطبته؛ لئلّا يعاب به. فقال بشار:

تكلَّفُوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلُوا ... وحَبَّرُوا خُطَبًا ناهيكَ من خُطَبِ
فقام مُرتجِلًا تَغْلِي بَداهَتُهُ ... كَمِرْجَلِ القَيْنِ لمّا حُفَّ بِاللهَبِ
وجانَبَ الرَّاءَ لم يَشْعُرْ به أحدٌ ... قبل التصفُّح والإغراقِ في الطَّلَبِ

ولكن الخطابة تراجعت وتردّى أثرها في الناس في آخر العصر الأُمويّ؛

وذلك لتراجع عوامل ازدهارها، وتقهقر أسباب نمائها، التي ذكرتها آنفًا. ولم تَصْحُ في تلك الفترة من غفوتها ولا نهضت من كبوتها إلّا في صدر العصر العباسيّ.

ومن أبرز ما تميّزت به الخطابة في العصر الأمويّ: غلبة لغة الوعيد والتهديد، والإكثار من الفخر والمديح والمبالغة، والسبّ والإفحاش أحيانًا. ومن حيث الأسلوب: كان ظاهرًا فيها الاقتباس من القرآن والسنة وتحسين الخطبة بأبيات من الشعر أحيانًا، وتقسيمها إلى مقدّمة وموضوع وخاتمة.

ومن أشهر خطباء هذا العصر:

معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابنه يزيد، وعبد الله ومصعب ابنا الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحجّاج بن يوسف الثقفيّ، وعبد الملك بن مروان وزياد بن أبيه وعبد الله بن الحسن وزيد بن عليّ بن الحسين، والحسن البصريّ والشعبيّ... ومن خطباء الخوارج: قَطَرِيّ بن الفُجاءة له خطبة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ. وعِمْران بن حِطّان، وأبو حمزة الشّارِي وغيرهم.

نماذج من خطب هذا العصر:

١- **خطبة لمعاوية** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما مرض معاويةُ مرَضَ وفاته قال لمولًى له: مَن بالباب؟ قال: نفر من قُريش يتباشرون بموتك. قال: وَيحك! لـمَ؟ فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يَسُوءهم. وأذِن للناس فدَخلوا، فحمد الله وأثنى عليه وأوْجز، ثمّ قال: (أيها الناس! إنا قد أصبحنا في دَهْر عنود، وزمن شديد، يُعدّ فيه المُحْسن مُسِيئًا، ويزداد الظالم فيه عُتوًّا، لا نَنْتفع بما عَلِمنا، ولا نسأل عما جَهِلنا، ولا نتخوّف قارعة حتى تَحُلّ بنا؛ فالناس

على أربعة أصناف: منهم من لا يَمْنعه مِن الفساد في الأرض إلا مهانة نَفْسه، وكَلال حدِّه، ونَضِيض وَفْرِه؛ ومنهم المُصْلِت لسَيْفه، المُجْلِب برَجْله، المُعْلن بشرِّه، وقد أَشْرَط نفسَه، وأوْبق دِينَه؛ لحُطام يَنْتهزه، أو مِقْنب يَقوده، أو مِنبر يَفْرعه، وليس المَتْجران تراهما لنفسك ثمنًا، وبمالكَ عند الله عِوَضًا.

ومنهم من يَطْلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامَن من شَخْصه، وقارب من خَطْوه، وشمر عن ثَوْبه، وزَخْرَف نَفْسه بالأمانة، واتّخذ سِتْر الله ذَرِيعة إلى المَعْصية، ومنهم مَن أَقعده عن طلب المُلْك ضآلة نفسه، وانقطاع سَبَبِه، فقَصَرَت به الحال عن حاله، فتحلّى باسم القَناعة، وتزيّا بلباس الزَّهادة، وليس من ذلك في مَرَاح ولا مَغْدى. وبقي رجالٌ أغضّ أبصارَهم ذِكْرُ المرْجع، وأراق دُموعَهم خوفُ المَضْجَع، فهم بين شريد نادٍّ، وبين خائف مُنْقمع، وساكت مَكْعوم، وداعٍ مُخلص، ومُوجع ثَكْلان، قد أخْمَلتهم التّقيّة، وشَملتهم الذّلّة، فهم في بَحر أجَاج، أفواهُهم ضامزة، وقلوبهم قَرِحَة، قد وُعظوا حتى مَلّوا، وقُهروا حتى ذَلّوا، وقُتلوا حتى قلّوا. فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُثالة القَرَظ، وقُرَادة الجَلَم؛ واتّعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتّعِظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمة، فقد رَفَضَت مَن كان أشْفقَ بها منكم»(١)(٢).

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٤، البيان والتبيين ٢/ ٣٩، نثر الدر في المحاضرات لأبي سعد الآبي ٣/ ٢١و١٣، عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) عَنود: العُنود: تَرْكُ القصد، يقال: عَنَدَ عن الطريق: إذا عدل عنه، كنصر وسمع وكرم، عنودًا: إذا مال. ونَضِيض وَفْره: أي قلّة ماله. مكعوم: من كعم البعير كمنع: شدّ فاه لئلّا يَعَضّ أو يأكل. المقنب من الخيل: بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلاثمائة. مِنْبر يَفْرعه: يعلوه. ضامزة: ساكتة؛ من ضمز كنصر وضرب: سكت ولم يتكلّم. والبعير أمسك جرته في فيه ولم يجترّ.

٢- **خطبة لعمر بن عبد العزيز** رحمه الله: ولما أفضى إليه الأمر كان أولى خطبة خطب الناس بها أن قال: (أيها الناس! إنّما نحن من أصول قد مضت وبقيت فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله، وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا، وهم فيها نُصُب المصائب مع كل جَرْعة شَرَق، وفي كل أكلة غَصَص، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمَّر معمَّر منكم يومًا من عمره إلا بهدم آخر من أجله)[١].

وأورد القالي في الأمالي هذه الخطبة بصورة أطول وهي: (ما الجزع مما لا بدّ منه؟ وما الطمع فيما لا يرجى؟ وما الحيلة فيما سيزول؟ وإنما الشيء من أصله، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد أصله؟ إنما الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا وهم فيها نهب للمصائب، مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمَّر معمَّر يومًا من عمره إلا بهدم آخر من أجله، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم، فأين المهرب ممّا هو كائن؟ وإنما نتقلّب في قدرة الطالب، فما أصغرَ المصيبةَ اليوم مع عظيم الفائدة غدًا! وأكبرَ خيبةَ الخائب فيه! والسلام)[٢].

٣- **خطبة للحَجّاج بن يوسف الثقفي**: صعِد المنبر فجلس عليه فسكت، وقد اشرأبّوا إليه وجثَوا على الرُّكب وتناولوا الحصى ليقذفوه بها، وقد كانوا حصبوا عاملًا قبله، فخرج عليهم، فسكت سكتة أبهتتهم، وأحبّوا أن يسمعوا كلامه، فكان بدء كلامه أن قال: (يا أهل العراق، يا أهل

(١) مروج الذهب للمسعودي ١/ ٤٢٨.
(٢) الأمالي في لغة العرب ٢/ ١٠٢.

الشقاق، ويا أهل النفاق، والله إن كان أمركم ليهمّني قبل أن آتي إليكم، ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بي، فأجاب دعوتي، ألا إني سريت البارحة فسقط مني سوطي، فاتّخذت هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - فوالله لأجرّنّه فيكم جرَّ المرأة ذيلها، ولأفعلنّ ولأفعلنّ.

قال يزيد: فرأيت الحصى متساقطًا من أيديهم، وقال: قوموا إلى بيعتكم، فقامت القبائل قبيلة قبيلة تبايع، فيقول: من؟ فتقول: بنو فلان، حتى جاءته قبيلة فقال: من؟ قالوا النَّخَع، قال: منكم كُمَيل بن زياد؟ قالوا: نعم، قال: فما فعل؟ قالوا: أيها الأمير شيخ كبير، قال: لا بيعة لكم عندي ولا تَقربونِ حتى تأتوني به. قال: فأتوه به منعوشًا في سرير حتى وضعوه إلى جانب المنبر، فقال: ألا لم يبق ممن دخل على عثمان الدار غير هذا، فدعا بِنِطع وضربت عنقه.

وممّا ورد في خطبته: إني والله يا أهل العراق ما أُغمَز كتَغْماز التين، ولا يُقعقَع لي بالشِّنَانِ [القِرْبة الخَلَق البالية]، ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء، وجريت إلى الغاية القصوى. ثم قرأ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وأنتم أولئك وأشباه أولئك، إن أمير المؤمنين عبد الملك نثر كِنانته فَعَجَم عِيدانَها [يعني مضغها لينظر أيّها أصلب] فوجدني أمَرَّها عودًا وأصلبها مكسرًا، فوجّهني إليكم، ورمى بي في نحوركم، فإنكم أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق، فإنكم طالما أوضعتم في الشر وسننتم سنن الغي، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأُذيقنكم الهوان، ولأَمْرِينّكم

به حتى تدروا، ولألحُوَنَّكُمْ لَحْوَ العود، ولأَعْصِبَنَّكُم عَصْب السَّلَمة [شجر كثير الشوك] حتى تَذِلّوا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تَذَروا العصيان وتنقادوا، ولأَقرعنّكم قرع المروة حتى تلينوا، إني والله ما أَعِدُ إلّا وَفَيْت، ولا أخلُقُ إلّا فَرَيْتُ [أخلُق: أقدر، وفريت: قطعت]، فإيّاي وهذه الجماعات! فلا يركبنّ رجل إلّا وحده، أقسم بالله لتُقبِلُنّ على الإنصاف، ولَتَدَعُنّ الإرجاف، وقيلًا وقالًا وما تقول وما يقول وأخبرني فلان، أو لأدعنّ لكل رجل منكم شغلًا في جسده! فيم أنتم وذاك؟ والله لَتَستَقِيمُنّ على الحق أو لأضربنكم بالسيف ضربًا يدع النساء أيامى، والولدان يتامى، حتى تذروا السُّمَّهى [الباطل]، وتقلعوا عن ها وها، ألا إنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جُبِي فيء، ولا قوتل عدوّ، ولَعُطّلت الثُّغور، ولولا أنهم يغزون كرهًا ما غزوا طوعًا! وقد بلغني رفضكم المهلّب وإقبالكم على مصركم عاصين مخالفين، وإني أقسم بالله لا أجد أحدًا من عسكره بعد ثلاثة إلّا ضربت عنقه وأَنْهَبْت داره!)(١).

المطلب السادس: الخطابة في العصر العباسي:

العصر العبّاسيّ بدأ بسقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ على أيدي بني العبّاس بن عبد المطلب، واستمر حتى سقوط بغداد بأيدي التَّتَار بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م.

وأول خلفاء بني العبّاس أبو العباس السفاح: عبد الله بن محمد بن

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ٣٢٠، الكامل في التاريخ ٢/ ٢٨٠، البداية والنهاية ٩/ ١١.

علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (١٠٤-١٣٦هـ = ٧٢٢-٧٥٤م)، وآخرهم ببغداد: المستعصم بالله، أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله منصور بن الظاهر محمد بن الناصر أحمد بن المستضيء الهاشمي العباسي (٦٠٩-٦٥٦هـ). وينقسم العصر العباسيّ إلى قسمين:

العصر الأول: ويبدأ من ١٣٢هـ إلى ٢٣٢هـ، وهذا عصر القوة والازدهار للدولة العباسية.

والعصر الثاني: ويبدأ من ٢٣٢هـ الذي تولى فيه الخليفة المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون بن المهدي بن المنصور القرشي العباسي البغدادي. ولد سنة ٢٠٥هـ، وبويع عند موت أخيه الواثق في ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ، ومات مقتولًا في شوال سنة ٢٤٧هـ، وينتهي هذا العصر بسقوط بغداد بيد هولاكو ٦٥٦هـ.

وبداية الخطابة في العصر العباسيّ تشبه الخطابة في بداية العصر الأمويّ، وأُفولُ نجمها وتضعضعها قريبة الحال في العصرين أيضًا.

فقد بدأت الخطابة قوية هادرة مؤثِّرة؛ لأنها جاءت في أجواء مشحونة بالثأر، ومترعة بحب الانتقام، وبعد فتنة هوجاء وثائرة عمياء، وبلغت الخطابة شأوها ونالت مجدها واستأثرت بسلطانها في المائة الأولى من هذا العصر، وتولاها أقوام أولو قوة في البيان، وذوو مهابة في السلطان؛ كأبي جعفر المنصور [عبد الله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، (٩٥-١٥٨هـ = ٧١٤-٧٧٥م) ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عُني بالعلوم من ملوك العرب، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعًا]، والمأمون بن الرشيد، وداود بن عليّ بن عبّاس، ومحمد بن عبد الله بن حسن الملقّب

بالنفس الزكيّة، وجعفر الصادق، والعبّاس بن الحسين، وخالد بن صفوان، وغيرهم. وقد أعان على ارتقاء الخطابة وقوتها في هذه الفترة من العصر العباسيّ عواملُ وأسبابٌ، ومنها:

أولًا: الواقع المحتقن بالحروب والمنازعات، والمشحون بالفتن والقلاقل والمناحرات، ممّا دعا إلى العناية بالخطب والخطباء المصاقيع الذين يأخذون منزلتهم في النفوس، ويستميلون القلوب ويهيمنون على العقول؛ لتجييش الجمهور من أجل الدفاع عن الدِّين والكيان، والردّ على الأعداء والخصوم.

ثانيًا: وجود المواهب الخطابيّة والاستعدادات الفِطريّة لدى ولاة الأمر والنهي من بني العباس وبني هاشم عامّة، في صدر الدولة العباسية، قال سعيد بن المُسيَّب رَحِمَهُ اللهُ: (بنو هاشم أعلامُ الأنام، وحُكَّامُ الإسلام)[١].

وقال الجاحظ: (وجماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي، وفي الكمال والجلالة، وفي العلم بقريش والدولة وبرجال الدعوة، مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار، وكانوا يجلّون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك)[٢].

ثالثًا: وجود الجمهور الذَّوّاق للمقال، التَّوّاق للبليغ من أقوال الرجال، الذين يتأثرون بالكلمة فتُقيمهم وتُقعدهم، فهي نور ونار ومشعل فورة وحماس، تأخذ منهم كلّ مأخذ، وتسلب القلوب والألباب.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق القيرواني ١/ ٦٥.
(٢) البيان والتبيين ١/ ١٧٦.

ثـم بعـد المائـة الأولـى مـن صـدر الدولـة العباسـية تراجعـت الخطابـة وتضعضعت أركانها وضعف تأثيرها؛ لقلّة الخلافات والمنازعات التي كانت قبـلُ؛ إذْ توطـدت دعائـم الدولـة وقـلّ الخـروج عليهـا، فضعـف أهـمّ الدواعي إلـى الخطابـة، كمـا أنّ اسـتعانة العباسـيين بالفـرس والترك في تثبيت سـلطتهم ودولتهـم غلّـب العُجمة، وقلّل من التأثر بالـكلام العربي البليغ، وأصبح عامل الاسـتثارة الأكبـر عصبيـة الجنـس والقوميـة لـدى هـؤلاء. أضف إلى ذلـك قلّة عناية الخلفاء بالخطابة وقعودهم عنها، (والناس على دين ملوكهم)، وضعف نفـوذ العـرب وسـلطانهم فـي دولتهـم؛ فـأدى ذلـك كلّـه إلـى تقهقـر الخطابـة وعـدم الاكتـراث بهـا واسـتهانة النـاس بالخطبـاء ونزولهـم مـن أعينهـم[1].

نماذج من خطب هذا العصر:

١- خطبـة أبـي جعفـر المنصـور (عبد الله بن محمد بن علـيّ): خطب بالمدائن عنـد قتـل أبـي مسـلم الخراسـاني فقـال: (أيها النـاس؛ لا تخرجـوا من أنس الطاعـة إلـى وحشـة المعصيـة، ولا تُسِـرُّوا غشَّ الأئمة؛ فإنـه لـم يُسِـرّ أحد قـطّ منكـرةً إلا ظهـرت فـي آثار يـده، أو فَلَتـات لسـانه، وأبداهـا الله لإمامه؛ بإعـزاز دينـه، وإعـلاء حقـه. إنا لن نبخسـكم حقوقكـم، ولن نبخس الدين حقـه عليكـم. إنـه مَنْ نازعنا عُـرْوة هذا القميـص أجزَرْناه خبيّ هـذا الغمْد. وإن أبـا مسـلم بايعَنـا وبايـع النـاس لنا، على أنه مـن نكث بنا فقـد أباح دمه، ثـم نكـث بنـا، فحكمنـا عليه حكمـه على غيـره لنا؛ ولـم تمنعنا إقامـة الحق لـه مـن إقامة الحـق عليه)[2].

(١) الخطابة لأبي زهرة ٢٧١-٢٧٣.
(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٥٣٥، جمهرة خطب العرب ٣/ ٢٧. وخبيّ: أيْ ما خبئ وغاب، وخَبْء الغمد: هو السيف.

٢- وخطب المأمون يوم الجمعة، فقال بعد الثناء على الله عز وجل والصلاة على نبيه ﷺ: (أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، والتنجز لوعده، والخوف لوعيده؛ فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه، وعمل له وأرضاه، اتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم ويفنى، وترحلوا عن الدنيا فقد جدّ بكم، واستعدوا للموت فقد أظلكم، وكونوا قومًا صِيح بهم فأسمعوا، واعلموا أن الدنيا ليست لكم بدار فاستبدلوا؛ فإن الله لم يخلقكم عبثًا ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة جديرة بنقص المدة، وإن غائبًا يحدوه الجديدان الليل والنهار لحريّ بسرعة الأوبة، وإن قادمًا يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة، فاتقى عبد ربه ونصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته؛ فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ويمنّيه التوبة ليسوّفها حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها، فيا لها حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة أو تؤديه أيامه إلى شقوة، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم فيمن لا تبطره نعمته، ولا تقصر به عن طاعته، ولا يحلّ به بعد الموت حسرة، إنه سميع الدعاء، وبيده الخير، وإنه فعال لما يريد)(١).

٣- من خطب هارون الرشيد: (عبادَ الله! إنكم لم تُخلقوا عَبثًا، ولن تتركوا سُدًى، حَصّنوا إيمانكم بالأمانة، ودِينكم بالوَرع، وصَلاتكم بالزّكاة، فقد جاء في الخبر أن النبيّ ﷺ قال: «**لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له، ولا دِينَ لِمَن لا عهدَ له، ولا صَلاةَ لمن لا زكاةَ له**».

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٣٣/ ٣٠٠.

إنكم سَفْر مُجتازون، وأنتم عن قَرِيب تَنتقلون، من دار فَناء إلى دار بقاء، فسارِعوا إلى المغفرة بالتَّوبة، وإلى الرَّحمة بالتّقوى، وإلى الهُدى بالإنابة؛ فإن الله تعالى ذِكْرُه أوْجب رَحْمته للمُتَّقين، ومَغْفرته للتائبين، وهُداه للمُنيبين. قال الله عز وجل وقولُه الحق: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف ١٥٦]، وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه ٥٨].

وإياكم والأمانيّ! فقد غَرّت وأرْدت وأوبقت كثيرًا، حتى أكذبتهم مُناياهم، فتناوشُوا التوبةَ من مكان بعيد، وحِيل بينهم وبين ما يَشْتهون، فأخبركم ربكم عن المَثُلات فيهم، وصَرّف الآياتِ، وضَرَب الأمثال، فرغّب بالوَعْد، وقَدّم إليكم الوعيد، وقد رأيتُم وقَائعه بالقرُون الخوالي جيلًا فجيلًا، وعَهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بُيوتكم ومن بين ظهركم، لا تَدْفعون عنهم ولا تَحُولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا، وانقطعت بهم الأسباب، فأسلمتْهم إلى أعمالهم عند المَواقف والحساب والعقاب، ليُجْزى الذين أساءوا بما عملوا، ويُجزى الذين أحسنوا بالحُسنى.

إنّ أحسنَ الحديث وأبلغَ الموعظة كتابُ الله، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ « أعوذ بالله العظيم من الشَّيطان الرجيم، إنه هو السّميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾، آمركم بما أمَركم اللهُ به، وأنهاكم عما نَهاكم الله عنه، وأستغفر الله لي ولكم»(١).

(١) العقد الفريد ٢/ ٩. وحديث «لا إيمان لمن لا أمانة له...» أخرجه أحمد وابن حبان وغيرهما

المطلب السابع: الخطابة في العصر الحديث:

مرّ الأدب العربي - والخطابة جزء منه - بخمسة عصور، وهي: العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام، ويمتدّ من بعثة النبي ﷺ إلى آخر عصر الخلفاء الراشدين.

والعصر الأموي الذي يبدأ من نهاية عصر الخلفاء الراشدين إلى سقوط الدولة الأموية. والعصر العباسي الذي يبدأ بسقوط الدولة الأموية ويستمر إلى سقوط بغداد في يد التَّتار سنة ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م. ويقسم بعض المؤرخين هذا العصر قسمين: العصر العباسي الأول ويمتدّ نحو مائة عام. والعصر العباسي الثاني ويستقلّ ببقية العصر.

ومن المؤرخين من يقسمه ثلاثة أقسام، يُبقي فيها على القسم الأول بنفس الاسم، أما العصر العباسي الثاني فيقف به عند سنة ٣٣٤هـ = ٩٤٥م وهي السنة التي استولى فيها بنو بُوَيْهٍ على بغداد التي أصبحت الخلافة العباسية منذ تاريخها اسميّة فقط، ويمتد العصر العباسي الثالث إلى استيلاء التَّتار على بغداد.

ويقسم بعض المؤرخين هذا العصر العباسي الثالث قسمين فيقف بالقسم الأول عند دخول السلاجقة بغداد ٤٤٧هـ = ١٠٥٥م، ويستقلّ القسم الثاني أو العصر العباسي الرابع ببقية العصر.

وباستيلاء التتار على بغداد يبدأ العصر الرابع ويستمر إلى نزول الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣هـ = ١٧٩٨م.

وصححه الألباني، وليس فيه: (ولا صَلاةَ لمن لا زكاةَ له).

ثـم العصـر الحديـث الـذي يمتـد مـن نـزول الحملـة الفرنسـية إلـى الوقـت الحاضـر[1].

وفي هـذا العصـر الجديـد تطـوّرت الخطابـة وعـادت إلـى سـابق مجدهـا التليـد وعهدهـا المجيـد، مـن حيـث القـوة والتأثيـر وتفاعـل الجماهيـر معهـا والتفافهـم حـول الخطبـاء المُفَوَّهيـن والدعـاة المخلصيـن.

وكان لاتّسـاع ميـدان الخطابـة وظهـور دعـاة مصلحيـن أثـر كبيـر فـي تألّقهـا وعمـق تأثيرهـا فـي النـاس؛ إذ تنوّعـت أسـبابها وتعـدّدت أسـاليبها، ففـي حيـن كان يغلـب علـى الخطابة الجانب الدينيّ في العصـور الماضية انفتحت أمامها أبواب جديدة تستدعي ملاقاة الجماهير وملامسة مشكلاتهم والتحدّث إليهم بها وعنها، وقد كان مهد هذا العهد الجديد من الخطابة بارزًا في مصر وخاصة في عهـد إسـماعيل باشـا، ثم في عهد توفيق باشـا، وتألّق في سـماء هـذا العهد خطبـاء كتألـق النجـوم فـي السـماء، ودبّـت فيهـا الحيـاة وأثمـرت تأثيـرًا ورُقيًّا.

ويعود ازدهار الخطابة في هذا العصر إلى عدّة عوامل، منها:

١- تعـرّض البـلاد الإسـلامية للاحتـلال الأوربـي، ووقـوع الضيـم والظلـم علـى النـاس والتعسـف بحقوقهـم، مما حـدا بالنفـوس الأبيـة أن تثور على ذاك الواقـع المؤلـم، وتحمـل رايـة الدفـاع عـن الديـن والوطـن، فانفسـح الطريـق أمـام الخطبـاء، وحضـر داعـي الجهـاد، فألهبـوا مشـاعر النـاس، وحرّكـوا كوامـن القـوة والنخوة فيهم؛ للـذود عن الحرمات والمقدّسـات.

٢- نشـوء أحـزاب سياسـية تتنافـس علـى الزعامـة، وهـذه الأحـزاب تحتـاج

(١) تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف ١/ ١٤.

لمتحدّثين موهوبين وخطباء مفوَّهين، يستميلون الناس ويؤثّرون فيهم لكسبهم في صفوفهم والاستفادة من مواقفهم السياسية.

٣- وجود الجامعات الإسلامية العريقة؛ كالأزهر في مصر، وجامع الزيتونة في تونس، والجامع الأمويّ في الشام، وغيرها التي كانت تقوم بواجبها الشرعي في الدعوة والإرشاد، وإعداد الدعاة النابهين والخطباء النابغين والعلماء المتبحّرين.

٤- ظهور دعوات إصلاحية وقيام جماعات إسلامية تدعو إلى التزام الإسلام عقيدة وشريعة، وفكرًا وخُلقًا وممارسة، وتحارب البدع والمحدثات، وتنادي بالرجوع إلى منبع الإسلام العَذْبِ الزُّلال كما أُنزل على رسول الله ﷺ كتابًا وسنّة على فهم سلف الأمّة؛ كدعوة الشيخ محمّد بن عبد الوهابي في جزيرة العرب.

وأخرى نادت بالإصلاح والتحرّر من رِبْقَة الاستعمار واستنهاض القُوَى للتطوّر ومسايرة الواقع، ويعدّ الشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا... روّاد تلك الدعوة الإصلاحية، مع ما أُخذ عليها من ملاحظات وانتقادات لِمَا وقعت فيه من أخطاء.

وثمّة دعوات إصلاحية وحركات إسلاميّة أخرى قامت في ذاك العصر تدعو أن يُمَكَّن لدين الله ويُنفَّذ شرعه وتقام حدوده في أرضه وعلى خلقه. وبطبيعة الحال كانت تلك الدعوات تحتاج لخطباء مؤهَّلين، وهذا ما فعلته حقًّا، فكان لها خطباء مؤثِّرون ومتأثّرون دعوا بصدق وهمّة، وساهموا في ارتقاء الأمّة.

٥- قيام النظام القضائي الحديث وما صحبه من طرق التقاضي والتخاصم التي تعتمد على المحاماة ووكلاء النيابة في القضايا، وهذا النظام الجديد دفع المحامين والوكلاء إلى تعلّم مهارة الخطابة والقدرة على التعبير والتأثير؛ لكسب القضايا والتأثير في القضاء.

٦- كثرة المؤتمرات المحلّيّة والإقليميّة والدوليّة، ولكلّ دولة من يمثّلها في تلك المؤتمرات، ولا شكّ في أنّ تلك الدول لن ترسل إلا من يجيد الخطابة ويحسن الأداء ويمتلك ناصية الإقناع العقليّ والتأثير الوجدانيّ؛ لإقناع الآخرين بصحة موقفه وعدالة قضيته وشرعيّة مطلبه.

الفصل الثاني

اتجاهات الخطابة

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: اتجاهات الخطابة عند غير العرب.

المبحث الثاني: اتجاهات الخطابة عند العرب.

تمهيد

تتأقلم الخطابة بحسب البيئة التي تكون فيها، فتكون مواكبة لآلام الأمم وآمالها وتطلّعاتها، وتسير في نحوها وتدور في فلكها وتراعي أحوالها وحاجاتها، وحيثما كانت حاجة الأمم وضروراتها وتقاليدها وعاداتها وُجِدت ثَمَّ وترعرعت، وقامت وازدهرت، فهي وليدة الآمال والآلام والخطوب، وثمرة من ثمار حاجات الأمم والشعوب.

المبحث الأول

اتجاهات الخطابة عند غير العرب

لقد حصر الفيلسوف اليوناني ومؤلّف أول كتاب في فنّ الخطابة (أرسطو) فنون الخطابة في ثلاثة أقسام:

الأول: الخطب التثبيتية: وهي التي تتعلق بالمدح أو التأبين أو التعزية ونحوها، فهي خطب آنيّة تتبع معانيها زمانَها.

الثاني: الخطب القضائية: وهي التي تتعلق بأمور حدثت تنازع فيها الخصمان كلٌّ يريد أن يتغلب بالحجة على الآخر، فهي خطب متعلقة بزمنها السابق.

الثالث: خطب الشورى: وهي التي تتعلق بأمور المستقبل، وإعداد العدّة لما يكون فيه، فهي خطب مستقبلية تتبع معانيها زمنَ وقوعها(١).

(١) الخطابة لأبي زهرة ١٢٣-١٢٤.

المبحث الثاني

اتجاهات الخطابة عند العرب

عدّ كثيرٌ من أهل الأدب العربَ في المرتبة الأولى من البيان، وفي المنزلة العليا في الخطابة، ولم يسامِ العربَ في منزلتهم الخَطابية أمّة من الأمم، فهم فرسانها وأهل ميدانها؛ ولذا تنوعت الخطابة لديهم وتعددت أنواعها، وتمايزت موضوعاتها، وتتلخص أنواعها في الآتي:

أولًا: في المفاخرة والمنافرة:

وهما من ألصق صفات العرب بالعرب؛ إذْ يعتدّون بآبائهم وأجدادهم ويتفاخرون بهم وبمآثرهم، ومن أعظم ما يلوذون به إذا ما تلاحى خصمان أو تنازع طرفان، حتى إذا اشتد التفاخر وزاد ذكْرُ المآثر؛ جعلوا بينهم حَكَمًا، وتكاثروا نثرًا ونظمًا؛ كمنافرة علقمة بن عُلَاثة وعامر بن الطُّفَيل إلى هَرِمِ بْنِ قُطْبَةَ الفَزَارِيِّ، واشتهر عامر بمنافرته لعلقمة بن عُلاثة ابن عمّه؛ بسبب منافستهما على سيادة عشيرتهما، وقد احتكما إلى هَرِم بن قطبة الفزاري، فسوّى بينهما - في عبارته المأثورة إذ قال لهما: (إنكما كرُكْبَتي البعير الأَدْرم - أي الفحل - تقعان على الأرض معًا)، وكلّ ذلك عمل على ازدهار الخطابة في الجاهلية، ورفع شأنها وزان بيانها.

ثانيًا: في الذَّمّ والهجاء:

وهذا أمر طبيعي ناتج من المنافسة بين قبائل العرب على الصِّيت والسُّمعة وعلى التصدّر والمنزلة، فكان الهجاء دفاعًا عن القبيلة وانتقامًا أو ثأرًا من أعدائها، فهو رفع لشأن قبيلة الهاجي، وتهوين من شأن المهجوّين، وحطّ من أقدارهم.

وهذا كلّه راجع إلى قوّة نفس العربيّ وشدّة حميّته واندفاعه في غيرته على قومه، وخاصة إذا عرفنا أن الخطيب العربيّ هو زعيم القبيلة أو حكيمها أو بطلها، أو لديه تميّز بأساليب الكلام وأفانين البلاغة والفصاحة، فعبد المطلب بن هاشم كان زعيم قريش، وكعب بن لؤيّ القرشيّ كان عظيم القدر عند العرب، حتى أرّخوا بموته إلى عام الفيل، وقُسُّ بن ساعِدةَ الإياديّ - خطيب عُكَاظ بل خطيب العرب قاطبة - رأس في قومه، وأكثم بن صيفيّ التميميّ أحكم تميم بل حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمَّرين. فهؤلاء كلّهم كانوا خطباء موهوبين وزعماء متبوعين.

ثالثًا: في الإقدام والشجاعة وإثارة الحميّة والحماسة:

ولا غرابة في هذا فقوّة الشكيمة وشدّة البأس فَخَار كلّ عربيّ، والشجاعة شرف لكل أبيّ، كيف لا؟ والعربيّ يعمِد إلى السيف ويتطاول للقتال ويجترئ على الموت غير هيّاب ولا وجِل؛ ليذود عن حياض قبيلته، ويدافع عن شرف عشيرته، وفي هذا يقول العرب أبلغ خطبهم وأقواها، ويُنشدون أو يَنْظِمون أجزل أشعارهم وأرقاها، ومن ذلك خطبة هانئ بن قَبيصةَ الشيباني يحرّض قومه يوم ذي قار على مقاتلة الفرس: (يا معشر بكر! هالك معذور خير من ناجٍ فَرور، إن الحذر لا يُنجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظَّفَر، المنيّة ولا الدَّنيّة، واستقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظُّهور. يا آل بكر! قاتلوا، فما للمنايا من بُدّ)[1].

---

(١) جمهرة خطب العرب ١/ ٣٧، العقد الفريد ٢/ ٣٠٤.

رابعًا: الرثاء والتأبين والعزاء:

ويأتي هذا عقب اللوعة والحزن بفقد حبيب أو قريب، ويعبّر المتكلّم تعبيرًا صادقًا منبعثًا عن قلب متفطّر أسًى، وكبد متفتّت كَمَدًا، وفي هذا الميدان تجود قريحة العربيّ الخطابية، وتتفتق موهبته البلاغية، مشوبةً بصدق المشاعر ونبل الأحاسيس على فراق من يحبّه ولوعة من يعزّه، فتتدفق المعاني في التعبير عمّا في النفس من الآلام، وعن محامد الفقيد ومناقبه فيما غبر من الأيام، وعن صغر الدنيا في عين الراثي أو المُعزِّي، ومن هذا القبيل ما عَزّى به أكثَمُ بن صَيْفيّ عمرَو بنَ هِنْد ملكَ العرب في أخيه، فقال له: (أيّها الملك! إنّ أهلَ الدار سَفْرٌ لا يَحُلّون عُقَدَ الرِّحال إلا في غَيْرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك مَن سيَظْعَنُ عنك ويَدَعُك. واعلم أنّ الدُّنيا ثلاثة أيام: فأمس عِظَة وشاهدُ عَدْل، فَجَعَك بِنفْسه، وأبْقَى لك عليه حُكْمَك؛ واليوم غَنيمة وصَديق، أتاك ولم تَأته، طالت عليك غَيْبَتُه، وستُسْرِع عنك رِحْلته؛ وغَدٌ لا تَدري مَنْ أهلُه، وسيأتيك إنْ وَجَدك. فما أحسَنَ الشُّكرَ للمُنْعم، والتسليمَ للقادر! وقد مَضت لنا أصولٌ نحن فُروعُها، فما بَقَاء الفُروع بعد أصُولها! واعلم أنّ أعظم من المُصيبة سوءُ الخَلَف منها، وخيرٌ من الخير مُعْطيه، وشرٌّ من الشرّ فاعلُه)[1].

وثمّة أنواع أخرى؛ كخطب الزَّواج والصُّلح والدعوة إلى الفضائل ونبذ الخرافات والرذائل، والوصايا والدعوة إلى توحّد العرب أمّة واحدة، وكان يحصل مثل ذلك في دار النَّدْوة وفي الأسواق الموسميّة التي تقام للتفاخر وذكر المناقب والمآثر، وفي وفود العرب على الملوك وزعماءِ القبائل.

---

(١) العقد الفريد ١/ ٣٧٣، جمهرة خطب العرب ١/ ٣٨.

الفصل الثالث

أنواع الخطابة

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: الخطابة السياسية.

المبحث الثاني: الخطابة الاجتماعية.

المبحث الثالث: الخطابة العسكرية.

المبحث الرابع: الخطابة القضائية.

المبحث الخامس: الخطابة الدينية.

المبحث الأول

الخطابة السياسية

ويقصد بها الخطب التي تُعْنَى بشؤون الحكم والسُّلطات في الدولة، ويزدهر هذا النوع من الخطابة في ظلّ الحرية وتعدّد الآراء وسيطرة الشعوب وممثّليها على توجيه السياسة الداخلية والخارجية، وقوّة نفوذ أهل الحَلّ والعَقْد في تسيير الوجهة اللازمة للبلاد. وتزدهر الخطب السياسية أيضًا في حال الحرب لأخذ الأُهْبَة والدفاع عن البلاد، وإلهاب حماس الجماهير للتحرّر من ربقة الاستعمار ورفض عبوديته. وتزدهر في السلم أيضًا للمطالبة بالحقوق ولرعايتها، وللتنافس بين الفئات والجماعات التي تُعنَى بأمور السياسة، واستمالة الجماهير لمبادئ الجماعة وشعاراتها.

والخطب السياسية أنواع:

١- **الخطب الانتخابية**: وهي الخطب التي يقوم بها من يرشّح نفسه لمجلس رئاسيّ أو نيابيّ أو سواهما؛ ويبيّن من خلالها برنامجه الانتخابي وأهدافه وشخصيّته للناس، وقد تكون من مناصر لمرشح وداعم له في حملته.

٢- **الخطب النيابية**: وهي تشمل خطب النُّوّاب والأعضاء في مجالس الشورى أو المجالس النيابية، مؤيّدين للحكومة أو معترضين عليها، أو مناقشين أو مقترحين أو مستجوبين...

٣- **خطب المؤتمرات السياسية**: وهي خطب قادة الدول أو الكبراء أو نوّاب الحكومات والزعماء، وتكون في ملأ من أصقاع شتّى وبلدان عدّة، وهي تعتمد على صحّة المعلومات ودقّة العبارات، وصدق التصوير لنهج دولته، وحسّ المسؤولية في التعبير عن غايته.

٤- **خطب النَّوادي والمجتمعات**: وهي عادة تكون لجماعات وأحزاب تريد من خلال تلك الخطب الدعوة إلى فكرة أو إلى تأييدها ونصرتها، أو الدفاع عنها في وجه الخصوم والتشجيع على تبنّي أفكارها والتحمّس لها .

وأهمّ العوامل التي تؤدّي إلى نجاح الخطب السياسية عامّة:

أولًا: الحرص على المصلحة العامة، والتجرّد من الغايات الشخصية.

ثانيًا: فهم نفسية المخاطَبين وميولهم، ومعرفة ما يطمحون إليه ويرغبون فيه؛ مراعيًا مشاعرهم صادقًا في مخاطبتهم.

ثالثًا: الإلمام بنظام الحكم واللوائح والنظم والقوانين والأعراف والتقاليد.

رابعًا: الإعداد المناسب لخطبته مؤيَّدةً بالحجج والأدلة النقلية والعقلية، وقوّة المنطق والبيان.

خامسًا: امتلاك الشجاعة ورباطة الجأش بحيث لا يتأثر بأيّ شيء يَثنيه عن غايته النبيلة.

سادسًا: الحُنْكة والذكاء مع توافر الحكمة والرحمة في معالجة المشكلات .

سابعًا: الإلمام بشؤون الحياة والمجتمعات والشعوب والحضارات، والصدع بالحق وردع الباطل، وحبّ العدل والدفاع عنه، وبغض الظلم والتجافي عنه.

المبحث الثاني

الخطابة الاجتماعية

يُقصَد بالخطابة الاجتماعية: تلك التي تتعلق بالمجتمع علاقاتٍ ومناسباتٍ واحتياجات ومشروعات، حضًّا أو تذكيرًا أو توجيهًا؛ كأنْ يحتاج المجتمع إلى إنشاء مدرسة أو مستوصف أو مستشفًى، أو إلى إقامة جمعية خيرية أو تعاونية زراعية أو صناعية أو تجارية، أو إلى شأنٍ يتعلق بالزواج خِطبةً أو عقدًا أو تيسيرًا للمهور وتخفيفًا من تكاليف الزواج، وغيرها من الأمور التي تهمّ المجتمع.

والخطبة الاجتماعية لعلها تدخل في خُطبة الحاجة ومنها خُطبة النكاح.

وقد كان أهل الجاهلية يخطبون خطبًا اجتماعية؛ كخطب الزواج وبعض المناسبات الاجتماعية الأخرى، وكانوا يذكرون في خطبهم تلك مفاخر قومهم ويتباهون بها، فلمّا جاء الإسلام أقرّ أصل بعض تلك الخطب وغيّر مسارها فقرنها بشعائر الله تعالى؛ بعيدًا عن ذكر المفاخر والتنويه بمآثر الآباء والأجداد.

قال الشيخ أحمد شاه الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان أهل الجاهِلِيَّة يخطبون قبل العقد بما يرونه من ذكر ومفاخر قومهم ونحو ذلك، يتوسلون بذلك إلى ذكر المَقْصُود والتنويه به، وكان جَرَيَان الرَّسْم بذلك مصلحة، فإن الخطبة مبناها على التشهير وجعل الشَّيْء بمسمع ومرأى من الجُمْهُور، والتشهير بما يُرَاد وجوده في النِّكاح ليتميز من السفاح، وأيضًا فالخطبة لا تُستَعمل إلّا في الأمور المهمّة، والاهتمام بالنِّكاح وجعله أمرًا عظيمًا

بينهم من أعظم المَقَاصِد، فأبقى النبيّ ﷺ أصلَها، وغيّر وصفَها، وذلك أنه ضمّ مع هذه المصالح مصلحة مِلِّيّة، وهي أنه ينبغي أن يضمّ مع كلّ ارتفاق ذكر مُنَاسِب له، وينوّه في كلّ مَحلّ بشعائر الله، ليكون الدّين الحق منشورًا أَعْلَامه وراياته، ظاهرًا شعاره وأماراته، فسنّ فيها أنواعًا من الذّكر؛ كالحمد، والاستعانة، والاستغفار، والتعوّذ، والتوكّل، والتَّشَهُّد، وآيات من القرآن...)[1].

ومن خطب العرب الاجتماعية قبل الإسلام خطبة أبي طالب حين خَطَبَ خُطْبة النّكاح وكان مِمّا قاله في تلك الخُطْبة: (الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضِئْضِئِ مَعَدّ [أي مَعدِنِه] وعُنصُرِ مُضَرَ [أي أصله]، وجعلنا حَضَنَة بيته [أي المتكفّلين بشأنه] وسُوّاس حرمه [أي القائمين بخدمته]، وجعله لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا حكّام الناس. أَمّا بعدُ: فإنّ محمدًا مِمّنْ لا يُوازَنُ به فتًى مِن قريشٍ إلّا رَجَحَ به شَرَفًا ونُبْلًا وفَضْلًا وعَقْلًا، فإنْ كان في المال قُلٌّ، فإنّما ظِلّ زائلٌ وعارِيّةٌ مُسْتَرْجَعةٌ، ولَهُ في خديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ رَغْبَةٌ، ولها فيه مِثْلُ ذلك). فقال عَمْرُو بن أسد عمّ خديجة: هو الفَحْلُ الذي لا يُقْدَعُ أَنْفُه، فأَنْكَحَهَا منه[2].

وأمّا في الإسلام فقد قُرِنت الخطبة بالشعائر - شعائر الله - لا بالمفاخر والمآثر، عن عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «عَلَّمَنا خُطبةَ الحاجة: الحمدُ لله، نَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنا، مَنْ

(١) حجة الله البالغة ٢/ ٢٣١-٢٣٢.
(٢) الروض الأنف ٢/ ٢٣٨، السيرة الحلبية ١/ ٢٢٦.

يَهْدِهِ اللهُ فلَا مُضِلَّ لَه، ومَنْ يُضْلِلْ فلَا هَادِيَ لَه، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلّا اللهُ، وأَشْهَدُ أَنّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، ثُمّ يَقْرَأُ ثلاثَ آياتٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، ثُمَّ تَذْكُرُ حاجتَكَ»[(١)].

ومن خطب السلف رضوان الله عليهم ما ذَكَروا أنه خَطب محمدُ بن الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أختَه، فتكلّم محمّد بكلام طويل. فأجابه عمر: الحمد لله ذي الكِبْرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء. أمّا بعد، فإنّ الرّغْبة منك دَعتْك إلينا، والرّغبةَ فيك أجابتك منّا، وقد أحسنَ بك ظنًّا مَن أودعك كريمتَه، واختارك ولم يَخْتر عليك، وقد زَوَّجتكها على كتاب الله: إمساكٌ بمعروف أو تَسْريح بإحسان[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد (٣٧٢٠) واللفظ له، وصحّحه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) العقد الفريد ٢/ ٣٢، جمهرة خطب العرب ٣/ ٣٤٧.

المبحث الثالث

الخطابة العسكرية

لكلّ أمّة من الأمم قيم تحميها وحدود تذود عنها، وهذا يحتاج إلى قوّتين: قوة مادية وأخرى معنوية، ومن هنا يأتي أثر الخطابة العسكرية العظيم في ميادين المعارك وسُوْح القتال في تعبئة الجند وإثارة الروح القتالية، والاستعداد لملاقاة الأعداء، وإذكاء روح الجهاد في الأمّة، ورفع المعنوية في النفوس إلى القمّة، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقد عُرِف هذا اللون من الخطب العسكرية عند الأمم السالفة وخاصة اليونان. ومن الجليّ أنّ الحثّ على القتال ورفع الروح المعنوية لدى الجند قد جاء في كتاب ربّنا وفي سنّة نبيّنا ﷺ، فقد كان يثير حماس الصحابة رضي الله عنهم ويرغّبهم في ملاقاة عدوّهم قبل بدء المعارك، ويحبّب إليهم الموت في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦].

وقُبيل بَدْء معركة بدر حرّض النبي ﷺ أصحابه على القتال، وألهب في نفوسهم الشوق إلى النِّزال، وبعث فيهم حماس الرجال وحميّة الأبطال، قال ابن هشام في سيرته: (ثُمّ خَرَجَ رسولُ الله ﷺ إلى النّاس فحَرّضَهُم وقال: **والذي نَفْسُ محمدٍ بِيَدِه! لا يُقَاتِلُهُم اليومَ رَجُلٌ فيُقْتَلَ صابرًا مُحْتَسِبًا، مُقْبِلًا غيرَ مُدْبِرٍ، إلّا أدْخَلَهُ اللهُ الجنةَ. فقال عُمَيْرُ بْنُ الحُمَامِ**...).

وفي صحيح مسلم: عن أَنَسِ بْنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ ما صَنَعَتْ عِيرُ أبي سفيانَ، فجاء وما في البيتِ أَحَدٌ غَيْرِي وغَيْرُ رسولِ اللهِ ﷺ، قال: لا أَدْرِي ما اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِه، قال: فحَدَّثَهُ الحَدِيثَ، قال: فخَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ فتكَلَّمَ، فقال: «**إِنَّ لَنا طَلِبَةً، فمَنْ كان ظَهْرُهُ حاضرًا فلْيَرْكَبْ مَعَنا**»، فجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ في ظُهْرَانِهِم في عُلْوِ المدينة، فقال: «**لا، إلّا مَنْ كان ظَهْرُهُ حاضرًا**»، فانْطَلَقَ رسولُ اللهِ ﷺ وأَصْحَابُهُ حتّى سَبَقُوا المُشْرِكِينَ إلى بَدْرٍ، وجاء المُشْرِكُونَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إلى شيءٍ حتّى أَكُونَ أنا دُونَهُ**»، فدَنَا المُشْرِكُونَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**قُومُوا إلى جَنّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ**»، قال: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ: يا رسولَ الله، جَنّةٌ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ؟ قال: «**نَعَمْ**»، قال: بَخٍ بَخٍ! فقال رسولُ الله ﷺ: «**ما يَحْمِلُكَ على قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**» قال: لا واللهِ يا رسولَ الله، إلّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِها، قال: «**فإنَّكَ مِنْ أَهْلِها**»، فأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِه، فجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قال: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حتّى آكُلَ تَمَرَاتي هذه إنّها لَحياةٌ طويلةٌ! قال: فرَمَى بما كان معه مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قاتَلَهُمْ حتّى قُتِلَ.

وذكر الطبري[1] أن عُميرًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قاتَل وهو يقول:

ركْضًا إلى اللهِ بغير زَادِ إلّا التُّقَى وعَمَلَ المَعَادِ
والصَّبْرَ في اللهِ على الجِهَادِ وكلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفادِ
غيرَ التُّقَى والبِرِّ والرَّشادِ

ومن الخطب العسكرية المؤثرة خطبة طارق بن زياد رَحِمَهُ اللهُ؛ إذْ لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نصير وكان واليًا عليها من قبل الوليد بن عبد الملك طمح بصره إلى فتح بلاد الأندلس، فبعث مولاه طارق بن زياد على جيش جُلّه من البربر سنة ٩٢هـ فعبر بهم البحر ونمى خبره إلى لذريق ملك القوط فأقبل لمحاربته بجيش، فلما بلغ طارقًا دنوّه قام في أصحابه فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم، ثم قال: (أيّها الناس! أين المفرّ؟ البحر من ورائكم، والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلّا الصدق والصبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرًا ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خِذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذّركم أمرًا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطّة أرخص متاع فيها النفوس إلّا وأنا أبدأ بنفسي.

(١) في تاريخه ١/ ٤٤٨.

واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلًا استمعتم بالأرفه الألذّ طويلًا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي... والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارين. واعلموا أنّي أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأنّي عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون.

فلمّا فرغ من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لذريق وأصحابه، وما وعدهم من الخير الجزيل، انبسطت نفوسهم وتحقّقت آمالهم، وهبت رياح النصر عليهم، وقالوا له: قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه، فاحضر إليه فإننا معك وبين يديك...)[(١)].

وأهم مزايا الخطابة العسكرية:

١- الحماس الملتهب وقوة النَّبرة وجَهْوَرية الصوت وقوة الألفاظ ووجازة الجمل والعبارات.

٢- بيان نبل الهدف وشرف الغاية التي من أجلها يحاربون، فإن كان دفاعًا عن عقيدة وشريعة بيَّن ما في التهاون والتثاقل من هيمنة للشر ونشر للفساد، وما في الانتصار والظفر من إقامة للحق والخير والفضيلة. وإن كان دفاعًا عن وطن أو عرض بيّن ما في القعود من جلب للذلّ والعار

(١) نفح الطيب ١/ ٢٤٠-٢٤٢، وَفَيَات الأعيان ٥/ ٣٢١.

والدمار، وما في الغلبة من دفع الغائلة وحماية الأرض وسلامة العرض وبقاء الأمن.

٣- الحثّ على الإقدام والتضحية، وعلى الثبات عند لقاء العدوّ، والتذكير بثواب المجاهدين وجزائهم عند ربّهم تبارك وتعالى.

المبحث الرابع

الخطابة القضائية

لمّا كان الإنسان نزّاعًا إلى الهوى، وتغلب عليه الشهوة، ويترصّده الشيطان: تشعّبت به الأهواء والأدواء، وتنازعته المصالح والأفكار والغايات؛ كان ذلك كلّه مدعاة إلى التنازع والخصومات، فاحتاج إلى الفصل فيها، والفصل يحتاج إلى إظهار الحق؛ لإحقاقه وردّه لصاحبه، وإبطال الباطل وردِّه على صاحبه، من أجل ذلك وُجد أو أُوجد القضاء لفضّ النزاعات، وإخماد نار العداوات، وردّ الحقوق إلى ذويها.

ولمّا كان الناس ليسوا سواء في البيان والقدرة على إظهار الحق ولجم الباطل والدفاع عن النفس: أضحت مجالس القضاء والمحاكم ميدانًا لإبراز الحجج والبراهين، ومكانًا للمرافعات والمحامين، وقد جاء في الشريعة ما يجلّي هذه الحقيقة - حقيقة اختلاف الناس في القدرة على البيان والدفاع عن الحقوق - قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة ٤٩].

وقد روى الشيخان عن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنّما أَنا بَشَرٌ، وإنَّكُم تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ، ولعلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِه مِنْ بَعْضٍ، فأَقْضِي على نَحْوِ ما أَسْمَعُ، فمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شيئًا، فلا يَأْخُذْهُ، فإنّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**».

ومن أقضية الأنبياء عليهم السلام ما ذكره الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ

تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ
بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ
أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾
قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ
رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ
﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ
ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ [سورة ص].

والقضاء ميدان فسيح للأسلوب الخطابيّ؛ إذ يسعى كلٌّ من الطرفين المتنازعين أو وكلائهما إلى تقوية حججه وإبراز براهينه؛ لإظهار حقّه وإفحام خصمه واستمالة القضاء إلى جانبه.

ومن أبرز مجالات الخطابة القضائية:

- **مرافعات النيابة**: وفيها يتولى وكيل النيابة مسألة التحقيق في القضايا المخالفة كالجنايات، ويقدّم الأدلّة المثبتة للدعوى، ثم يحيلها إلى المحكمة ويتقدم فيتكلم أمام المحكمة في القضية ويشرح وجهة نظره في الدعوى المقدّمة والجناية المرتكبة.

- **مرافعات المحامين**: ويقوم بها ذوو خبرة ومعرفة بالنظام (القانون)، وخلاصة مهمتهم الدفاع عن الجاني أو المجنيّ عليه على ضوء علمه ودرايته بموادّ النظام المدوّنة.

وهنا يحتاج المحامي إلى أسلوب الخطابة الذي يعتمد على ذكر الأدلة والبراهين وقوّة التأثير والاستمالة، بعد دراسة القضية دراسة عميقة من كل جوانبها.

ومن أظهر خصائص الخطابة القضائية:

أنها تُعْنَى بموادّ النظام العامّ وصلة الوقائع والقضايا بها، وتركّز على إثبات الحق أو شرح وجهة نظر الخصوم ودوافعهم وأحوالهم المختلفة. وتعتمد على أسلوب التأثير الوجداني والإقناع المنطقي؛ بعيدًا عن التعقيد والمبالغات الجانحة[١].

---

(١) الخطابة لأبي زهرة ١٣٧-١٥١، الخطابة للواعي ٥٦-٦٠.

المبحث الخامس

الخطابة الدينية

وهي أهمّ أنواع الخطابة وأقواها، وذروة سنامها وأعلاها، فهي في بهائها كالشمس في الأفلاك، وفي حُظْوتها كجبريل عليه السلام بين الأملاك، لا تستقيم أخلاق المجتمعات إلّا بها، ولا تقوم قائمة الدين إلا في ظلّها، بها يُجدَّد ما خَلَق من الأديان، ويشفى - بإذن الله - ما علّ من الأبدان، فهي غذاء للأرواح والأبدان، وشفاء لأسقام النفوس والقلوب، لأنّها تذكّر الغافل، وتعلّم الجاهل، وترشد الحيران، وتدلّ على الإيمان.

وشرف العلم بشرف المعلوم، فهي تُعنى بتأصيل الإيمان في القلوب والفُهوم، وبتصحيح العقائد وإحسان العبادات، والتشبّث بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات، والسعي لعمارة الدنيا بأعمال الخير والصلاح، والدلالة على الآخرة وسبل الفوز والفلاح.

وإن أعظم دعامة تقوم عليها الخطابة الدينية هي: الوعظ الديني، وأُسُّه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعليه اتفقت الشرائع والأديان، وبه قامت الدعوة إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾. وقال عزّ مِنْ قائل: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران ١٠٤]، وهو عنوان الخيرية لهذه الأمة: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران ١١٠].

قال ابن القيّم: (وقاعدته وأصله؛ [أي الحُكْم بين النّاس المعروفُ بِولاية الحِسْبة] هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، ووصف به هذه الأمة، وفضلها لأجله على سائر الأمم التي أخرجت للناس، وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض كفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من ذوي الولاية والسلطان، فعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم، فإن مناط الوجوب: هو القدرة، فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز)[1].

وقال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمّ الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طُوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلّا يوم التناد)[2].

عن النُّعمانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَثَلُ القائِمِ على حُدُودِ اللهِ والواقِعِ فيها؛ كمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سفينةٍ، فأَصابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاها وبَعْضُهُمْ أَسْفَلَها، فكان الذينَ في أَسْفَلِها إذا اسْتَقَوْا مِنَ الماء مَرُّوا على مَنْ فَوْقَهُمْ، فقالوا: لَوْ أَنّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أَرَادُوا هَلَكُوا جميعًا، وإنْ أَخَذُوا على أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جميعًا**»[3].

---

(١) الطرق الحكمية ١٩٩.
(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٠٦.
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

وقد ذكر الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ أنّ شُعَب الخطابة الوعظية أربع: خطب المجادلة في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، وخطب التعليم الديني العامة، وخطب تثبيت الإيمان في النفوس، وخطب إصلاح العيوب والنهي عن المنكرات[1].

١- **فخطب الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه**: لا يفلح فيها إلا من تشرّب الإسلام عقيدة وشريعة وخُلُقًا، وتربّى على مبادئ العروة الوثقى، حتى خالط حبُّه بَشَاشة قلبه ومُشَاشة عظمه.

ثم خَبَرَ أحوالَ الأمم الغابرة والحاضرة، وسَبَر تاريخ الشعوب؛ ليعرف من يخاطب؟ وكيف يخاطب؟.

وتقوّى بقوة الإيمان، وتسلّح بالحجة والبرهان، فإذا تحدّث سلب عقول السامعين، وسبى قلوب الحاضرين، وإذا نافح عن مبادئ الإسلام أو جادل عن حقائق الإيمان: أخذ بنواصي الرؤوس والأفهام، وهيمن على الخصم بالحجة والإفحام، فاستمالها بصدقه وحرارة عاطفته، وأقنعها بقوة تأثيره ونصاعة حجّته، وأخضعها بحسن أدائه وجمال عَرضه وطول مِرانه ومعرفته.

وخطيب كهذا يُحسِن عرض الإسلام، ويُجيد الدفاع عنه في كلّ ميدان؛ لا ريب في أنه واعظ ناجح وداعية فالح، فثماره يانعة، وآثاره نافعة، وأثره في الناس كبير، ونفعه للحق والحقيقة كثير.

٢- **وخطب التعليم الدينيّ العامة**: دروس دينيّة يلقيها الواعظ على عامّة الناس، يعلّمهم أصول دينهم وأحكام شريعتهم وفضائل ملّتهم، داعيًا

---

(١) الخطابة لأبي زهرة ١٦٢.

إيّاهم إلى التزامها والعمل بها مع حسن تعلّمها وفهمها، يفعل ذلك بأسلوب سهل مناسب ميسور، متّبعًا للكتاب والسنة وفهم الراسخين في العلم؛ بعيدًا عن التعقيد الفلسفيّ والتجنيح العقليّ، ومواطن الخلاف التي لا يزيد ذكرُها النفوسَ إلا قلقًا وتردُّدًا، والعقولَ حيرة واضطرابًا.

ويحسن بالخطيب في هذا النوع أن يتحرّى أن تكون عباراته واضحة الصور في أذهان المستمعين؛ لتنتقل إلى أذهانهم وأخيلتهم من غير إعياء.

٣- **وخطب تثبيت الإيمان وتقويته**: ليستمسكوا بعروة الإسلام الوثقى، ويزدادوا من أعمال البرّ والتقوى، من خلال الحديث عن دعائم تثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين، وتقوية اليقين في نفوس المهتدين، مستوحيًا ذلك من آيات القرآن العظيم، ومستمدًّا مما صحّ من سنة النبي الكريم ﷺ، ومن تفاسير المفسِّرين الراسخين، وشروح العلماء الأثبات النابغين، ومن ظلال التاريخ الإسلامي العريق، وقصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وأخبار السلف المجاهدين الصابرين، وآثار المؤمنين الصادقين، ففي كلّ هذا غُنْية وكفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٤- **وخطب الإصلاح ومحاربة المنكرات**: إذ لا يخلو مجتمع من المجتمعات من العيوب والمنكرات، وهنا يضع الخطيب يده على الجراح، ويسعى جهده إلى التغيير والإصلاح، يحدوه الأمل الصادق، ويسانده عقل واعٍ ولسان مُبين ناطق، للدعوة إلى الفضائل، والتحذير

من الرذائل، ومقاومة المنكرات ومحاربتها، والتنفير من الفجور والفواحش ومقارفتها، وليكن الواعظ على درجة من الوعي والنَّباهة في هذا الجانب؛ إذ المطلوب إزالة المنكرات أو تقليلها، وإعزاز الفضائل وتكميلها، وإذا كان الأمر كذلك فليبدأ بأخطر المعاصي والمنكرات، وليفردْ لكلّ منكر أو معصية خطبة؛ ليستطيع معالجة المشكلة علاجًا صحيحًا؛ بعيدًا عن الشمولية والتعميم، ولْيركّزْ على أضرار ذاكم المنكر أو تلكم المعصية، ويحذّر من فشوّها وانتشارها، وكيف يحدّ المجتمع من ذلك ويسدّ سبلها وأوكارها، مقوّيًا وعظه بالترهيب والترغيب حيثما يُجدي كلٌّ منهما.

الفصل الرابع

خصائص الخطابة وأهميّتها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: خصائص الخطابة.

المبحث الثاني: أهمية الخطابة.

المبحث الأول

خصائص الخطابة

الخطابة أبرز أساليب الدعوة ماضيًا وحاضرًا، بَيْدَ أنها ليست وحدها مجالًا للدعوة وإبلاغ المدعوِّين ما يراد منهم؛ بل ثمّة مجالات أخرى ترفد الخطابة وتكون من سبل الدعوة والإبلاغ، ومن ذلك: المحاضرة، والمناظرة، والدرس، والرسالة، والكتابة. ولكلّ نوع منها خصائصه التي تميّزه عمّا سواه. ولذلك سأتحدث عن هذه الأنواع ثمّ أعرج على بيان خصائص الخطابة، وإنما أفردت الحديث عن معانيها؛ لبيان الفرق بين الخطبة وغيرها؛ إذْ يخلط كثير من الخطباء بين أسلوب الخطبة والدرس والمحاضرة... ولا يكاد يفرّق بين خصائص كلٍّ؛ ولذا تأتي خطب هذا القسم من الخطباء ضعيفة ضئيلة التأثير، ضعيفة التعبير والتصوير، فلا يشعر المتلقّي بالفروق الجوهرية بين الخطبة وغيرها، فلا تجد سبيلها إلى التأثير المنشود.

أولًا: المحاضرة:

المحاضرة لغة: المجالسة والمحادثة، جاء في المعجم الوسيط: حاضَرَ القَوْمَ: جالسهم وحادثهم بِمَا يحضرُهُ، ومنه: فُلان حسن المحاضرة، وألقى عليهم محاضرة.

و(يفرّق المعاصرون بين المحاضرة والخطبة، فيطلقون الأولى على ما يلقيه العلماء والأدباء من بحوث، ويطلقون الثانية على الكلام الملقى على جمع من الناس لإقناعهم أو استثارة عواطفهم. ولهذا أصل في لغة

العرب)[1]. وأسلوب المحاضرة: بإلقاء المحاضرة من قبل المعلّم، والطلبة يستمعون ويسجّلون[2].

وأبرز الفروق بين الخطبة والمحاضرة:

١- **من حيث الوقت**: وقت الخطبة قصير يكاد يكون محدودًا، بينما وقت المحاضرة غير محدود غالبًا، فالمحاضر بإمكانه أن يقول كلّ ما يريد قوله فيها، وأما الخطيب فليس له من الوقت ما يتسع لذلك.

٢- **من حيث الجمهور**: جمهور المحاضرة يكون غالبًا من مستوًى واحد أو يكون متقاربًا؛ إذ يحضرها من يُعنَى بموضوع المحاضرة المعلَن عنه، فجمهورها خاصّ ويأتي بطريقة طوعية اختيارية، في حين أن الخطبة جمهورها متنوِّع الثقافات، ومتفاوت المستويات، إذ يحضرها المثقف والأمّيّ، والكبار والصغار، والذكور والإناث؛ يحضرونها تعبّدًا وتديُّنًا.

٣- **من حيث المضمون**: يغلب على المحاضرة صيغة تقرير الحقائق وترسيخ المعاني ودعمها بالأدلة والإحصاءات ونحوها، بينما يغلب على الخطبة صيغة إثارة المشاعر والعواطف واستمالة النفوس، فهي تقوم أساسًا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترغيب والترهيب.

٤- **من حيث الموضوع**: الخطبة موضوعها واحد محدَّد، وهي لا تحتمل كثرة الاستطراد ولا التنوّع في الموضوع، وأمّا المحاضرة فموضوعها

(١) معجم الصواب اللغوي ١/ ٦٦٦.
(٢) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج٧٥/ ص٢٦.

يحتمل التعدّد والتنوُّع والاستطراد. والخطبة غالبُ ما يكون فيها الوعظ والإرشاد والتوجيه مع الترغيب والترهيب.

والمحاضرة يغلب فيها ذِكْر المسائل العلمية والقضايا الفكرية والأدبية والثقافية، مع الإقناع العقليّ المنطقيّ ولغة الأرقام والإحصاءات.

٥- **من حيث الأسلوب**: فالمحاضرة تعتمد على سرد المعلومات وإيضاح المعاني وتقسيم الجمل وإلقائها على الحضور بطريقة هادئة، وقد تُذْكر فيها بعض الجماليات اللغوية والمُحسِّنات البديعية، مع كثرة الشرح والاستشهاد. بخلاف الخطبة فإنها تعتمد على وضوح العبارات واتّضاح المعاني، وتقوم على الخواطر والمعاني الطارئة وطريقة الاسترسال، والخطيب يبتعد عن الكلمات الغامضة، وطريقة إلقائه يغلب عليها قوّة النَّبْرة وجَهْوَريّة الصوت والحماس.

٦- **من حيث المِسَاحة**: الخطبة لا مجال فيها للحوار والنقاش والاستفسار، بل يحرم فيها الكلام إلّا لضرورة أو حاجة، بينما المحاضرة فيها مجال لكلّ ذلك في أثنائها وبعد انتهائها.

٧- **من حيث الهدف والغاية**: المحاضرة يغلب أن يراد منها إفهام المعلومات التي تلقى فيها، في حين أنّ الغاية من الخطبة استمالةُ النفوس وإقناع العقول وحمل السامعين على ما يراد منهم.

٨- **من حيث المكان**: الأصل في الخطبة - إذا كانت دينية - أن تلقى من على منبر أو مكان مرتفع؛ لإسماع الحاضرين وشدّ انتباههم. والمحاضرة يغلب أن تلقى جلوسًا في مكان أو على كرسيّ، وقد تكون في مكان مرتفع أحيانًا أو قيامًا بين الحاضرين أو أمامهم.

٩- **من حيث اللغة**: لغة الخطبة هي العربية الفصحى، وقد يحتاج الخطيب للعاميّة أحيانًا، أمّا المحاضرة فأمرها أوسع ولغتها أرحب، وخاصة عند حاجة المحاضر لإفهام المستمعين.

والمحاضر يمكنه أن يستعين على إفهام جمهوره وإيضاح مراده بوسائل العرض والإيضاح المتنوعة؛ كالخرائط وشاشات العرض والسَّبُّورة وغيرها، بخلاف الخطيب فإنه لا يتاح له ذلك ومن غير اللائق استعمال مثل هذه الوسائل؛ لأنها لا تتناسب مع قدسية الخطبة ووقتها.

ثانيًا: الدرس:

وينطبق من الفروق بين الخطبة والدرس ما انطبق بينها وبين المحاضرة.

ثالثًا: المناظرة:

وأبرز ما يميّز المناظرة عن الخطبة - زيادة على ما سبق -:

١- الخطبة تنتهي بإنهاء الخطيب أو انتهائه منها، أما المناظرة فلا تنتهي بانتهاء أحد المتناظرين من الكلام، بل يعقّب كلٌّ منهما ويردّ ويستدلّ لفكرته، ويُفنِّد حجج الطرف الآخر وأدلته.

٢- الخطبة يتولّاها شخص واحد لا يكون فيها نقاش ولا جدال، بينما في المناظرة يكون ثمّة توزيع وتناوب بين المتناظرين، وغالبًا ما يديرها طرف ثالث وينظِّم شأنها.

رابعًا: الكتابة:

إن القاسم المشترك بين الخطابة والكتابة هو الإقناع والاستمالة واتّباع الدليل والبرهان، والاقتباس من القرآن والسنة والاستشهاد بهما. وتفترقان

في أن الكتابة تعتمد كثيرًا على علوم المعاني والبيان والبديع، وتعنى بالمسائل العلمية إن كان المجال علميًّا.

خامسًا: الشعر:

والخطابة تختلف عن الشعر أيضًا، فإضافة إلى وجود بعض الفروق التي سبقت بين الخطابة وبين الدرس والمحاضرة والمناظرة، هناك فروق بين الخطابة والشعر، وهي:

١- الخطابة كلام منثور وقد يتخلّله السَّجْع - وهو الكلام المُقفَّى غير الموزون - وهو يشبه الشعر من هذا الجانب من حيث إنه مقفًّى، بينما الشعر موزون ومقفًّى.

٢- تقوم الخطابة على الحقائق الملموسة، وتتحدث بجدّية وواقعيّة، وتستند على الدليل وتستعين بالحجّة، ولا تخلو من العاطفة وشيء من الخيال في بعض جوانبها. بينما الشعر يعتمد على الخيال وتكلُّف القوافي والأوزان، والجنوح إلى المبالغة والتهويل.

٣- الخطابة غايتها الإقناع العقلي والاستمالة الوجدانية للانقياد والتسليم لفكرة الخطيب، أمّا الشعر فيقوم على الخيال الواسع والتصوير الفنّيّ الباهر والرِّقَّة والحسّ والعاطفة الجيّاشة.

خصائص الخطابة:

وبعد معرفة أبرز الفروق بين المحاضرة والدرس والمناظرة والكتابة والشعر من جهة وبين الخطابة من جهة أخرى؛ فقد آن لنا أن نتحدّث عن **خصائص الخطابة، وإليك أهمّ تلك الخصائص:**

أوّلًا: تقوم الخطابة على عناصر ثلاثة أساسيّة، وهي:

١- المنطق والحجّة: فيحتاج الخطيب إلى استعمال المنطق كقوة للإقناع والتأثير في قوم تأثّروا كثيرًا بالحياة الفكرية والاستدلالات العقليّة، فلا يؤثّر فيهم ولا يغيّر من أفكارهم ومنهجهم إلا من يخاطبهم بهذا الأسلوب المنطقيّ لا العاطفيّ المجرّد. ويحتاج إلى الحجة والدليل في قوم لا يأخذون شيئًا ولا يردّونه إلا بدليل وبرهان.

٢- أقوال الحكماء وأخبار العظماء وروايات الثقات من الرُّواة والعلماء: وذلك أن الناس يتأثّرون بمن يرونهم قدوة لهم ومثلًا أعلى بأقوالهم وأفعالهم، ولربّما تأثروا ببعض ما يصدر منهم من أقوال أو تصرفات ولو كانت في حقيقة الأمر خاطئة، وفي هذه الحال يؤثّر الخطيب في جمهور يعظِّمون أو يقدِّسون شخصيات من الحكماء أو العلماء أو القادة والزعماء، إذا استدلّ بأقوالهم ومآثرهم واستأنس بها.

٣- صنعة الخطيب ومهارته التي يمتزج فيها براعة الفنّان وعاطفة الإنسان وخيال الشاعر، فإذا أُلهِمَ الخطيب هذه الصنعة المتألِّقة وألّف بين صورها ومعانيها، زالت بينه وبين جمهوره كلّ الحجب والموانع التي تصدّ عن التأثّر به والانقياد له.

ثانيًا: وضوح العبارة وظهور معانيها في الخطبة؛ ليفهم الجمهور ما يقوله الخطيب وما يرمي إليه، فلا تصلح العبارات الغامضة والغريبة على الأفهام. والفرق جليّ بين العبارات الفصيحة البليغة الجزلة والعبارات الغامضة الغريبة التي يصعب على الناس فهمها مباشرة؛ لذا لا تصلح الخطبة بالعاميّة وإن كانت مفهومة للمستمعين؛ لأنها مبتذلة، واللغة العربية

يفهمها العربي في كلّ مكان فهي قاسم مشترك، بخلاف العامية فإنها لهجة لمدينة أو بلد أو إقليم فحسب.

ولا تنبغي بالعبارات الغامضة أيضًا؛ لأنها تلتبس على الناس ولا يدركون مراد الخطيب وغرضه، والنتيجة أن غرضه يكون غير مفهوم. وقد يجوز للخطيب استعمال ألفاظ عامّيّة في بعض المواقف؛ إيضاحًا لمعنًى غامض، أو لأن تأثير تلك العبارة بالعامية يكون أكثر، ونحو ذلك.

والحقيقة أن استعمال الألفاظ في الخطبة قوّةً وجزالة وبلاغة - أو دونها - يختلف باختلاف الجمهور، فالناس مستوياتهم في العلم والفهم والإدراك والذوق مختلفة متباينة باختلاف الثقافات والاهتمامات، فخطبة المثقّفين والمتعلّمين تختلف عن خطبة ذوي التعليم المتدنّي أو الأمّيّين، وخطبة الجمهورِ متنوعِ الثقافة غيرُ خطبة الجمهورِ متوحِّدِ الثقافة أو متقاربها، وهكذا.

ثالثًا: مقامات الخطبة متعدّدة ومتنوّعة، فينبغي أن تكون عباراتها بحسب المقام، فخطب الوعظ غير خطب بيان الأحكام، وخطب الحرب غير خطب السلام، وخطب الزواج غير خطب الطلاق، وخطب النصح والتودّد تختلف عن خطب الإثارة والتوعّد، وخطب الترهيب ليست كخطب الترغيب، فلكلّ خطبة مفرداتها ومعانيها وأسلوبها وغرضها الذي تؤدّى به.

رابعًا: ومن خصائص الخطابة: الأسلوب القصصي، فالقصة مؤثّرة في كل فنّ من فنون الأدب وفي كل سياق تُذْكر فيه، بيدَ أن تأثيرها في الخطبة أشدّ وأعمق إذا سيقت بأسلوب شائق وجذّاب؛ إذِ القلوب تتعلق بالقصة

تعلّقًا لافتًا وتتطلع إليها النفوس بشغف، وتبقى في عقل المستمع حيّة وفي وجدانه ماثلة، وتحفر لها في الذاكرة موقعًا تَدَعُ المرء يعيش أحداثها ويستذكرها كلّما سنح داعيها.

وكلما كانت القصة واقعية ومناسبة للحال، ولم تَكُ طويلة إلى درجة الملل، ولا قصيرة إلى حدّ الخلل؛ كان تأثيرها عميقًا وأثرها عريقًا، تتشنف لها الآذان، وتستمتع بها الألباب، وتنقاد لها النفوس.

ولهذا نجد القرآن الكريم قد أفاض في ذكر القصص وكذا السنة النبوية؛ لما لها من تأثير عجيب في نفس السامع والقارئ مهما كان مستواه الثقافيّ وعمره الزمنيّ.

خامسًا: الخطبة أقدر من الشعر والكتابة والدرس والمحاضرة على الإقناع والاستمالة؛ لأنها لا تعتمد على تكلّف القوافي والأوزان كما في الشعر، ولأنها تستطيع أن تعبّر عن المعاني من غير نقص، وأن تغطّي الموضوع المطروح من كل جوانبه، وأن تستعمل القصة والحكمة والمَثَل كما هو، كما أنها تأخذ النصوص وتستكملها من غير تبديل ولا تغيير، مع تدفّق في المعاني، وانسياب في الألفاظ، وقوّة في التراكيب، وسلاسة في الأسلوب، وحرارة في العاطفة.

وزيادة على ذلك فمجالات الخطبة أوسع، وحضور الناس لها ألزمُ، وتأثّر عامة الناس بالخطيب الموهوب أكثر من تأثّرهم بالشاعر والكاتب والمحاضر، وإن كان هذا التأثّر نسبيًّا يختلف من شخص لآخر، إلّا أن المقصود عامّةُ الناس لا أفرادُهم.

سادسًا: قوة الخطابة في حماسها وقوةِ حرارة الخطيب وتلمّسه للواقع

ووضع الإِصبع على الجروح والعلل والأدواء والمشكلات التي يعانيها المجتمع ويبدي لها أمرّ الشكوى؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا خطب تغيّرت معالم جسده وتدفقت حرارة قلبه، وسقى جفاف النفوس وتصحّر القلوب بماء عاطفته الجيّاشة، وصدْقِ عبارته الفيّاضة، وإخلاص نيّته، ورسوخ حكمته، عن جابرِ بْنِ عبدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وعَلَا صَوْتُه، واشْتَدَّ غَضَبُه، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ. ويقولُ: «**بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**». ويقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، ويقولُ: «**أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله، وخَيْرُ الهُدَى هُدَى محمد، وشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُها، وكُلُّ بِدْعةٍ ضلالةٌ**»[1].

قال الشوكانيّ رَحِمَهُ اللهُ: (فيه أنه يستحبّ للخطيب أن يُفخّم أمر الخطبة ويرفع صوته ويُجْزِلَ كلامه ويُظهر غاية الغضب والفزع؛ لأن تلك الأوصاف إنما تكون عند اشتدادهما)[2].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: (وإنما كان يفعل هذا لأنه أقوى في التأثير على السامع، فكان ﷺ يكون على هذه الحال للمصلحة، وإلا فإنه من المعلوم أنه ﷺ كان أحسن الناس خلقًا وألينهم عريكة، لكن لكلّ مقام مقال، فالخطبة ينبغي أن تحرك القلوب، وتؤثر في النفوس، وذلك في موضوعها، وفي كيفية أدائها)[3].

وقال في موضع آخر: (وغضب النبي ﷺ هنا ليس غضبًا للانتقام، ولكنه

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).
(٢) نيل الأوطار ٣/ ٣٢١.
(٣) شرح رياض الصالحين ٢/ ٣٣٣.

غضب للحثّ والإغراء على فهم ما يقول، وعلى الاتّعاظ به، وإلّا فليس هناك شيء أمامه يستدعي الغضب)[1].

وبهذا نعلم أن الخطابة تختلف عن غيرها من حيث الإعدادُ والأسلوب والأداء، وندرك أيضًا قصور بعض الخطباء الذين يتعاملون مع خطبة الجمعة - إعدادًا وأداء - كما يتعاملون مع الدرس والمحاضرة ونحوهما، بل لكلٍّ خصائصه ومميِّزاته وطريقته.

وبالجملة: إن الفرق كبير بين الأسلوب الخطابي والأسلوب الكتابي، فالخطابة أعظم ما فيها جانب الوجدان والعاطفة الملتهبة، بخلاف الكتابة التي كثيرًا ما تقيَّد بقيود المنطق ولا تلتزم بالوجدانيات؛ كالقوانين الوضعيّة ومُذكِّراتها، كما أن الخطابة - خاصة الارتجالية منها - مواجهة بين الخطيب وجمهوره، فيعرف مباشرة إقبالهم إذا كانوا مقبلين، أو إعراضهم إن كانوا معرضين، فيستطيع أن يراعي الحال في الحال، وليس كذلك الكاتب.

كما أن الخطيب تأتيه الكلمات عفوَ الخاطر خاصة إذا كان ارتجاليًّا ومتمكِّنًا، ولها أثرها في المستمعين، ولا سيّما إذا كان الخطيب من أهل الفصاحة والبلاغة والذوق الفنيّ والأدبيّ، والسامع يتذوّقها حين سماعها وفهمها؛ لأنه يشعر بالمشاركة مع الخطيب ويعيشها بالتواصل مع نَفَس الخطيب ونَفْسه.

وأما الكتابة فتعتمد على المعنى في سياق الأسلوب دون التأثر المباشر بهيئة الكاتب وملامح نفسه عند الكتابة. وقد يغلب الأسلوب الكتابي في الخطابة أحيانًا، كما أنه قد يغلب الأسلوب الخطابيّ في الكتابة أحيانًا أيضًا.

---

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام ٢/ ٣٣٠. وانظر: الخطابة وإعداد الخطيب ٢١-٢٥ د. توفيق الواعي.

المبحث الثاني

أهميّة الخطابة

من المعلوم أن الله تعالى فرض على المسلمين الجهاد في سبيله إعلاءً لكلمته، وهو ذروة سنام الإسلام وأعلى شيء فيه، وهو أربع مراتب: جهادُ النفس، وجهادُ الشيطان، وجهادُ الكفار، وجهادُ المنافقين.

فجهاد النفس أربعُ مراتب أيضًا:

إحداها: أَنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى، ودين الحق.

الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَنْ لا يعلمه.

الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كلّه لله عزّ وجلّ.

وأما **جهادُ الشيطان** فمرتبتان:

إحداهما: جهادُه على دفع ما يُلقي إلى العبد مِن الشبهات والشُّكوكِ القادحة في الإيمان.

والثانية: جهادُه على دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهواتِ، فالجهادُ الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعدَه الصبر، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهواتِ والإرادات الفاسدة، واليقينُ يدفع الشكوك والشبهات الماردة.

وأما **جهادُ الكفار والمنافقين** فأربع مراتب: بالقلب، واللِّسان، والمالِ، والنفسِ. وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان[1].

فجهاد اللسان من أعظم الجهاد، ويكون بالكلمة الصادقة، والحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والقول المبين، والبرهان الرَّصين. والخطابة خير ما يمثِّل هذا النوع من الجهاد اللسانيّ؛ قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣]؛ إذْ بها تُسْتَنهَض الهمم، وتُنْصَر القيم، وتُمْلَك القلوبُ، وتُستمال النفوس، وتُستثار العواطف والمشاعر، ويُؤمَر بالمعروف ويُنهَى عن المناكر، وبهذا كانت هذه الأمة خير الأمم كما وصفها بذلك ربها فقال سبحانه: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهي وسيلة الأنبياء والرسل عليهم السلام في الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ دينه إلى الناس، بالحكمة والرحمة، والحجّة والموعظة الحسنة، وهي السلاح الأمضى والركن الأقوى في الذَّبّ عن دين الله وردّ كيد الكائدين، ونَفْيِ انتِحال المُبْطِلين، وتأْويلِ الجاهِلين، وتَحْريف الغَالِين.

وللخطابة أثر عظيم وشأن جسيم؛ فهي تُحقّ الحقّ وتُبطل الباطل بالحجّة الدامغة والبرهان القاطع، وتنتشل الأمم من حضيض الخمول والتقاعس إلى قمم النهوض والتنافس، وتحفّز الجند المتردّد إلى التأهب والاستعداد للتضحية بأعزّ ما يملك، وترفع الشعوب من عَمَايةِ الجَهالة

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٩-١١.

وغَبَش الغَواية إلى مراقي العلم ووضوح الفكر ونبل الغاية، ومن ظلام الجهل وعمى الضمائر إلى نور العلم والبصائر، وتدفع الشحناء والعداوة والخصومة والبغضاء؛ لتحلّ محلّها السلامة والألفة والوفاق والصفاء. فهي كالسيف الشطير في نزع فتيل العداوات، وكالشمس في نشر الضياء وتبديد الظُّلمات، وكالسحر الحلال في دفع النفوس للتضحية واقتحام الأهوال المهلكات، سلاحٌ غالب لمن أراد القتال، وبرهان ساطع ودليل قاطع لمن رام الجدال، وسبيلُ تغييرٍ لمن ابتغى الإصلاح، ووسيلةٌ ناجعة لمن قصد الظفر والنجاح، فأجملْ بها من لسان للدعاة، وأكرمْ بها من حجّة للقضاة، وأعظمْ بها من سلاح للكُمَاة.

ولا غَرْوَ، فإن شعراء العرب أقاموها مقام السيف بجامع أنّ كلًّا منهما يذود عن الحق ويقمع الفتنة والباطل، فهذا أحدهم (وهو محمّد بن عمار في الرائية المشهورة في مدح المعتضد عباد والد المعتمد) يقول:

السَّيفُ أفْصَحُ من زيادٍ خطبةً ... في الحربِ إن كانت يمينُك مِنْبَرا[1]

وهذا ثابت بن كعب الأسديّ الذي عُرِف بثابت قُطْنَة يقول:

فَإِلَّا أَكُن فيكم خَطيبًا فَإِنَّني ... بسَيفي إِذَا جَدَّ الوَغَى لَخَطيبُ[2]

وحسبها شرفًا وكفاها فضلًا أنها أداة قادة الأمم من الأنبياء عليهم السلام ووسيلتهم في دعوة أقوامهم، فكان نبي الله شعيب خطيب الأنبياء عليهم السلام؛ لفصاحته وعلوّ عبارته وقوّة بلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته،

---

(١) نفح الطيب ١/ ٦٥٦.
(٢) الدر الفريد وبيت القصيد، للمستعصمي ٥/ ١٠٩، العقد الفريد ٤/ ٢٣١، عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٢٨٠.

وكان ثابتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خطيب النبي ﷺ. وهي أداةٌ قادتها أيضًا من الملوك والسلاطين والعظماء؛ لأنها تحرِّك العواطف، وتستجيش الضمائر، وهي التي إن شاء صاحبها استثار النفوسَ الفاترة، أو هدّأ من حماس المشاعر الثائرة، وبها يحرّك العقول الجامدة، ويستنهض النفوس الخامدة، وهي أداة لرفع الحق وتجليته، وخفض الباطل وتنحيته، وإقامة العدل في نصابه، وردّ المظالم وردع الظالم عن الظلم وأسبابه، وتفضّ النزاعات، وتقطع الخصومات، وتميت العداوات. فالخطابة أداة عظمى لإقناع العقول، ووسيلة كبرى لاستمالة النفوس؛ في تهييجها أو تسكينها. وقد تأتي خطبة خطيب بليغ صادق متفنّنٍ أقوى من ألف مدفع، وقد قالت العرب - وهو ينسب إلى أكثم بن صيفيّ -: (رُبَّ قولٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْلٍ).

ففي أيام روما انتفض الناس وأحاطت حاشية القيصر به غادرةً وطعنه الطاعنون، ومعهم بروتوس صديقه ووزيره الذي ظنّه فوق الغدر، فقال قولته الشهيرة: (حتى أنت يا بروتوس)! جملة واحدة ألهبت مشاعر العامّة فانتصرت للقيصر وتألّمت له، وكادوا أن يتراجعوا عن ثورتهم ويحيدوا عن غضبتهم؛ لولا أن فصاحة أنطونيو بدّدت تأثّرهم وآلامهم، وخطبهم خطبة عصماء قلبت موقفهم في دقائق معدودة، وإذا بهم يهتفون له وقد كانوا قبل قليل يريدون قتله[١].

وهذا هيوستن الخطيب المشهور وقف في حدود سنة ١٨٣٠م أمام الكونغرس الأمريكي، فخطب خطبة بليغة لم يستعمل فيها كلمة مرّتين، فسحر ألباب الرجال الذين أمامه، وكان قد نجح لتوّه في تسكين ثائرة

(١) أنطونيو هو صاحب القيصر اليونانيّ يوليوس.

الهنود الحمر وجلبهم إلى توقيع اتفاقات مع الحكومة، فاستدعاه الرئيس الأمريكي آنذاك وقال له: إنّ (تكساس) تتبع المكسيك ومستقبل أمريكا متعلّق بها، ولا بدّ من ضمّها، وأريدها منك. فقال هيوستن: نعم أنا لها. زوّدني بمال ورجال. قال الرئيس: لو كان عندي مال ورجال ما دعوتك، بل تذهب منفردًا وبلا دولار واحد، وأبعث معك حارسًا حتى تعبر نهر المسيسبي ويعود.

قَبِل هيوستن المهمّة، وودّعه الحارس على ضفّة النهر، واندفع نحو تكساس، فلمّا دخل أول مدينة بها فتح له مكتب محاماة، فكان المدّعي في المحكمة يخرج البريء متّهمًا والمتّهم بريئًا، لبلاغته وقوة لسانه، حتى انبهر به الناس، فلاذوا به، فتلاعب بمفاهيمهم وأخيلتهم، وغرس فيهم معنى ضرورة الاستقلال عن المكسيك، وأنشأ حركة قوية أتمّت الاستقلال، ثم غرس معنى وجوب الانضمام إلى الولايات المتحدة، فانضمّت طواعية بالقناعات التي غرسها هيوستن، وجاء بعد سنوات قليلة إلى الرئيس الأمريكي وسلّمه مفتاح تكساس، إذ لم تطلق طلقة أمريكية ولم يُصْرَف دولار واحد، فشكره الرئيس، وخلّدوا عمله بإطلاق اسمه على مدينة هيوستن التي هي الآن من أهمّ مدن أمريكا وعاصمة النِّفط فيها. فهكذا البلاغة تفعل والفصاحة تصنع ما تصنع(١).

يقول الشيخ علي الطنطاوي: (ولا تقولوا: وماذا تصنع الخطب؟ إن خطب ديموستين صبّت الحياة في عروق أُمّة كادت تفقد الحياة، ونفثَت فيها روحًا وملأتها عزمًا، حين استعارت لها من جلال ماضيها أجنحة

(١) صناعة الحياة للراشد ص٦٦.

تضرب بها في طِباق الجوّ بعدما هاض الزمان جناحها، ووقفَت - وهي كلمات - سدًّا في وجه أعظم قائد عرفَته قرون ما قبل الإسلام: الإسكندر، وفي وجه أبيه من قبله، فيليب.

وخطبة طارق هي التي فتحت الأندلس. وخطبة الحجّاج أخضعَت يومًا العراق وأطفأت نار الفِتن التي كانت مشتعلة فيه ثم وجّهَته إلى المعركة الماجدة، ففتح رجل واحد من قُوّاد الحَجّاج أكثر ممّا فتحَت فرنسا في عصورها كلها، وبلغ مشارف الصين، وحمل الإسلام إلى هذه البلاد كلها فاستقرّ فيها إلى يوم القيامة، ذلك هو قتيبة بن مسلم.

ولمّا اجتاح نابليون بْروسيا (ألمانيا) ما أعاد لها حرّيتها ولا ردّ عليها عزمها إلّا خطب فيخته التي صارت لقومه «معلّقات» كالمعلقات العشر عندنا، يحفظها في المدارس الطُّلّابُ، ويردّدها على المنابر الخطباءُ، وتقرؤها كل امرأة ويتلوها كل رجل. إن خطب فيخته كانت من أظهر العوامل التي أنشأت ألمانيا الجديدة.

ما قام في التاريخ زعيم عبقري ولا قائد نابغة إلّا كان السلّم الذي صعِد عليه هو الخطب)(١).

وصفوة القول: إن الخطابة هي الركن الأعظم في الدعوة إلى الله تعالى، والقطب الأهمّ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي سلاح الداعية ومصباحه الذي يضيء له الطريق لهداية الحيارى، وأداة مهمّة في التغيير والإصلاح، ووسيلة لترسيخ الفضائل وإزاحة الرذائل، ووسيط لقيادة الأمم والشعوب وبناء الحضارة السامية.

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٥/ ٤٣-٤٤.

الباب الثاني

أصول الخطابة والخطيب

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تكوين الخطبة.

الفصل الثاني: الإنشاء الخَطابي (التعبير).

الفصل الثالث: آداب الخطيب وثقافته وصفاته.

الفصل الأول

تكوين الخطبة

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: كيفية تكوين الخطبة وتحضيرها.

المبحث الثاني: مراحل إعداد الخطبة.

المبحث الثالث: مصادر الخطابة.

المبحث الرابع: تقسيم الخطبة.

المبحث الأول

كيفية تكوين الخطبة وتحضيرها

إن الخطابة فنّ وعلم، وهي رسالة كلّ داعية إلى الله تعالى، والوسيلة الإعلاميّة الأظهر والأكثر أثرًا لا سيّما في الأزمنة الغابرة، وكلّ داعية يعدّ الخطابة طريقًا لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وللتعريف بالإسلام عقيدةً وشريعةً، ومنهجًا وسلوكًا، وأخلاقًا وتربية، ولإيقاظ الهمم ونصرة القيم، وهي مسؤوليّة عظيمة وأمانة جسيمة.

وإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ للخطيب من أن يأخذ أُهْبَتَه ويتحمّل مسؤوليته، فيستنفرَ قُواه ويستجمع عزائمه، ويُعْمِلَ فكره ويبذل جهده ويسخّر طاقته؛ للقيام بأمانة الخطبة على أكمل وجه وأدائها بأحسن طريقة وأيسر أسلوب، وكيف لا يتأهّب وهو يعرض دينه ودعوته، وعقله ووعيه وثقافته؛ على الناس في كلّ جمعة؟! قال الأصمعيّ: قِيل لعبدِ الملكِ: أَسْرَعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ! فقال: وكيفَ لا وأَنَا أَعْرِضُ عقلي على النّاسِ في كُلِّ جمعةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ؟

وقال غيرُه: قِيل لعبدِ الملكِ: أَسْرَعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ! فقال: شَيَّبَنِي كَثْرةُ ارْتِقَاءِ الْمِنْبَر، ومَخَافَةُ اللَّحْن[١].

ولا بدّ من الإعداد للخطبة والاستعداد لها؛ لتؤتيَ ثمارها المرجوّة منها، وهكذا يفعل الخطباء الذين يقدّرون أنفسهم ويحترمون عقول غيرهم، فهذا

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٨٤- ٣٨٥ ط دار هجر.

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد في يوم سقيفة بني ساعدة أن يتكلم عقب سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (فلَمَّا سَكَتَ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، وكُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ مَقَالَةً أَعْجَبَتْنِي أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أبي بَكْر، وكُنْتُ أُدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الحَدِّ، فلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، قال أبو بَكْر: على رِسْلِكَ...)[١]، فقد تأهّب عمر للكلام وأعدّ كلمة ليقولها على مسامع الناس، ولم يشأ أن يلقيها على عواهنها.

وقال البَعِيث الشاعر - وكان أخطب الناس -: (إنِّي والله ما أرسل الكلام قضيبًا خشيبًا [أي: من غير إعداد وتزويق]، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المُحَكَّك).

وقال الجاحظ: (ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حَوْلًا كَرِيتًا [كاملًا]، وزمنًا طويلًا، يردِّد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتّهامًا لعقله، وتتبعًا على نفسه، فيجعل عقله زمامًا على رأيه، ورأيه عيارًا على شعره، إشفاقًا على أدبه، وإحرازًا لما خوّله الله تعالى من نعمته. وكانوا يسمّون تلك القصائد: الحَوْليات، والمقلّدات، والمنقّحات، والمحكّمات، ليصير قائلها فَحْلًا خِنْذيذًا، وشاعرًا مُفْلِقًا)[٢].

والخِنذيذ من الشُّعَراء: الشاعر المُجِيد المُنَقِّح المُفْلِق والخطيب البليغ المُفوَّه[٣].

فالخطباء النُّبهاء والشعراء البلغاء يهيِّئون أنفسهم ويُعِدُّون الكلام قبل أن يُلْقُوه على الناس؛ ليبلغ مبلَغه ويسلك مَأمَنه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠).
(٢) البيان والتبيين ٢/ ٨.
(٣) لسان العرب ٣/ ٤٨٩، المعجم الوسيط ١/ ٢٥٨.

والخطباء قسمان: قسم يُلقي خطبته ارتجالًا. وقسم يعدّها ثم يلقيها عن ظهر قلب، أو يقرؤها قراءة على الناس، وكلا القسمين يحتاج إلى أن يحضّر لخطبته ويُعنَى بها عناية تليق بها.

أقسام الخطباء في التحضير والإعداد:

والخطباء في إعدادهم لخطبهم وتحضيرهم لها على أقسام:

القسم الأوّل: يكتفي في تحضيره بدراسة الموضوع الذي يريد أن يخطب فيه دراسة وافية، ويجمع أفكاره وعناصره ويرتّبها في ذهنه، ويضع أدلة الموضوع وشواهده، ويستحضر الألفاظ المناسبة والجمل اللائقة التي تؤدّي الغرض وتفي بالمطلوب.

وهذه الطريقة في التحضير للخطابة يتبعها من اكتسبوا خبرة وطول مِرَاس، مع قوّة حافظة وثقافة واسعة ومداومة قراءة وكثرة اطّلاع.

القسم الثاني: يدرس الموضوع ويأتي على جوانبه كلّها، ويرتب أفكاره وعناصره وأدلته وشواهده ونُقوله، مع وضعِ المقدّمة وصلب الموضوع والخاتمة، واختيارِ أنسب الألفاظ وانتقاء أجمل العبارات، فيُعِدُّها إعدادًا مُحْكَمًا ويرتّبها ترتيبًا مُتقَنًا، ثم يلقيها على أسماع الحضور قراءةً.

القسم الثالث: يطّلع على الموضوع ويهيّئ نفسه ويستجمع الأفكار والعناصر والأدلة والنُّقول فيرتّبها ويدوّنها في مُذكِّرة ثم يستصحبها معه، فيُلقي جُلّ خطبته من ذاكرته، فإن نسي شيئًا مما دوّنه أو تلكّأ فيه استعان بتلك المذكّرة[1].

(١) انظر: فن الخطابة ١١٢-١١٤.

وهذه الطريقة تناسب ضعيف الذاكرة وقليل الاستحضار ومن يخاف على نفسه أن يطيل في الخطبة.

وهي وسط بين الأولى التي تعتمد على قوة الذاكرة وطول الخبرة، وبين الثانية التي تعتمد على القراءة.

ولكلّ خطيب ما يناسبه من هذه الطرائق.

طريقة الارتجال: أصلُ الارتِجال تَنَاوُل الشَّيء بغير كُلْفَة؛ كما قال أبو عليّ الفارسيّ، وارتجل الكلام تكلّم به من غير أن يهيّئه. قال في مختار الصحاح: ارْتِجالُ الْخُطْبَة والشِّعْر: ابْتِداؤُهما مِنْ غير تهيئة قبل ذلك.

والمعنى أن الارتجال: الإتيان بالكلام مستقيمًا من غير تردّد؛ أي من غير سابق تحضير[١].

هذا معناه في القديم، وهو المشهور في خطب العرب وأشعارها.

وقد اتّخذ الارتجال معنًى آخر فصار يطلق على إلقاء الخطبة اعتمادًا على الذاكرة من غير ورقة يقرؤها أو مذكِّرة يستصحبها.

ويختلف المعنى الجديد عن القديم بأن الارتجال فيه يكون بعد إعداد وتحضير، وأما القديم فيعني ابتداءَه على البداهة من غير سابق تحضير. والقديم ارتجال الأفكار والمعاني، بينما الجديد ارتجال الألفاظ فحسب[٢].

وقد عُرف عن العرب ارتجالهم الخطابة من غير سابق تحضير بل على

(١) المخصّص لابن سيده ١/ ٢٩٤، والكليات للكفوي ١٠١، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ٤٥.

(٢) فن الخطابة لأبي زهرة ١١٥، فن الخطابة ومهارات الخطيب لإسماعيل علي محمد ١٤٦.

السليقة والبداهة، قال الجاحظ: (وكلّ شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالًا، وتنثال الألفاظ انثيالًا، ثم لا يقيّده على نفسه، ولا يدرّسه أحدًا من ولده. وكانوا أميّين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلّفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفّظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتّصل بعقولهم، من غير تكلّف ولا قصد، ولا تحفّظ ولا طلب)[1].

أيُّما أفضل الارتجال أم القراءة؟

لا شك في أن الارتجال بمعناه الجديد - وهو الإعداد والتحضير تحضيرًا جيّدًا قبل صعود المنبر- هو الأقدر على جذب انتباه الجمهور واستمالة قلوبهم والتأثير فيهم من طريقة الإلقاء قراءةً؛ لأن المستمعين يشعرون بأن الخطيب يكلّمهم مباشرة، من القلب إلى القلب، ومن اللسان إلى القلب والآذان؛ بخلاف طريقة القراءة إذ لا يشعرون بمثل هذا الشعور الذي يحفّز مشاعرهم ويسترعي انتباههم ويشدّ أنظارهم ويستصغي أسماعهم ويستميل قلوبهم ووجدانهم، بل يشعرون بأن الخطيب

(١) البيان والتبيين ٣/ ٢٠.

يتفاعل مع الوريقات التي بحوزته أكثر من تفاعله معهم، وهذا يعني أن المشاعر الفيّاضة التي تُستحدَث للخطيب أثناء الخطبة الارتجالية تكون منسجمة مع ألفاظه التي تطرأ له وهو يخطب، إضافة إلى أثر النظرات التي يوزّعها للناس وتعابير الجسم المرافقة والمتفاعلة مع حديثه.

فالخطيب المُرتجِل - الذي حضّر لخطبته تحضيرًا لائقًا - هو أوفر الخطباء حظًّا، وأربطهم جأشًا، وأثبتهم قلبًا، وأكثرهم تأثيرًا، وهو الأقدر على الكلام في المحافل والمناسبات، وعلى الردّ القويّ والسريع إذا اقتضى الأمر ذلك عند وجود مفاجآت أو اعتراضات أثناء الخطبة أو بعد الفراغ منها، وإلّا فقدت الخطبة رونقها وسُلب أثرها. وهذا يحتاج إلى بديهة حاضرة وقدرة فائقة لدى الخطيب ليُحْسن الردّ ويُلجم الخصم؛ كما حصل لكثيرين ومنهم أبو جعفر المنصور.

قال يعقوب بن السِّكِّيت: خطب أبو جعفر المنصور يوم جُمعة، فحمِد الله وأثنى عليه وقال: (أيها الناس، اتقوا الله. فقام إليه رجلٌ فقال: أُذكّرك مَنْ ذَكّرْتنا به يا أمير المؤمنين! قال أبو جعفر: سمْعًا سَمعًا لِمَن فهم عن الله وذَكّر به، وأعوذ بالله أن أُذَكِّرَ به وأنساه، فتأخذَني العِزّة بالإثم، لقد ضَلَلْت إذًا وما أنا من المُهْتدين. وأمّا أنت - والتفت إلى الرّجل فقال -: واللهِ ما اللهَ أَرَدْتَ بها، ولكنْ ليُقال قام فقال فعوقِبَ فصَبَر، وأَهْوِن بها لو كانت العُقوبة، وأنا أُنذركم أيّها الناس أُخْتَها؛ فإن الموعظةَ علينا نَزلت، وفينا أُنبِتت)، ثم رجع إلى موضعه من الخطبة[1].

وقد يطلب منه الحديث أو الخطبة في ظرف من الظروف، وعندها

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٨، جمهرة خطب العرب ٣/ ٣٢.

سيكون لديه من الخبرة الخطابية والحصيلة العلمية والثقافة الدينية والدنيوية ما يعينه على القيام بِسَدّ هذه الخَلّة وأداء المهمّة.

وهذا بخلاف الخطيب الذي يقرأ الخطبة قراءة - سواء أكانت من إعداده أم من إعداد غيره - لن يؤثر ذاك التأثير المرجوّ. على أن بعض الخطباء الذين يؤدّون خطبهم قراءة يؤثّرون تأثيرًا عجيبًا يفوق تأثير كثير من الخطباء الارتجاليين، ولكن هذا النوع من التأثير لمثل هذا النوع من الخطباء لا يتأتّى إلّا لفئة محدودة منهم، وهم الذين يحسنون إعداد خطبهم ويتحرّون مناسبتها ومراعاتها لواقع الناس واهتماماتهم، كما يحسنون العرض والأسلوب ويعيشون مع خطبهم إعدادًا وإلقاءً، بألسنتهم وعقولهم وقلوبهم ومشاعرهم، فتجدهم يجيدونها قلبًا وقالَبًا ويتأثرون بها هم أنفسُهم قبل أن يلقوها على أسماع الجمهور؛ ليتأثّروا بها.

والخلاصة: إذا كان الأصل في التأثير أن يكون الخطيب مرتجِلًا والناس - في العادة - يميلون إلى هذا؛ فإن أفضل الطريقتين في الخطب أعظمُهما تأثيرًا في النفوس، وإقناعًا للعقول، واستمالة للقلوب. وإن كان الخطيب مبتدئًا فلا بأس من كتابة الخطبة وقراءتها من الورقة أو الهاتف الذكيّ أو نحوهما إلى أن يقوى عزمه ويشتدّ عوده وتزداد خبرته وتتضاعف ممارسته، فيتمرّن على الارتجال إلى أن يحسنه ثم يتقنه؛ لأن قارئ الخطبة ليس بخطيب على الحقيقة؛ إذْ مجرّد قراءتها يحسنه كثير الناس.

كيف يُكوِّن الخطيب نفسه للارتجال؟

لقد آتى الله سبحانه وتعالى خلقه مواهب، وأمدّهم بقُوًى عقلية ونفسية

وبدنية، وكلّ مهارة بدنية أو موهبة عقلية أو جسدية تحتاج إلى تغذيتها وتنميتها منذ الصغر؛ وإلّا ضَمُرت وتلاشت.

ومن وجد في نفسه الميل إلى الخطابة فلينمِّ هذه الموهبة وليصقلها بالمران والتدريب والمتابعة. وقد ذكر العلماء أن صقل الموهبة يتكوّن منذ الصغر، وأن القدرة على الارتجال لا تتكوّن بعد الأربعين، ومن الصعب أن تتكوّن بعد الثلاثين.

ومن أساليب اكتساب مهارة الارتجال وطرائقه في الخطبة:

١- سماع الخطباء المتميّزين بالأداء الارتجالي؛ ليكتسب الخبرة ويتعلّم طرق الأداء والإلقاء المؤثّر؛ لأن المهارات تُغذّى بالمحاكاة، والفكر يُربَّى بالتَّمرين، والسماع للمتميّزين ينمّي الاستعداد الفطريّ لدى الموهوبين.

٢- المِرَان على الارتجال منذ الصغر والتدرّب عليه بمواظبة واستمرار؛ لتنصقل الموهبة وتتفتّق القريحة وترقّى الرغبة إلى أن تتمكّن الدُّرْبة وتقوم المهارة على ساقها، بحيث تصبح سجيّة في النفس وجزءًا منها، والعلم درجات ومراحل، ولكلّ مرحلة ما يناسبها.

٣- أن يخلو بنفسه من وقت لآخر ويخطب متصوِّرًا جمهورًا يسمعه، ويختار لنفسه في كلّ مرّة موضوعًا يختلف عن الآخر.

٤- أن يغشى المحافل ويختلط بجماعات الناس ومجالسهم ويتكلّم فيها؛ لينمّي في نفسه القدرة على مواجهة الناس، وينفكّ عن الخوف من محادثتهم والكلام إليهم، فتنمو جرأتُه، وتَقوى شخصيّتُه، ويصبح غير هيّابٍ أن يغشى المحافل ويتحدّث فيها بجرأة وطلاقة.

٥- أن يبذل غاية وسعه في ألّا يخطب من ورق إلّا عند الحاجة الماسّة، ولكي ينجح في هذا لا حَيدة عن أن يحضّر تحضيرًا جيّدًا ويربط بين الأفكار ويسلسل عناصر موضوعه مع ضبط الأدلّة والشواهد وتلخيص موضوعه بحيث لا يصعب عليه أداؤه ولا يثقل عليه تذكّره.

٦- كثرة المطالعة في الخطب المكتوبة القويّة، وحفظ بعضها، أو حفظ أجزاء منها، وتكوين ثروة علمية وثقافية وأدبية تكون له زادًا وذخرًا تسعفه عند الحاجة واللزوم.

٧- مصاحبة المتميّزين من أهل الخطابة، وملازمة رفقاء يدلّونه على عيوبه وينبهونه إلى أخطائه، ويقوّمونه وينمّون فيه روح التميّز ويغرسون في نفسه الهمّة العالية.

٨- أن يتابع نفسه في هذه المهارة ويراقبها، فما كان يَزينها وينمّيها ازداد منه وأخذ به، وما كان يَشينها أو يَنقُصُها تخلّى عنه وابتعد منه(١).

---

(١) انظر: الخطابة لأبي زهرة ١١٦-١١٧.

المبحث الثاني

مراحل إعداد الخطبة

إن تكوين الخطبة يمرّ بمراحل لا بدّ من مراعاتها؛ لتكون الخطبة مُجْدية مؤتية ثمارها، مؤثِّرة في نفوس سامعيها ومقنعة لعقولهم. وأول هذه المراحل:

١- اختيار الموضوع:

وهو اللَّبِنة الأولى في بناء الخطبة، وأحد أساطينها المهمّة وجوهرة العِقْد منها، وأحد عوامل نجاحها بل هو مفتاح نجاحها الأساسيّ، ذلك أنه لا يُكتب لموضوع قَبولٌ حسن ما لم يقم على اختيار مناسب يراعي مشاغل الناس واهتماماتهم في معاشهم ومعادهم، ولأن للخطبة غاية وللخطيب رسالة، ولا بدّ من تحقيقهما عبر الموضوع الذي تبنى عليه الخطبة؛ ولذا كان لزامًا على كلّ خطيب أن يُعنَى عناية فائقة ويهتمّ اهتمامًا بالغًا بموضوع الخطبة ويحسن اختياره.

وينبغي أن يقوم اختيار الموضوع على الأسس الآتية:

أ- ملامسة الواقع:

خير الحديث أصدقه، وأصدقه ما لامس الواقع وعايش هموم الناس ومشكلاتهم، والعالم يموج بأحداث متعدّدة وقضايا متجدّدة، وكلّها مادّة خصبة ومجالات رحبة للخطيب ليتحدّث عنها ويربطها بالشرع بيانًا وتحليلًا، واستنباطًا وتعليلًا، وبقدر معرفته بواقع الناس واطّلاعه على

الأحداث وتلمّسه لاهتماماتهم عن وعي ودراية يكون فلاح الخطيب ونجاحه في توجيه الناس نحو الحق والحقيقة وما ينبغي أن يسيروا عليه وفق أحكام الشريعة الإسلامية.

وعلى الخطيب وهو يتحدث عن الواقع والأحداث المتعاقبة ألّا يغالي ولا يبالغ في الطَّرح، وألّا يتجافى عنه ويُعرض عن الحقائق والوقائع. وكلّما كان اختياره للموضوع لصيقًا بالواقع كان أدعى لقبول الناس وإقبالهم عليه وتلهّفهم لسماعه والانتفاع بحديثه.

فعلى الخطيب أن يحسن اختيار الموضوع ليحظى باهتمام الناس وشغفهم بالخطبة وتأثرهم بها.

ونحن نلاحظ بعض الخطباء يُبعدون النُّجْعة ويحلّقون في عالم من الخيال والقصص بعيدين عن واقع الناس وما يعانونه من مشكلات وما يواجهونه من أحداث تقضّ مضاجعهم وتنغّص عليهم معايشهم، يتكلمون في أمور لا صلة لها بالواقع المَعِيش، فهم في وادٍ والناس في وادٍ؛ فليس من الحكمة اتّباع هذا الأسلوب في خطب الجمعة بعيدًا عن وحي الواقع.

ب- معرفة حاجات الناس ومراعاتها:

والمقصود بحاجات الناس هنا حاجات جمهور المسجد المحيط به؛ لأن هذه المعرفة جزء من ملامسة الواقع الذي ذكرته آنفًا، والخطيب ينجح في مهمّته الدعوية كلّما تلمّس حاجات الناس واطّلع على مشكلاتهم وعرف عاداتهم الاجتماعية وسبر حالاتهم النفسية وسلوكياتهم الحياتية الصحيحة منها والخاطئة، فيعيش قريبًا منهم حَلّالًا لمعضلاتهم حمّالًا لهمومهم عارفًا بهم وبتفكيرهم وخبيرًا بما يحبون وما يكرهون، عندها

يستطيع أن يختار الموضوعات التي تثير اهتمامهم وتشغل بالهم، وسيكون أقدر على معالجتها ووصف الدواء لها، وعلى تأثيره فيهم وإقناعهم بما يوجِّه ويُذكِّر. قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان ﷺ يخطُب في كل وقت بما تقتضيه حاجةُ المخاطَبين ومصلحتُهم)[1].

ت- مراعاة المستوى العقلي والثقافي للمخاطَبين:

إذْ من آيات الله في خلقه أنْ خلَقهم مختلفين في أفهامهم ومداركهم ومستوى تفكيرهم، وكذا في مدى إقبالهم وتقبّلهم لما يعرض عليهم من أفكار وأطروحات ونصائح ومعلومات، والخطيب الكيِّس هو ذاك الذي يراعي أحوال جمهوره ومستوياتهم الثقافية وقُواهم الإدراكية والاستيعابية، ويُنزلهم منازلهم التي تليق بهم، فليس من حصافة الخطيب ولا من لباقته أن يحدّث قومًا بمسائل علمية صِرْفة لا يعيها إلا متخصّصون، ولا أن يحدّث قومًا يتخذون العقل أداة للاقتناع بأي شيء في الوجود، بأمور عاطفية مجرَّدة من العقلانية والبراهين وأساليب الإقناع.

ولا أن يحدّث قومًا كفّارًا معاندين، أو زنادقة ملحدين؛ بما يحدّث به قومًا مؤمنين بلغوا حدّ الاقتناع واليقين بما يُحدَّثون به.

والحديث إلى أهل الحاضرة يختلف عن الحديث إلى أهل البادية؛ إذْ لكلٍّ منهم ما يناسبه من الموضوعات تبعًا لمستوياتهم وقناعاتهم واهتماماتهم الحياتية وتجاربهم الشخصية.

فإن لم يُراعِ الخطيب ذلك في خطبته فلن يؤثّر فيمن يخاطب، ولن

(١) زاد المعاد ١/ ١٨٩.

يجد آذانًا مُصغية ولا قلوبًا مقبلة ولا عقولًا متقبِّلة، قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُون، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»![1] وروى مسلمٌ في مقدّمة صحيحه عن عُبيدِ اللهِ بْنِ عَبدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنّ عبدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ قال: «ما أنتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ؛ إِلَّا كان لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً».

وتأمّل معي كيف راعى النبي ﷺ أحوال الناس وبيئاتهم ومستويات تفكيرهم وهو يحدّثهم في مشكلاتهم ومعضلاتهم؛ فعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرابِيًّا أَتَى رسولَ الله ﷺ فقال: إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلامًا أَسْوَدَ، وإِنِّي أَنْكَرْتُه، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ**»؟ قال: نَعَمْ، قال: «**فما أَلْوَانُها**»؟ قال: حُمْرٌ، قال: «**هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ**»؟ [هو الذي فيه سواد ليس بخالص]، قال: إِنَّ فِيها لَوُرْقًا، قال: «**فَأَنَّى تُرَى ذَلِكَ جاءَها**»؟ قال: يا رسولَ الله، عِرْقٌ نَزَعَها، قال: «**ولَعَلَّ هذا عِرْقٌ نَزَعَهُ**»، ولَمْ يُرَخِّصْ له في الانْتِفَاءِ مِنْهُ[2]. فقد راعى النبي ﷺ مستوى مَن شكّ في أهله، وأتاه بمثال مقنع من لُبّ بيئته.

ث- معرفة نفسية المخاطَبين:

ومعرفة نفسية المخاطبين تعين الخطيب على فهمهم وبالنتيجة تمكِّنه من اختيار الموضوع الذي يناسبهم وطريقة العرض التي تلائمهم، فيتكلّل جهده بالنجاح ويحظى أسلوبه بالتأثير.

ولا شكّ في أن لكلّ مجتمع أعرافه وعاداته، وتقاليده واعتقاداته، يؤمن

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (٥٣٠٥)، ومسلم (١٥٠٠).

بها ويَعَضّ عليها، فلا بدّ للخطيب من أن يكون على علم ودراية بها حتى يراعيها ولا يتصادم معهم فيخسر دعوته.

ولا يعني هذا أن يسكت عن عادات الناس وتقاليدهم الخاطئة، إنما المقصود ألّا يتصادم مباشرة في شأنها، بل يتعامل معهم بالحكمة والتدرّج حتى يأتي الوقت الذي يناسب طرحها ومعالجتها بالحسنى والتدرّج والإقناع، عن عائشة أُمِّ المؤمنينَ رضي الله عنها قالت: «إنَّما نَزَلَ أَوَّلَ ما نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّل، فيها ذِكْرُ الجنّة وَالنّار، حَتَّى إذا ثابَ النَّاسُ إلى الإسلام نَزَلَ الحَلالُ والحَرَامُ، ولَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقالُوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أَبدًا، ولَوْ نَزَلَ: لا تَزْنُوا، لَقالُوا: لا نَدَعُ الزِّنَى أَبدًا...»[1].

وعلى هذا ينبغي للخطيب أن يكون ذا اطّلاع كافٍ على عِلْمَي النفس والاجتماع.

ج- التنوّع في الاختيار والتجديد في الأسلوب والمضمون:

ومما يتعلّق باختيار الموضوعات التنوّع فيه وتجنّب التكرار؛ لأن تكرار الموضوعات دون تغيير في مضمونها وأسلوب عرضها يدفع النفوس إلى الملل والسآمة، مع ضعف التأثّر والإقبال.

والمأمول من الخطيب أن يجدّد في عنوان الموضوع - إن شاء أن يخطب فيه مرّة أخرى - وفي مضمونه، وأن يبتكر ويبدع في أسلوبه؛ ليحظى بقبول الناس بحديثه وإقبالهم عليه، وانتفاعهم بما يذكره من مواقف وحِكَم وأحكام، وما يطرحه من قضايا وأحداث تجذب الخواصّ والعوَامّ.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٣).

ومن الأخطاء التي يقع فيها بعض الخطباء أنهم يكرّرون الموضوع نفسه بعنوانه ومضمونه وأدلته وشواهده وأسلوب عرضه ويستمرون على ذلك أزمنة عديدة، وهذا النهج محدود الثمار والفوائد، وقليل المنافع والعوائد. فحريٌّ بكلّ خطيب أن يراعي هذا الجانب المهمّ في اختيار موضوعات خطبه .

ح- مراعاة المناسبات:

ولدى الخطيب مناسبات متجدّدة كلّ عام؛ كموسم الحج ورمضان وبداية العام الدراسيّ والإجازة الصيفية وغيرها من المناسبات، وهي مادّة غنيّة لكلّ خطيب لينفع الناس ويوجههم الوجهة الشرعية الصحيحة.

ولا يليق بخطيب الجمعة أن يمرّ موسم الحج مثلًا أو رمضان ولا يتحدث عنهما ولا يبيّن للناس ما فيهما من حِكَم وأحكام وأسرار وفوائد، كما لا يناسب أن يتحدّث في رمضان عن الحج وأحكامه وآدابه وأسراره، ولا أن يتحدث في موسم الحج عن رمضان، وهكذا؛ وإلّا كان كمن يغرّد خارج السِّرب، ويكون في وادٍ والناس في وادٍ غيره. ولكلّ مَقَامٍ مَقَال، ولكلّ دهرٍ رجالٌ.

ولْيعلمِ الخطيب أن مراعاته لخطب المناسبات المشروعة يكسبه واقعيّة وجِدّيّة في الحديث وثقة المستمعين وإقبالهم؛ لأن الناس أبناء الواقع ويهزّ مشاعرهم ويثير اهتمامهم الحديث عنه، ويجعلهم ألصق بالخطيب ممّا إذا تحدّث عن مثاليات مجرّدة وحلّق في عالم الخيال والحكايات.

خ- تجنّب ما يثير الفتنة بين المخاطَبين:

إن الخطيب على منبره قائم مقام النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى

بالحكمة والموعظة الحسنة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ومقامه هذا يوجب عليه أن يسعى لما يؤلّف بين القلوب ويبعدها عن التنافر؛ فإنه في مقام تجميع - على الحق - لا تشتيت، وتأليف لا تمزيق، وتوحيد لا تفريق، فيبتعد كلَّ البعد عمّا يثير صراعًا قد لا ينتهي، وفتنة قد لا تنقضي؛ بين قبيلة وقبيلة، أو طائفة وأخرى، أو بين إقليم وآخر، أو جماعة وجماعة، أو بين شخصين، فإن فعل كان خطيب سوء تنقصه الحكمة والسياسة الشرعية في مخاطبة الناس وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة؛ ولذا قيل: (شَرُّ النّاس في الفتنة الخَطيبُ المِصْقَع)؛ أي البليغُ الماهر في خطبته، الداعي إلى الفتنة، الذي يُحرِّض الناس عليها.

د- مجالات الاختيار:

إن أمام الخطيب مجالات واسعة لاختيار موضوعاته بعناية واصطفائها بدقّة، وقد يَحَارُ الخطيب بين يدي كثرة الموضوعات، وقد يشقّ عليه اختيار موضوع معيَّن لكثرتها وتواردها، وهنا ينبغي أن يركِّز على موضوع واحد ويمنحه من الزمن ما يكفي؛ ليتسع له الوقت ويكتمل لديه التصوّر ويحضّر تحضيرًا جيّدًا.

ويحسن به إذا انتهى من خطبة أن يتأهب للتي بعدها، وهذا التبكير في الاختيار يعينه على الإلمام بالموضوع واستجماع أدلته وشواهده مع ترتيب أفكاره وعناصره، وكلما عنَّت له فائدة من دليل أو شاهد أو قول أو شعر أو حكمة، التقطها ودوّنها في كرّاسته التي يحضّر فيها خطبته؛ لكيلا تفلت

منه أو يذهب بها النسيان، وقد قيل في الحِكَم: (العلم صيد والكتابة قيد، وإذا ضاع القيد ذهب الصيد)، وقيل في النَّظْم:

العِلْمُ صَيدٌ والكتابةُ قَيدُهُ — قيِّدْ صُيودَك بالحبالِ الواثقهْ

فمِنَ الحَمَاقةِ أن تصيدَ غزالةً — وتركْتَها بين الخلائقِ طالقهْ

وبين يدي الخطيب مجال رحب من الموضوعات ليختار منها ما يناسب الحال والمقال، فيستطيع أن يختار آية أو أكثر من كتاب الله تعالى فيتخذها موضوعًا لخطبته، أو حديثًا من الأحاديث النبويّة الصحيحة، أو سيرة لأحد أعلام الإسلام، أو حدثًا تاريخيًّا ذا شأن، أو خُلقًا من الأخلاق الإسلامية التي حثّ عليها ورغّب فيها، أو قصّة صحيحة معبِّرة ومؤثِّرة، أو موعظة إيمانية مُذكِّرة، أو حدثًا مهمًّا من أحداث الساعة أو قضيّة من قضايا العصر، أو نظامًا من النظم الإسلامية؛ كالنظام الاجتماعي أو الاقتصادي أو التربوي... إلخ.

٢- بناء العناصر:

وبعد أن يفرغ الخطيب من اختيار الموضوع يتّجه لتجميع عناصره، وعناصر الموضوع هي أفكاره الرئيسة التي يتكوّن منها، ولا بدّ لمُعدّ الخطبة أن يراعي في هذا الجانب ما يأتي:

أ- أن تكون عناصر الموضوع التي يجمعها لصيقة به وتدور في فلكه؛ وإلّا تشتّتَ الخطيب وأبعد النُّجْعة وشتّت المستمعين معه، وخبط في خطبته خَبْط عشواء، لا يدري من أين يبدأ ولا كيف ينتهي، وكلّما كان الخطيب مُلمًّا بموضوعه ومستوعبًا له كان أقدر على التفاعل والنجاح فيه.

ب- أن تكون العناصر متسلسلة ومترابطة بحيث يتبع بعضها بعضًا وينتقل من الأول إلى الذي يليه، فإن تحدّث عن مشكلة ما؛ فإنه يبدأ بتعريفها وإيضاحها للناس، ثم يبيّن أسبابها، ثم يتحدّث عن النتائج، ثم عن سبل الوقاية ووسائل العلاج؛ ليخرج المستمعون بإلمام بالموضوع ومعرفة سبل إنهاء تلك المشكلة، فتكون العناصر مُحْكمة متجانسة وتُلقَى على المستمعين بسلاسة وتناسق وانسياب.

فلو أراد أن يتحدّث عن الظلم مثلًا فإن عناصر الموضوع ستكون على النحو التالي:

١- مفهوم الظلم وموقف الإسلام منه.

٢- أنواع الظلم (ظلم الإنسان حقّ ربّه، ظلم الإنسانِ نفسَه، ظلمُه غيرَه من المخلوقين).

٣- آثار الظلم في الأفراد والمجتمعات.

٤- عاقبة الظلم والظالمين.

ت- أن تكون واضحة وخالية من كثرة التفريع وغير مكرّرة؛ وإلّا اكتنفها الغموضُ وكَثُرَ فيها الحَشْو الذي يفضي إلى التشتّت والسآمة.

٣- جمع الأدلّة وترتيبها واستجماع المادّة العلميّة:

وبعد أن يختار الخطيب موضوعه ويبني عناصره ويرتّبها ينتقل إلى جمع الأدلة التي يقوّي بها موضوعه ويقنع بها سامعيه؛ إذْ لا قيمة لأيّ حديث ما لم يكن مقنعًا للعقول ومؤثّرًا في النفوس.

وأمام الخطيب ميدان فسيح من الأدلة الشرعية والعقلية والشواهد

الواقعية؛ ليقدّمها للناس بأسلوب الوعظ والتذكير والإرشاد والتأثير، فالآيات القرآنية أدلة، والأحاديث النبوية الصحيحة أدلة، وسيرة النبي ﷺ أدلة، وآثار السلف رضي الله عنهم من أقوال وأفعال أدلة ما وافقت الشريعة ولم تخالفها، والأدلة العقلية والمنطقية، وكذا أقوال العلماء، والوثائق التاريخية والعلمية الثابتة، والقصص والأمثال، والحكم والأشعار، والأعراف والتقاليد التي لا تخالف شرع الله عزّ وجلّ.

٤- التنسيق:

والتنسيق يعني: (تنظيم معاني الخطبة، وسياق أجزائها، وذكر أدلّتها[١]).

وبعد الانتهاء مما سبق ذكره يعمِد الخطيب إلى التنسيق بين تلك الأجزاء فيرتّبها وينظّمها ويضع كلّ جزء منها في موضعه الملائم، وهذا التنسيق من الأهمية بمكان؛ إذ هو بمنزلة ترتيب الحروف في الكتابة، وتنظيم صفوف الجند، وترتيب صفوف الطلبة في المدارس، والنظام في كلّ شيء هو أساسه المهمّ.

---

(١) فنّ الخطابة، علي محفوظ ٥١.

المبحث الثالث

مصادر الخطابة

لكلّ علم أصوله التي يُبنَى عليها، ومصادره التي يُستقَى منها، وأهمّ مصادر الخطابة:

أوّلًا: الآيات القرآنية:

من المعلوم أن الآيات القرآنية هي أصل الاستدلال وجوهرة عِقْد الأدلة، ولا غَنَاء لأيّ خطيب عنها، بل لا تصحّ خطبة ما لم يُذكر فيها شيء من القرآن كما قال كثير من أهل العلم، ولا يستقيم أمرها ولا يكمُل بناؤها ما لم يُستدَلّ لها من آيات الذكر الحكيم.

ويأتي القرآن في المرتبة الأولى من حيث الاستدلال به، وهو المصدر التشريعي الأول الذي تستقى منه الأحكام الشرعية وتؤخذ منه المواعظ الروحية والآداب الإسلامية، وهو الكتاب الأول الذي يُعدّ مصدرًا لا ريب فيه. وثمة مراجع لمواضع الآيات يستفيد منها الخطيب لإعداد خطبته، ومن أهمّها:

أ- كتاب (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) ومؤلّفه محمد فؤاد عبد الباقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو كتاب يسير على نهج معاجم اللغة العربية إذ يعتمد على أصل الكلمة، ويمكن للخطيب أن يستفيد منه في جمع الآيات المتعلّقة بالموضوع الذي يريد أن يخطب به، فمثلًا لو كان الموضوع عن فعل الخير فإنه يرجع إلى جذر المادة (خير) وما اشتُقّ منها. أو عن الأمانة؛ فإنه يرجع إلى مادة (أمن) ومشتقاتها ليجد الآيات التي تتحدث في هذا الباب، وهكذا.

ب- (مرشد الحيران إلى بحوث القرآن) لمؤلّفه محمد مرشد عابدين، وهو مرتّب ترتيبًا موضوعيًّا على الحروف الهجائية؛ كالصلاة والزكاة والحج... إلخ.

ت- برامج الحاسوب: ومنها المكتبة الشاملة، وهي من البرامج المفيدة جدًّا، ويستطيع الخطيب أن يستفيد منها - في مجال القرآن - استخراج الآيات ذات الشأن الذي يبحث فيه بوضع كلمة من الآية أو جزء منها، مع تفسيرها وبيان معانيها بسرعة عجيبة ربما لا تستغرق أحيانًا ثوانيَ معدودة.

ث- الشبكة العنكبوتية (الإنترنت): وفيها يجد الباحث بغيته من خلال المواقع التي تعنى بهذا الجانب؛ مثل: موقع الشؤون الإسلامية بدولة الكويت، وموقع ملتقى الخطباء، وموقع بوّابة الحرمين الشريفين، وموقع المنبر، وموقع صيد الفوائد، وغير ذلك.

ثانيًا: السُّنّة النبوية:

وهي المصدر التشريعي الثاني بعد القرآن الكريم، ولا غنى للخطيب عنها البتّة؛ لأن كثيرًا من الأحكام الشرعية مأخوذة منها، وكذا المواعظ المهمّة والآداب العامّة.

والكتب التي عُنيت بالسنة المطهّرة كثيرة متنوّعة، فمنها:

١- ما عُني بجمع الحديث الشريف جملةً ولم يشترط أصحابها وضع الصحيح فقط، وهي كتب تجد فيها الصحيح والضعيف والموضوع أحيانًا وإن كان غلب على أحاديثها الصّحّة والحُسن؛ ككتب المسانيد والسنن؛ مثل مسند الإمام أحمد وكتب السنن الأربعة (سنن أبي داود

والترمذي والنسائي وابن ماجه) وغيرها من كتب السنة ودواوينها.

٢- ومنها ما عُني بجمع الصحيح فحسب، ولم يدخل غيرها فيها؛ مثل صحيح الإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل.

٣- ومنها كتب السيرة النبوية التي دوّنت الأحداث التي مرّت بها دعوة النبي ﷺ وحياته منذ ولادته حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى؛ مثل: سيرة ابن إسحاق، وسيرة ابن هشام، والسيرة النبوية لابن كثير، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس، وزاد المعاد لابن القيّم، وغيرها.

٤-ومنها الكتب العامّة الشاملة التي جمعت الأحاديث النبوية من كتب السُّنّة، وهي تقسم إلى أقسام:

القسم الأول: كتب جمعت أحاديث نبوية وآثارًا للصحابة، وربّما ضمّنها مؤلّفوها بعض أقوال التابعين والأئمة المجتهدين؛ مثل كتاب: (جامع الأصول في أحاديث الرسول) لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، جمع فيه الكتب الستّة على حسب الأبواب والفصول والفروع.

وكتاب (مصابيح السّنّة) لمحيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البَغَوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦ هـ)، جمع فيه أحاديث هذا الكتاب بأسانيده المتصلة من شيوخه إلى النبي ﷺ، ولم يُوْدِعه من ألفاظ الأحاديث إلّا ما وافق وجوده في الكتب الستة أو قاربه، ونادرًا ما يخرّج فيه أحاديث لم يخرجها الأئمة الستّة في كتبهم وإذا فعل ذلك فليبان

حكم أو زيادة إيضاح. وقارب عدد أحاديثه خمسة آلاف حديث، وقد قسمه إلى قسمين:

أولهما: الأحاديث الصّحاح، وهي الأحاديث التي رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما أو أحدهما.

وثانيهما: الأحاديث الحِسَان، وهي الأحاديث التي خرّجها أصحاب السنن الأربعة وربّما أدخل معها غيرها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (جعلت أحاديث كل باب من هذا الكتاب قسمين، صحاحًا وحسانًا. فالصحاح منها ما أورده الشيخان محمد البخاري ومسلم في كتابيهما الصحيحين... وأردت بالحسان ما لم يخرّجاها في كتابيهما وخرّجها غيرهما من الأئمة مثل أبي داود السجستاني وأبي عيسى الترمذي والنَّسائي)[1].

القسم الثاني: كتب التخريج التي درَست الأحاديث وعُنيت بالحكم عليها صحّة وضعفًا، والتخريج معناه: عَزْو الأحاديث إلى مخرجيها من أئمة الحديث من الجوامع والسنن والمسانيد. ومن أشهرها:

١- (مَجْمَعُ الزَّوَائد ومَنْبَعُ الفَوَائِد) للحافظ نور الدين عليِّ بْنِ أبي بَكْر الهَيْثَمِيّ المتوَفَّى سنة ٨٠٧ هـ. جمع فيه زوائد مسند الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة كلّ واحد منها في تصنيف مستقل، ما خلا المعجم الأوسط والصغير فإنهما في تصنيف واحد، ثم أشار عليه شيخه زين الدين العراقي فجمع هذه

(١) المصابيح ٢/ ٣٠٥.

التصانيف وحذف أسانيدها لكي تجتمع أحاديث كل باب منها في باب واحد من هذا، ورتّبه على كتب؛ ككتاب الإيمان والعلم... ثم يذكر حكم كل حديث بصحة أو ضعف.

٢- (نَصْب الرَّاية لأحاديث الهداية) تأليف: جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزَّيْلَعيّ (المتوفى: ٧٦٢هـ)، وقدّم فيه خدمة جليلة للأحاديث النبوية، إذ حكم عليها بإنصاف وتعقّبها جرحًا وتعديلًا وسردًا للأسانيد، وهو تخريج لأحاديث (الهداية) في الفقه الحنفي للمرغيناني.

ويمكن لكلّ أتباع المذاهب الأخرى الاستفادة منه، فهو كتاب يحتاج إليه الفقيه والمحدِّث معًا.

٣- (التلخيص الحَبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير) لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حَجَر العَسْقَلانيّ (المتوفى: ٨٥٢هـ). وكتابه هذا تلخيص لكتاب (البدر المنير في تخريج أحاديث الشرح الكبير) لابن الملقّن. وقد كان يذكر الحديث كما هو في كتاب العزيز للرافعي ثم يعزوه إلى مصادره الأصلية، وكان يذكر الحكم على الحديث غالبًا، وإذا كان فيه ضعف بيّنه، ونقل أقوال أهل الجرح والتعديل فيه، ثم يذكر في نهاية الحديث تنبيهًا مشتملًا على فوائد وتقريرات مهمّة.

٤- كتب الشيخ محمد ناصر الدين الألبانيّ (سلسلة الأحاديث الصحيحة، سلسلة الأحاديث الضعيفة، صحيح الجامع الصغير وزيادته، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، صحيح الترغيب والترهيب، ضعيف الترغيب والترهيب...).

القسم الثالث: كتب الرقائق والمواعظ والآداب ونحوها، ومنها:

١- كتاب (الترغيب والترهيب) للحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المُنْذِري المتوفَّى ٦٥٦هـ. وهو أجمع وأنفع ما أُلِّف في موضوعه، فقد جمع - وأحسنَ الجمع - ما تفرّق في بطون الكتب الستة وغيرها من أحاديث الترغيب والترهيب في مختلف أبواب الشريعة، مع عنايته بتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها، وعُني ببيان مرتبة الحديث صحّةً أو ضعفًا.

وقد خدمه المحدّث الألبانيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ خدمة جليلة حين بيّن مرتبة الأحاديث الواردة فيه، وجعله قسمين منفردين؛ قسمًا للصحيح (صحيح الترغيب والترهيب)، وقسمًا للضعيف أيضًا (ضعيف الترغيب والترهيب).

وبالجملة هو كتاب جليل نفيس ومفيد جدًّا في فنّه لا يكاد يستغني عنه واعظ ولا خطيب ولا مدرّس.

٢- كتاب (رياض الصالحين) للإمام أبي زكريّا محيي الدين يحيى بن شرف النَّوَويّ المتوفَّى ٦٧٦هـ. وهو كتاب نفيس ضمّنه النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجموعة كبيرة من الأحاديث تجاوزت ألفًا وتسعَمِائة حديث في كتب وأبواب متنوعّة من المواعظ والآداب والسنن، وكلّها أو جُلّها صحيحة أو حسنة، كما قال في مقدّمته: (فرأَيتُ أَنْ أَجْمَعَ مُخْتصرًا من الأحاديث الصَّحيحة... من أحاديث الزهد ورياضات النُّفُوس، وتَهْذيب الأَخلاق، وطَهارات القُلوب وعِلاجِها، وصيانة الجَوَارح وإِزالة اعْوِجاجِها، وغيرِ ذلك مِنْ مَقاصد العارفين).

وذكر في المقدّمة أيضًا: (وألتزمُ فيه أَلّا أَذْكُرَ إلا حديثًا صحيحًا من

الواضحات، مُضَافًا إلى الكُتُب الصَّحيحة المَشْهُورات. وأُصَدِّر الأبوابَ مِن القرآن العزيز بِآياتٍ كَرِيماتٍ، وأُوشِّحُ ما يحتاج إلى ضَبْطٍ أَوْ شَرْحِ مَعْنًى خَفِيٍّ بِنفائسَ مِنَ التَّنْبِيهات).

لكن وُجِد فيه أحاديث فيها ضعف وأحيانًا نكارة، (ولعلّ عذر المؤلف ﵀ في وقوع هذه الأحاديث الضعيفة في كتابه مع حرصه على الاقتصار فيه على الأحاديث الصحيحة إنما هو اعتماده غالبًا على تصحيح أو تحسين الترمذي وسكوت أبي داود على الحديث).

وعلى كلّ حال هو كتاب ثمين ونافع، كتب الله له القبول والانتشار حتى لا يكاد يخلو منه بيت مسلم.

٣- كتب شروح الحديث: وهي مهمّة لفهم الأحاديث ومعرفة معانيها والوقوف على الأحكام الشرعية المستنبطة منها والآداب والفوائد المستخرجة. مثل: فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، وفيض القدير شرح الجامع الصغير، لزين الدين محمد عبد الرؤوف المُنَاوي (المتوفى: ١٠٣١هـ)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن (سلطان) محمد الملا القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، وعون المعبود شرح سنن أبي داود، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي، ونيل الأوطار، لمحمد بن علي الشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، وشرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ). والنهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري.

وثَمّة كتب كثيرة ومتنوعة يمكن للخطيب أن يستفيد منها في إعداد خطبه على أكمل وجه وأجمل صورة.

ثالثًا: آثار السلف الصالح رضي الله عنهم:

وممّا يستدلّ به الخطيب ويستأنس به في باب الإقناع والتأثير: أقوال السلف الصالح رضوان الله عليهم؛ لأنهم أصدق من حمل رسالة الإسلام إلى الدنيا علمًا وعملًا وفهمًا، وهم الذين جمعوا بين العلم والعمل والفهم، مع حسن العبادة والورع والتقوى والصلاح، فعمروا الدنيا والآخرة معًا، فصاروا قدوة صالحة وأُسوة ناجحة لمن بعدهم من القرون، ويجد المسلم لكلامهم وقعًا في القلوب.

ونعني بالسلف الصالح: القرون المُفَضَّلة التي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ**» متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة. ويقال: إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبيّ أو رئيس يجمعهم على ملّة أو مذهب أو عمل. ويطلق القرن على مدّة من الزمان، واختلفوا في تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين، لكن لم أر من صرّح بالسبعين ولا بمائة وعشرة، وما عدا ذلك فقد قال به قائل، وذكر الجوهري بين الثلاثين والثمانين. وقد وقع في حديث عبدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ عند مسلم ما يدل على أن القرن مائة وهو المشهور. وقال صاحب المطالع: القرن أمّة هلكت فلم يبق منهم أحد. وثبتت المائة في حديث عبد الله بن بسر وهي ما عند أكثر أهل العراق. ولم يذكر صاحب المحكم

الخمسين وذكر من عشر إلى سبعين ثم قال: هذا هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن. وهذا أعدل الأقوال وبه صرح ابن الأعرابي وقال: إنه مأخوذ من الأقران... والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث: الصحابة)[1].

ومصطلح السلف يراد به معنيان:

المعنى الأول زمنيٌّ: وهو عصر خير القرون، ويمتدّ من عهد الصحابة إلى التابعين وتابعي التابعين.

المعنى الثاني منهجيّ: وهذا شامل لكلّ من سار على طريقة خير القرون ومنهجهم، والتزم النصوص من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

قال الحافظ في الموضع نفسه: (وقد ظهر أن الذي بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة أو دونها أو فوقها بقليل على الاختلاف في وفاة أبي الطُّفَيْل. وإن اعتبر ذلك من بعد وفاته ﷺ فيكون مائة سنة أو تسعين أو سبعًا وتسعين. وأما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين أو ثمانين. وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها كان نحوًا من خمسين. فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان. والله أعلم. واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهورًا فاشيًا، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتُحن أهل العلم...).

ومن أبرز المصادر التي نقلت أقوالهم وعُنيت بآثارهم:

---

(١) فتح الباري ٧/ ص٥- ٦.

١- المُوَطَّأ للإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صنّفه في منتصف القرن الثاني الهجري وتوخّى فيه القويّ من حديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

٢- المُصنَّف لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٢٣٥هـ)، وفيه آثار كثيرة جدًّا عن السلف.

٣- مصنّف أبي بكر عبد الرزاق بن همّام الصنعانيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢١١هـ)، وفيه آثار كثيرة عن السلف.

٤- شُعَب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البَيْهَقيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٤٥٨ هـ).

٥- كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك المَروزيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٨١هـ).

٦- كتاب الزهد للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٤١هـ).

٧- سِيَر أعلام النُّبلاء لمحمد بن أحمد بن عثمان الذَّهَبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٧٤٨هـ).

رابعًا: أقوال العلماء:

العلماء هم ورثة الأنبياء ومن مَعين علمهم ينهلون، وبسننهم يقتدون، وبهديهم يهتدون، ومن هذا الجانب فهم قدوة حسنة لغيرهم، ولديهم من الأقوال البليغة والآراء السديدة والتجارب العديدة؛ ما يستشهد به الخطيب في خطبته وينتفع به لنفسه ولجمهوره وللناس ويجد فيه بغيته، وأقوال العلماء الربانيين عليها مَسْحَة من كلام الأنبياء، ومُسْكَة من حكمة العقلاء، وأَثَارة من أدب النبلاء، وهي مبثوثة في كل مصادر الشريعة ومراجعها، وأوّلها:

أ- كتب التفسير التي ضمّت كثيرًا من أقوالهم ونقلت آثارهم وآراءهم

من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان؛ كتفسير ابن جرير الطبريّ والقرطبيّ والبغويّ وابن كثير والقاسميّ وغيرها كثير.

ب- كتب شروح الحديث؛ كفتح الباري شرح صحيح البخاري، وشرح النووي على صحيح مسلم، والتمهيد لأبي عمر ابن عبد البر (المتوفى: ٤٦٣هـ)، وشروح كتب السنن الأربعة وفيض القدير شرح الجامع الصغير؛ للمُنَاويّ، والتَّنوير شَرْح الجامع الصَّغِير؛ لمحمد بن إسماعيل الصنعانيّ (المتوفى: ١١٨٢هـ) وغيرها كثير.

ت- كتب المواعظ والرقائق والأخلاق؛ كمدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين؛ لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجَوْزيّة (المتوفى: ٧٥١هـ)، وكتاب: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (المتوفَّى ٥٠٥هـ) مع تخريج العراقيّ المسمَّى: (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار)، وكتاب: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ؛ إعداد: عدد من المختصين بإشراف الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي. وسواها من الكتب الماتعة النافعة.

خامسًا: القصّة:

إن للقصة سحرًا حلالًا عجيبًا، يسحر القلوب ويأخذ بالألباب ويستحوذ على النفوس، فالقصة هي مُلْحَة الخطبة وأحد أهمّ دعائم تأثيرها؛ لأنها تعرض الأفكارَ في صور حيّة، والأمثلةَ المتصوَّرةَ إلى شيء محسوس وواقع ملموس، وفيها من المتعة والجاذبية وسهولة فهمها واستيعابها ما يجعل لها تأثيرًا قويًّا تربويًّا ونفسيًّا في السامعين، ولذلك ذكر القرآن الكريم كثيرًا من

قصص الأولين، ومواقف الناس مع النبيين والمرسلين، بل القرآن كلّه ثلاثة أقسام: توحيد، وتذكير، وأحكام. فالتوحيد يشمل معرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله. والتذكير ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن والقصص والأمثال. والأحكام وهي التكاليف الشرعية كلّها من الواجب والمندوب والحرام والمكروه والمباح والصحيح والباطل.

وقد ذكرها الله تعالى في سياق أسباب الثبات على الحق والهدى فقال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. وفي القصة من العظة والاعتبار، والتأثير والادّكار ما يجعلها ترجمة حيّة تبيّن - بالفعل لا بالقول المجرَّد - حقيقة الأحداث ومآلاتها، وآثار موافقات الشرائع ومخالفاتها، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ومن الكتب التي يمكن للخطيب أن يستقي منها القصص لدعم خطبته وتزيينها:

كتب السيرة النبوية وقد سبق ذكر طائفة منها، والبداية والنهاية لابن كثير، وقصص الأنبياء له، وهو مستلٌّ من البداية والنهاية، وقصص الأنبياء للدكتور عبد الكريم زيدان، ومن بدائع القصص النبوي الصحيح لمؤلّفه محمد بن جميل زينو، ودروس وعبر من صحيح القصص النبوي؛ لمؤلّفه شحاتة محمد صقر، وصَحيح القَصَص النَّبوِيّ للشيخ أبي إسحاق الحويني. إضافة إلى مظانّ القصص من كتب التفسير وغيرها.

سادسًا: الحِكَم والأمثال:

والأمثال هي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، والحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ بها، وهي من الإحكام وتعني الإتقان في قول أو فعل، والحكيم من أسماء الله تعالى، والحكيم من البشر من يتصرّف وفق الحقّ والصواب.

قال عزّ مِنْ قائل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وهي هنا العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحِكَمها.

قال إبراهيم بن سيّار النّظّام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسْن التشبيه، وجَوْدة الكناية، فهو نهاية البلاغة(١).

ومن تدبير الله لعباده أنْ ضرب لهم الأمثال في كتابه العزيز لحاجتهم إليها ليعقلوا بها ما غاب عن أسماعهم وأبصارهم، وتهتديَ بها نفوسهم بما أدركته بعين البصر والبصيرة، وقد سمّى الله تعالى من يَعقل الأمثالَ (عالمًا) فقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]. كما بيّن سبحانه أنّ ضرب الأمثال من أجل أن يتفكر الناس ويتدبروا: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر].

(١) مجمع الأمثال للميداني ١/ ١.

وقد تفرّعت إلى ثلاثة: الأمثال القديمة، وأمثال المُوَلَّدين، وأمثال العامّة.

ومن أمثال الجاهلية وحكمهم: (سَبَقَ السَّيفُ العَذَلَ)، و(عندَ جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليقِينُ)، و(القَوْلُ ما قالتْ حَذَامِ)، و(لا مَخْبَأَ لِعِطْرٍ بَعْدَ عَرُوسٍ).

ومن أمثال المولّدين[1]: (يقع في البئر مَن حفر)، و(الزَّبُون يفرح بلا شيء) والزَّبُون: الغبيّ الذي يُزْبَن ويُغْبَن. و(الصّبر مفتاح الفرج)، و(الطّمع الكاذب فقرٌ حاضر)، و(من لم يرض بحكم موسى رضي بحكم فرعون)، و(من تأنّى أدرك ما تمنّى)، و(الأسرار عند الأحرار)[2].

ومن الأمثال الإسلامية: قول النبي ﷺ: «**الحَرْبُ خَدْعَة**»، وهو في الصحيحين، و«**لا يُلدَغ المؤمن من جُحْر مرّتين**» وهو في الصحيحين أيضًا، و«**إنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**» وهو في صحيح البخاري. وقولهم: (من صَدَقَ الله عز وجل نجا)، و(السُّؤْدُدُ اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة، والشَّرفُ كَفُّ الأذى وبذلُ النَّدى، والغنى قلّة التَّمَنِّي، والفَقْرُ شَرَهُ النَّفس) مأثور عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

ولا ريب في أن الحكم والأمثال التي نطق بها الناس هي نتاج خبرة ممتدّة في الحياة، وعُصارة تجاربها المتراكمة، وثمرة معرفة طويلة عبر

(١) المُوَلَّد: المُحْدَثُ مِنْ كُلّ شيء، ومنه المُوَلَّدُونَ مِنَ الشُّعَراء إنّما سُمُّوا بذلك لِحُدُوثِهم، والمولّدون: هم جماعة من العجم ولدوا ونشؤوا ونموا في بلاد العرب أو العكس. والمولّدون أيضًا: جماعة من العرب أو الأعراب اختلطوا بالأعاجم.

(٢) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ٢/ ١٦٧١ لمحمد بن علي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، لسان العرب ٣/ ٤٧٠.

الأزمان بمشكلاتها ومسرّاتها، ولها تأثيرها القويّ في النفوس ووقعها الجليّ في العقول، والخطيب الكيِّس ينتفع بحصيلة الشعوب من الحكم والأمثال فيجعلها خادمة لموضوعه، يستشهد بها ويعبّر بفحواها عن مراده، وقد يبدأ بها خطبته أو يختتمها بها، وقد يجعلها عنوانًا لخطبته. ومن أهم المصادر لها:

١- مجمع الأمثال: ومؤلّفه أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني المتوفَّى سنة ٥١٨ هـ، وهو كتاب نافع بل أفْضَلُ كتاب صُنِّف في موضوعه؛ حَسَنُ التأليف ومبسوط العبارة وكثير الفائدة. يقع في جزأين.

٢- كتاب (أمثال العرب) للمُفَضَّل بن محمّد بن يَعلى بن سالم الضَّبِّيّ المُتوفَّى ١٦٨ هـ، وتعدّ أمثال الضّبيّ أقدم مجموعة وصلتنا من الأمثال الجاهلية المقترنة بالحكاية، وكتابه ذو قيمة كبيرة؛ إذ يعدّ مصدرًا لأكثر الكتب التي أُلِّفت بعده في هذا الموضوع، ثم توسعت الأمثال بعد المفضل حتى شملت أنواعًا أخرى مثل الحديث والحكمة والشعر، وتعددت المؤلّفات فيها.

٣- جمهرة الأمثال: لأبي هلال العسكريّ الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكريّ المتوفّى ٣٩٥ هـ، وهو كتاب مفيد في بابه، يقع في جزأين، وقد ذكر فيه أكثر من ألف وتسعمائة وسبعين مثلًا.

سابعًا: الشِّعْر:

سبق الكلام آنفًا عن الحكم والأمثال وأثرهما في الخطبة، فإذا ضمّ الخطيب الأشعارَ المُؤثِّرة إلى الحِكَم المُعبِّرة - إضافةً إلى الأدلّة والروافد الأخرى - كان للخطبة صدًى كبير في آذان السامعين، ووَقْعٌ بالغ في نفوس الحاضرين، ولمّا كان الشعر ديوان العرب، ومعدن حكمتها وكنز أدبها(١)؛ كان له مكان بارز وأثر واضح في ميدان الدعوة؛ فقد اتّخذه المسلمون الأوائل من الأسلحة التي يواجهون بها أعداءهم، ويدافعون بها عن دينهم، ويذبّون بها عن أعراضهم؛ وقد ثبتَتِ الأحاديثُ الصحيحةُ بأن رسول الله ﷺ سمع الشعرَ، وأمرَ حسانَ بن ثابت بهجاء الكفّار به؛ فعَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبيُّ ﷺ لِحسانَ: «**اهْجُهُمْ - أَوْ هَاجِهِمْ - وجِبْرِيلُ مَعَكَ**» وفي رواية أخرى: «**اهْجُ المُشْرِكِينَ؛ فإنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ**»(٢). وهو أحد أعمدة الحكمة عند العرب في الجاهليّة وفي الإسلام، ففي حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً**»(٣).

وقد قسم اللغويون الشعراء إلى طبقات أربع هي:

١- الشعراء الجاهليّون، وهم قبل الإسلام.

٢- الشعراء المُخَضْرَمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام.

٣- الشعراء الإسلاميّون، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير

(١) الشعر ديوان العرب: هذا قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه الحاكم (٣٨٤٥) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي (٢١٦٥٤)، وفي «الأسماء والصفات» (٧٤٦) وصحّحه.
(٢) أخرجه البخاري (٤١٢٤)، ومسلم (٢٤٨٦).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٤٥).

والفرزدق، وآخرهم إبراهيم بن هَرْمَة. قال: الأصمعي: (خُتم الشعر بابن هَرْمَة)، وقال أبو عبيدة: (افتُتح الشعر بامرِئ القيس، وخُتم بابن هَرْمة)[١].

٤- المُولَّدون، وهم مَنْ بعدهم إلى زماننا هذا كبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ المتوفّى بالبصرة سنة ١٦٧هـ وأبي نُوَاسٍ المتوفّى ببغداد سنة ١٩٨هـ[٢].

حكم الشعر عامّة وفي الخطب خاصّة:

عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن الشِّعر، فقال: «**هو كلامٌ، فحَسَنُهُ حَسَنٌ وقَبِيحُهُ قَبِيحٌ**»[٣]. قال النووي رحمه الله: (قال العلماء: معناهُ: أنَّ الشعرَ كالنَّثر، لكنّ التجرّدَ له والاقتصارَ عليه مذمومٌ)[٤]. وقال في شرح صحيح مسلم: (واستدل بعض العلماء بهذا الحديث[٥] على كراهة الشعر مطلقًا قليله وكثيره وإن كان لا فحش فيه... وقال العلماء كافّة: هو مباح ما لم يكن فيه فحش ونحوه، قالوا: وهو كلامٌ حسنُه حسنٌ وقبيحه قبيح، وهذا هو الصواب، فقد سمع النبي ﷺ الشعر واستنشده، وأمر به حسان في هجاء المشركين، وأنشده أصحابه بحضرته في الأسفار وغيرها، وأنشده الخلفاء

(١) ابن هرمة: هو إبراهيم بن علي بن محمد بن سالم بن عامر بن هرمة، شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، توفي ١٥٠هـ، وهو آخر من يستشهد اللغويون بكلامه. سر صناعة الإعراب ١/ ٤١ لأبي الفتح عثمان بن جِنّي الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، فوات الوفيات ٣٥.

(٢) البحث اللغوي عند العرب د. أحمد مختار عمر ٤٧-٤٨.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٧٦٠)، والدارقطني (٤/ ١٥٥)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٩)، وحسّنه النووي في الأذكار ص٥٩٤.

(٤) الأذكار ٥٩٤.

(٥) يعني حديث: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**». يَرِيهِ: من الوَرْي، وهو الداء؛ أي يأكل الدَّاءُ قلبَه.

وأئمة الصحابة وفضلاء السلف، ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه، وإنما أنكروا المذموم منه وهو الفحش ونحوه)[1].

وعلى هذا فالشعر مثل الكلام، فما كان منه حسنًا فهو حسن، وما كان قبيحًا فهو مذموم، ويدلّ على الأول - أنّه حسن - أن النبي ﷺ سمعه واستنشده، وأنشده الخلفاء وفضلاء السلف ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه، فعن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: دَخَلَ رسولُ اللهِ ﷺ مكةَ، فقامَ أَهْلُها سِمَاطَيْنِ يَنْظُرُونَ إلى رسولِ الله ﷺ وإلى أَصحابِه، قال: وابْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْ رسولِ الله ﷺ، فقال ابْنُ رَوَاحَةَ:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِه ... فاليَوْمَ نَضْرِبْكُمْ على تَنْزِيلِه

ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِه ... ويُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِه

يا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِه

فقال عُمَرُ رضي الله عنه: يا ابْنَ رَوَاحَةَ، أَفي حَرَمِ الله، وبَيْنَ يَدَيْ رسولِ الله تقولُ الشِّعْرَ؟! فقال رسولُ الله ﷺ: «**مَهْ يا عُمَرُ! فوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَكَلَامُهُ هذا أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ**»[2].

وأما الثاني فيدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]، فقد ذمّ الله الشعراء ووصف متّبعيهم بالغاوين، جمع غاوٍ وهو الضالّ، واستثنى منهم أهل الإيمان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾.

---

(١) شرح مسلم ١٥/ ١٤.

(٢) أخرجه النسائي (٣٨٧٦)، وابن خزيمة (٢٦٨٠)، وابن حبّان (٥٧٨٨)، والبيهقي (٢١٥٦٨) وصحّحه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

ويدلّ عليه أيضًا ما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما عنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**».

وهذا محمول على من شغله قول الشعر وروايتُه وإنشادُه، وجعَلَه صناعة له حتى غلب عليه بحيث لا يتفرغ لغيره. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: (والذي يتحصّل من كلام العلماء في حدّ الشعر الجائز أنه إذا لم يكثر منه في المسجد، وخلا عن هجوٍ وعن الإغراق في المدح والكذب المحض والتَّغَزُّلِ بمُعَيَّن لا يحلّ، وقد نقل ابن عبد البرّ الإجماع على جوازه إذا كان كذلك)[1].

وفي فتوى اللجنة الدائمة للإفتاء ما نصّه: (وعلى هذا يتبيّن أنه ليس كلّ الشعر مذمومًا، بل يذمّ منه ما كان ماجنًا، أو فيه إبطال حق، أو نصر باطل، أو شغل عن حق، أو كان كذبًا ونحو ذلك. ويحمد ما كان ضدّ ذلك، والشعر من جنس الكلام، والأصل فيه الإباحة)[2].

قال الجاحظ: (وأكثر الخطباء لا يتمثّلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر)[3].

هذا حكم الشعر عامّة.

وأما إيراده في خطب الجمعة خاصّة فلا يخلو من تفصيل أيضًا.

والخطباء في هذا الباب على ثلاثة أقسام:

---

(١) فتح الباري: ١٠/ ٥٣٩.
(٢) فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى ٤/ ٤٠٨.
(٣) البيان والتبيين ١/ ١١٦.

القسم الأوّل: لا يوردون الشعر في خطبهم البتّة أو يكادون لا يوردونه.

القسم الثاني: يكثرون منه حتى إن بعضهم يُغْرِق فيه ويتغنّى به على المنبر، بل بعضهم يبدأ به خطبته قبل الحمد والثناء والشهادتين، وبعضهم لا يفعل هذا الأخير ولكنه يحمد الله ويأتي بشعر، ثم يتشهد الشهادة الأولى ويتبعها بالشعر، ثم يفعل مثل ذلك بعد الشهادة الثانية.

وفي أثناء الحديث والموضوع حدِّث ولا حرج عمّن يكثرون من الشعر، حتى إنه لَيُخيَّل إلى بعض السامعين كأنّه من أركان خطبة الجمعة، أو كأنه في مبارزة شعرية على المنبر، أو في سوق عُكَاظ أو ذي المَجَاز أو مِجَنَّة! فالله المستعان.

القسم الثالث: وهم الذين يجعلون الشعر في الكلام كالملح في الطعام، فيذكرون من الشعر ما كان فيه حكمة ظاهرة، أو موعظة زاجرة، ولا يجعلون ذلك ديدنًا لهم في كل خطبة يخطبونها، ولا يكثرون منه إذا ذكروه. فهذا عسى ألّا يكون به بأس إن شاء الله؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً**»[1]. وهو من جنس الكلام الحسن، وخاصّة أنه كان يُنْشَد في مسجد النبي ﷺ.

قال ابن الجوزيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (إلّا أن الواعظ مأمور بأن لا يتعدّى الصَّواب، ولا يتعرّض لما يفسدهم، بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه، وهذا يحتاج إلى صناعة؛ فإنّ من العوامّ من يعجبه حسن اللفظ، ومنهم من يعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر)[2].

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) صيد الخاطر ص ٢١.

وقد ذهب الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جواز أن يستشهد خطيب الجمعة بأبيات من الشِّعر، على أن يكون ذلك بقدر، وبحسن اختيار.

فقد سئل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل الاستشهاد ببعض الشِّعر في خطبة الجمعة مما يحثّ على مكارم الأخلاق، والجهاد في سبيل الله: أمر مشروع؟

فأجاب: لا شكّ بذلك، يقول النبي ﷺ: «**إنَّ مِن الشِّعر لحكمة**»، وكان النبي ﷺ ينشد مع الصحابة وهم يبنون المسجد، ينشد معهم ﷺ:

واللهِ لَولا اللهُ ما اهْتَدَيْنَا ... ولَا تَصَدَّقْنَا ولَا صَلَّيْنَا

فأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إذا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ورَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: أَبَيْنَا، أَبَيْنَا.

كان رافعًا بها صوته يقول: أبينا، أبينا، أبينا، كما أنه ﷺ أنشدهم وهم يحفرون الخندق.

فالمقصود: أن إنشاد الشعر الحق الطيب في الخطب، والمواعظ، والمحاضرات، وخطب الجمعة، والأعياد: لا بأس به؛ لأنه يؤثّر، ويحصل به خير عظيم. انتهى.(١)

فأمّا **القسم الأوّل**، وهم الذين لا يوردون الشعر في خطبهم أو يكادون ألّا يوردوه، فهم أقرب إلى السُّنّة، وأحظى باتّباع مَن سلف من الأمّة.

---

(١) جريدة المدينة، العدد ٩١٧٠، الثلاثاء ٢٢/ ١٢/ ١٤١٢هـ. نقلاً عن موقع الإسلام سؤال وجواب ٥/ ١٩٧٧.

وأمّا **القسم الثاني** فهم مخالفون بلا ريب؛ لأنهم جعلوا للشعر حظًّا كبيرًا في الخطب، وربّما كان أكثر مِن نصيب القرآن والأحاديث الشريفة، وهما الأصلان اللذان لا يجوز تقديم شيء ثالث عليهما في الاستدلال والاستشهاد في مثل هذه المواطن من خطاب الناس، وهذا الأسلوب - وهو الإكثار من الشعر في خطبة الجمعة - فيه إغراق وغلوّ.

وممن قال بالمنع: الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: (ولا أعرف في خطب النبي ﷺ، ولا في خطب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الاستشهاد بالشعر ببيت فصاعدًا، وعلى هذا جرى التابعون لهم بالإحسان. وقد استمرأ بعض الخطباء في القرن الرابع عشر تضمين خطبة الجمعة البيت من الشعر فأكثر، بل ربّما صار الاستشهاد بمقطوعات شعرية متعدّدة، وربما كان إنشاد بيت لمبتدع، أو زنديق، أو ماجن)!

وقال أيضًا: (والمقام في خطبة الجمعة مقام له خصوصيات متعددة يخالف غيره من المقامات، في الدروس، والمحاضرات، والوعظ، والتذكير، وهو مقام عظيم لتبليغ هذا الدين صافيًا، يجهر فيه الخطيب بنصوص الوحيين الشريفين، وتعظيمهما في القلوب، والبيان عنهما بما يليق بمكانتهما ومكانة فرائض الإسلام، فلا أرى لك أيها الخطيب للجمعة إلا اجتناب الإنشاد في خطبة الجمعة، تأسّيًا بالنبي ﷺ، وهو بك أجمل، وبمقامك أكمل، والله المستعان)(١).

والقول الثالث - وهو الاستشهاد بالشعر وإنشاده في الخطبة دون إكثار ولا مبالغة - وسط بين القولين، وإنّما قلنا ذلك لأن ذكر الشعر في الخطبة

(١) تصحيح الدعاء ص٩٩ [نقلاً عن موقع الإسلام سؤال وجواب ٥/ ١٩٧٧].

عند الحاجة وبقدرها وحيث ينفع لم يَرِدْ ما يمنع منه، والله الموفِّق.

ونستطيع أن نوجز أحكام الشعر بالآتي:

١- مباح: وهو ما خلا من محرَّم أو مكروه.

٢- مكروه: وهو الذي يَشغَل عن الفروض الدينية.

٣- مندوب: وهو الذي يدافع عن الدين والفضائل والأخلاق.

٤- مُحرَّم: ما اشتمل على معنًى محرّم أو أدى إلى محرّم.

المبحث الرابع

تقسيم الخطبة

وفيه ثلاثة مطالب: المقدمة - الموضوع - الخاتمة.

المطلب الأوّل: المقدّمة:

مقدّمة الخطبة هي مفتاح بابها، وأوّلُ ما يقرع أسماع حاضريها وطُلّابها، والقاعدة التي يُؤَسَّس عليها بناء الخطبة، وبديعُ مطلعها وزينتُها المُرغِّبة، ورسولُ لسان الخطيب إلى قلوب المخاطَبين، وصلة الوصل بين نفسه المرهفة ونفوسهم المستقبِلة، وينبغي أن تكون شائقة جذّابة، ولافتة لَهّابة، تشدّ إليها العقولَ والقلوب، وتَستصغِي لها الأسماعَ والطِّباع، ولا سيَّما أن المخاطَبين يكونون في أَوْج قوّتهم وعنفوان نشاطهم وقتَ المقدّمة، فكلّما كانت مناسبة ومؤثِّرة استحوذت على انتباههم وتركيزهم. وتقوم المقدّمة على ثلاثة عناصر، وهي: حسن الافتتاح، وبراعة الاستهلال، وبيان المقصد.

أوّلًا: حسن الافتتاح:

أي الافتتاح بما يدل على المقصود، ولمّا كان الافتتاح أول ما يقرع أذن السامع، فينشرح له صدره وتهتزّ له نفسه ويبهج له فؤاده ويشعر له بأريحية؛ فيتشوق لما يأتي بعده، وينساق إلى الإصغاء إليه طواعية واختيارًا؛ كان في غاية من الأهمّيّة في بناء الخطبة.

ومن حسن الافتتاح أن يبدأ الخطيب خطبته بحمد الله والثناء عليه، ثم بالشهادتين. وما زال خطباء السلف الطيّب، وأهل البيان من التابعين

بإحسان يسمّون الخطبة التي لم تُبْتَدَأ بالتحميد وتُستفتح بالتمجيد: «البتراء»، ويسمّون التي لم توشّح بالقرآن، وتزيّن بالصلاة على النبي ﷺ: «الشَّوْهاء»، ويدلّ لهذا ما ثبت من حديث أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلّ كلامٍ أو أمرٍ ذي بالٍ لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبترُ، أو قال: أَقْطَعُ**»(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**كُلُّ كلام لا يُبدَأُ فيه بالحَمْدُ للهِ فهو أَجْذَمُ**»(٢)، وعند ابن ماجه «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بالٍ لَا يُبْدَأُ فيه بالحَمْدِ، أَقْطَعُ**» أي قليل البركة. ومثله عند النسائي وابن حبّان.

وعنه عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «**كُلُّ خُطْبَةٍ ليس فيها تَشَهُّدٌ فهي كاليَدِ الجَذْمَاء**» أي: المقطوعة أو التي أصابها جذام(٣).

وقد كان النبي ﷺ يفتتح خطبه بالحمد: «**إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧١٢) واللفظ له، وأبو داود (٤٨٤٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٣٢٨)، وابن ماجه (١٨٩٤)، وصحّحه أحمد شاكر.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه [انظر ما سبق]، وغيرهم، وحسّنه النووي في رياض الصالحين والأذكار، وابن الصلاح كما نقله العيني في عمدة القاري ١/ ٢٨، وذكره السندي في حاشيته على ابن ماجه ٥٨٥.

(٣) أخرجه أحمد (٨٥١٨)، وأبو داود (٤٨٤١)، والترمذي (١١٠٦)، وقال: حسن غريب. وصحّحه الألباني.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب ٧٠- ٧١].

أما بعد، فإن أصدقَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمّد، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار»[(١)].

والصحيح أن الخطب كلَّها تُبْدَأ بالحمد: خطبة الجمعة والعيد والاستسقاء والكسوف ونحوها. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لم يَنْقُلْ أحدٌ عن النبيِّ ﷺ أنّه افْتَتَحَ خُطبتَهُ بغيرِ الحمدِ، لا خُطبةَ عِيدٍ ولا استسقاءٍ ولا غيرِ ذلك)[(٢)]، وقال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيّن هدي النبي ﷺ في خُطَبه: (وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله. وأما قول كثير من الفقهاء: إنه يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار، وخطبة العيدين بالتكبير، فليس معهم فيه سنّة عن النبي ﷺ البتّةَ، وسنّته تقتضي خلافه، وهو افتتاح جميع الخطب بالحمد لله)[(٣)].

هذا، وينبغي أن تكون المقدّمة - إضافة إلى ما سبق - مختصرةً وقصيرةً؛ لأنها وسيلة في الخطبة للوصول إلى المقصود وليست مقصودة

(١) وخطبة الحاجة هذه مجموعة من روايات أخرجها مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبّان والبيهقي وغيرهم من حديث جابر وابن مسعود والعِرْباض وغيرهم.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٩٤.
(٣) زاد المعاد ١/ ١٧٩.

بذاتها. وأن يُنتقَى لها أجمل الألفاظ وأفصحها وأروعها. وأن تكون موافقة لموضوع الخطبة، وهذا مما يزيدها روعة وقوّة وبهاء.

استعمال (أمّا بعد) في الخطبة:

«أمّا بَعْدُ» هذه كلمة يؤتى بها عند الدخول في الموضوع الذي يقصد، وليست للانتقال من أسلوب لآخر كما قال بعضهم؛ لأنه ينتقل العلماء والكُتّاب دائمًا من أسلوب إلى آخر، ولا يأتون بأمّا بعد. فيكون قوله: أمّا بعد فصلًا بين التحميد الذي صدر به، وبين الأمر الذي قصده وحاوله. والتقدير: مهما يكن من شيء بعد ذلك فهو كذا وكذا. وهو مبنيّ على الضم؛ لأنه من الظروف المقطوعة عن الإضافة.

وكثيرًا ما تأتي عقب الحمد لله، وتسمّى حينئذ فَصْل الخطاب، كأنها فصلت بين الكلام الأول والثاني.

وتأتي عقب البسملة، وتأتي ابتداء كأنها عقب الفكر والرّويّة. قال سيبويه: ومعناها مهما يكن من شيء بعد.

وقال أبو العباس: معنى أمّا بعدُ: أمّا بعدَ ما مَضَى مِنَ الكلام، فهو كذا وكذا. وقيل: تقديرُ الكلامِ: أمّا بعدَ حَمْدِ اللهِ فكذا وكذا.

وقد اختُلف في أوّل من قال (أما بعد)، فقيل داود عليه السلام، وبه فسّر فصل الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] على أحد الأقوال. وقيل: أول من قالها كعب بن لؤيّ جدّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمعهم يوم الجمعة ويخطبهم، وكان من قوله: أما بعد: فعظّموا حَرَمكم وزيّنوه وكرّموه؛ فإنه يخرج منه نبيٌّ كريم. وقيل: أول من قالها قُسُّ بن ساعدة

الإيادي كان يجمع بنيه ويقول لهم: أما بعد، فإنّ المِعَى تكفيه البَقْلةُ، وتُرويه المَذْقةُ... إلى آخر كلامه[1].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (واخْتُلِفَ في أول من قالها، فقيل: داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، رواه الطبراني مرفوعًا من حديث أبي موسى الأشعري، وفي إسناده ضعف، وروى عبد بن حُميد والطبراني عن الشعبي موقوفًا أنها فَصْل الخِطاب الذي أُعطيه داود، وأخرجه سعيد بن منصور من طريق الشعبي فزاد فيه عن زياد بن سُمَيَّةَ. وقيل: أول من قالها يعقوب، رواه الدارقطني بسند واهٍ في غرائب مالك. وقيل: أول من قالها يَعْرُبُ بْنُ قَحْطانَ. وقيل: كَعْبُ بْنُ لُؤَيٍّ، أخرجه القاضي أبو أحمد الغَسّانيُّ من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن بسند ضعيف. وقيل: سَحْبَانُ بْنُ وائل. وقيل: قُسُّ بْنُ ساعِدةَ. والأول أشبه. ويجمع بينه وبين غيره بأنه بالنسبة إلى الأَوَّليّة المَحْضة، والبَقِيَّةُ بالنسبة إلى العرب خاصّة، ثم يجمع بينها بالنسبة إلى القبائل)[2].

ثانيًا: براعة الاستهلال:

وبراعة الاستهلال: تعني أن يكون ابتداء الكلام مناسبًا للمقصود، وهي تقع في ديباجات الكتب كثيرًا. وقد سمّى ابن المعتزّ براعة الاستهلال حُسنَ الابتداء، وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع.

ومعناها عند أهل البلاغة أن يذكر المُؤلِّف في طالعة كتابه ما يُشْعِر بمقصوده، ويُسمّى بالإلماع[3]. وأهمّ ما ينبغي أن يكون في براعة الاستهلال:

---

(١) خزانة الأدب ١٠/ ٣٩٥-٣٩٦، صبح الأعشى ٦/ ٢٢٢، لسان العرب ١/ ٣٦١.

(٢) فتح الباري ٢/ ٤٠٤.

(٣) التعريفات ٤٥ للجرجاني، البديع ١٧٦ لابن المعتز، خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٩ لابن حجة الحموي، الكليات للكفوي ٢٤٤.

١- أن تكون مناسِبة لمقصود الحديث وغايته؛ فتكون كالجسر الواصل بين مقدّمة الخطبة وموضوعها.

٢- أن يتخلّلها التشويق لِمَا يأتي بعدها، بطريق الاستفهام وطرح الأسئلة، أو ذكر إحصاءات ذات صلة بالموضوع، أو ذكر مَثَلٍ أو حكمة مناسبة، أو قصة قصيرة جدًّا مؤثّرة، ومنها: الغموض الذي يحتاج إلى إيضاح، والإجمال الذي يعقبه تفصيل، والسؤال الذي يشدّ الانتباه ويَلفت الأنظار ويحفّز السامعين على انتظار الجواب. وعلى هذا يُستحسَنُ كثيرًا أن يُغْرِب الخطيب في توطئة خطبته ولا يصرِّح بعنوانها؛ ليشدّ انتباه الحاضرين ويعلّق قلوبهم ويشوِّق نفوسهم للموضوع الذي سيتناول عرضه؛ كقول الخطيب: (خطره عظيم، وضرره جسيم، وشرّه عميم، يهدّم البنيان، ويصدّع الأركان، فكم هدّم من بيوت، وفرّق من أُسر، وقطّع من أرحام، وجَلَب من آثام، وضيّع من أفراد، وقلع من أوتاد... إنه الطلاق يا عباد الله).

(أيها المسلمون: تركةُ الأنبياء والمرسلين، وحياة قلوب المؤمنين، وسهم العاملين الرابحين، تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، الأنيس في الوحشة، والصاحب في الخلوة، به يطاع الله ويعبد، ويذكر سبحانه ويمجّد، وبه توصل الأرحام، ويُعرف الحلال والحرام، وتُعْلَم الشرائع والأحكام، يُلْهَمُه السعداء، ويُحْرَمه الأشقياء، وهو إمام والعمل مأموم، وهو قائد والعمل مَقُود، إنه العلم يا عباد الله، العلم الذي يرفع الله به أهله في الدنيا ويوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة ١١].

ثالثًا: بيان المقصد:

وبعد أن يفتتحَ خطبته بالافتتاح المناسب ويجيد الاستهلال يعمِد إلى بيان مقصده ويشرع في التمهيد لجوهر موضوعه بعبارات قوية البناء واضحة المعاني شائقة ومثيرة، فبيان المقصد هو التخلُّص من المقدّمة إلى الغرض.

والحقيقة أن بعضهم قسم مقدمة الخطبة إلى ثلاثة أقسام: فجعل القسم الأوّل منها: الافتتاح وبراعة الاستهلال، ثم الثاني: بيان المقصد، ثم الثالث: تقسيم الخطاب، فيذْكر في هذا الأخير عناصر الخطبة ويعدّدها للجمهور، فيقول: حديثي إليكم اليوم عن كذا وكذا (يذكر عنوان الخطبة) تحت العناصر التالية ويعدّدها: الأول كذا والعنصر الثاني كذا والثالث كذا، وهكذا.

ولكنّي عَدَلتُ عن هذا فجعلت الافتتاح عنصرًا منفردًا، ثم براعة الاستهلال، ثم بيان المقصد؛ لأن الافتتاح هو الركن الأصلي في كل خطبة ولا تصحّ عند فقهاء كثيرين بدونها، ولأن براعة الاستهلال تشويق للموضوع، كما أن بيان المقصد إيذان بالشروع في الخطبة وتوطئة لها، فهو صورة إجمالية عنها.

وأما النصّ على موضوع الخطبة مع ذكر عناصرها فممّا لم أقف عليه من خطب النبي ﷺ ولا خلفائه الراشدين... بل ذِكْرها بهذا الشكل يُذهب روعتها ويطفئ جذوة الشوق للموضوع ولهفة الانتظار له؛ لأنه - والحالة هذه - يكون الخطيب قد قضى على عنصر التشويق والترقّب.

والخطيب النّبيه هو ذاك الذي يعلّق قلوب المستمعين بموضوعه ويشدّ انتباههم إليه من خلال طريقة العرض والتسلسل، ولا يحتاج إلى ذكر عنوان الخطبة وسرد عناصرها على المنبر. ولكلّ مجتهد نصيب.

المطلب الثاني: الموضوع: ويسمَّى الإثبات، والعَرْض، وجوهر الموضوع.

وهو أُسُّ الخطبة وقُطْب رَحَاها، وبيت قصيدها وفَحْواها، وهو جسمها ومادّة فكرتها، ومحورها ومعدن روعتها؛ إذْ إنه لبّها ومقصودها، وركنها الركين وعمودها، ومن أجله صِيغت المقدّمة بافتتاحها وروعة استهلالها، وله زُيّنت الخاتمة لتضع اللَّبِنة الأخيرة في زخرفها وكمالها.

فالموضوع هو المشكلة التي يريد الخطيب حلّها، والقضية التي يبتغي تبيانها أو تفنيدها، والفكرة التي يتلمّس إيضاحها ودعوة الجمهور للاقتناع بها واعتناقها، والواجب الذي يروم التزامه، والمنكر الذي يدعو إلى اجتنابه. فأهمّيّته إذًا لا تخفى، وأثره لا يُغضَى، فهو كالجسم للأعضاء.

ولكي يكون الموضوع مستوعَبًا ومؤثِّرًا في نفوس السامعين، ويكون للخطيب فيه نجاح وقبول فلا بدّ من توافر عناصر وصفات تخوّله منزلة في القلوب وأثرًا في النفوس، وأهمّ هذه الصفات والعناصر:

الأوّل: وحدة الموضوع:

والمراد بوحدة الموضوع أن يكون عنوانًا واحدًا يخدم فكرة واحدة وتتفرع عنه عناصرُ مرتبطة به لا تَحيد عنه. وكلّما كان الموضوع موحَّدًا كان أحضرَ لقلب السامع وأجمعَ لعقله وذهنه، وسيخرج من الخطبة وقد استفاد من موضوعها في حياته وألمّ بأطرافه وكوّن فكرة عامّة عن ماهيّته.

ومن خالف فخطب بموضوعات شتّى لا رابط بينها: كَثُر عَوَاره وتشتّت أفكاره، وسيشرّق ويغرّب ويَخْبط من هاهنا وهاهنا دونما كثيرِ فائدة، ولا كبيرِ عائدة، ولم يُوفِ خطبته حقّها من التركيز والأدلة الكافية والمعالجة الناجعة، وسيؤدي إلى الإطالة المُملّة والاستطرادات المُخلّة وتشتيت

أذهان السامعين. ولا جَرَمَ أن هذا سينسحب على السامع المتلقِّي فلن يخرج بحصيلة وافية، ولا معلومة ناضجة كافية، وسينفضّ الجَمْعُ عن خطبة لم يُجْمَعْ شتاتها ولا أينعت ثمراتها.

وأنّى لك أن تتوقّع نجاحًا لخطبة أو قَبولًا لخطيب يتحدّث في خطبة واحدة عن الربا والزنى والخمر والغشّ وأكل الحرام وقول الزور... يريد أن يخطب عن الإسلام كلّه في خطبة واحدة! هيهات هيهات! إنها خطبة شوهاءُ لا رأس لها ولا جسد؛ فإن المُنْبَتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

وإنما يفعل ذلك من الخطباء مَنْ لا خَلاق له في فهم الخطبة ومراميها، ولا في إدراك واقع الحياة ومعانيها، ومن لا يكترث كثيرًا بعقول السامعين، ولا يقدّر أوقات الحاضرين، ومن لا يُعنى بحسن الإعداد والتحضير، أو ليس أهلًا للخطابة أصلًا؛ فإن المتطفّلين كُثُر، ومن تكلّم في غير فنّه أتى بالعجائب، ولا يُستغرَب الشيء من مَعْدِنه.

الثاني: تسلسل العناصر وترتيب الأفكار: وقد يقال له التعريف والإيضاح إذا ترافق مع ذكر صفات الموضوع وخصائصه ونحو ذلك.

وهذه العناصر والأفكار هي جسم الخطبة ودعائمها التي تتكوّن منها، وهي من الأهمّيّة بمكان بحيث لا غَنَاء عنها البتّة، ولا تستقيم الخطبة إلّا إذا قُسّم الموضوع إلى أفكار رئيسة وعناصر أساسية تقوم عليها مادّة الخطبة، ولا بدّ أن تكون تلك العناصر متسلسلة والأفكار مترابطة تتعلق بما قبلها وتتصل بما بعدها، وتكون كلَبِنات البناء بعضها إلى جنب بعض؛ ليتلقّاها السامع بلا مشقّة ولا عناء، ولا مزيدِ جهد في ربطها ببعضها وضمّ أجزائها إلى بعضها. وهذا التسلسل والترابط يسهِّلان على الخطيب مهمّته وإبلاغ دعوته، ويُيسّران على السامع فهم مراد الخطيب واستيعاب خطبته.

ويعين الخطيب على ترتيب أفكار خطبته وعناصرها: سعة اطّلاعه وجودة ثقافته وكثرة ممارسته وخبرته وإلمامه بالموضوع، مع تنوّع موارد خطبته وقوّة مصادره العلميّة والمعرفيّة.

فلو أراد أن يخطب عن الظلم مثلًا جعل أفكاره: الظلم مذموم كلّه - دوافع الظلم الذاتية - دوافعه الخارجية - الظلم عاقبته وخيمة.

وجعل عناصره كالتالي: ١- بيان معنى الظلم وذكر حكمه شرعًا. ٢- أنواع الظلم. ٣-أسباب الظلم. ٤- آثار الظلم في الفرد والمجتمع. ٥- عاقبة الظلم والظالمين.

الثالث: تحديد الأدلّة وجمعها: وهو ما يعرف بالاستدلال.

وتحديد الأدلة وجمعها يأتي في المرتبة الثالثة بعد تحديد الموضوع وإعداده وتعيين العناصر والأفكار الرئيسة لخطبته، والأدلة هي دِعامةُ الخطبة وقِدْحُ زِنادها، ومقصود الخطيب إيقاظ الأذهان، وحملها على التسليم والإذعان، وجذب القلوب واستمالة النفوس، ولا يتمّ له ذلك إلا بالأدلّة الشرعية والعقلية، فلا تأثير لخطبة ما لم يكن وراءها أدلة تدعم قضيّة الخطيب وتوطّد حجّته وتبيّن وجهته، وتعطي لكل فكرة وعنصر من عناصر الخطبة وُجودَه بقوّة وتأثير. والأدلّة التي يذكرها إمّا لتوضيح فكرته والدفاع عن قضيّته، وإمّا لتفنيد حجج الخصم ونقض دعواه وانتصار الخطيب لدعوته، وكلاهما يعتمد أوّلًا على قوّة الإقناع العقلي بالبراهين الدامغة والحجج البالغة، وثانيًا على التأثير الوجداني والاستمالة العاطفية اللذين يشحذ بهما الهمم ويثير بهما النفوس.

وعلى هذا كان لزامًا على الخطيب أن يُعنى بإحضار الأدلّة من مصادرها

الأصيلة، وأن يهتمّ بصحتها ودقّتها وكونها تدلّ على المطلوب. وأهمّ مصادر الأدلّة: القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وفقه السيرة، وكتب الفقه والأصول، وكتب التاريخ والتراجم والأعلام، والأمثال والقصص والشعر والحِكَم، وكتب الثقافة العامة ونحوها ممّا يساعده على أداء رسالته وإبلاغ دعوته ونصاعة حجته وروعة أسلوبه وطريقته.

وإذا كان الخطيب ذا تأصيل علميّ قويّ، وثقافة ثَرَّة متنوّعة وواسعة، وصاحبَ معرفة بالواقع الذي يعيشه وبالناس الذين يعايشهم ويعيش معهم، وإلمامٍ بالموضوع الذي يخوض فيه: كان أقدر على حشد الأدلة المناسبة، وعلى الأخذ بنواصي السامعين بالإقناع والتأثير ودحض دعاوي الخصم وتفنيد شبهاته.

وقد ذكرت آنفًا - في مصادر الخطابة - جملة من المصادر والمراجع التي ينبغي للخطيب أن يرجع إليها في تكوين خطبته في كلّ علم وفنّ، فانظرها هناك والله يتولّاك.

الرابع: التقسيم والانسياب:

ويحسن بالخطيب أن يقسّم موضوعه إلى أجزاء متناسقة، ثمّ يرتّب فقراته بحيث يكون متماسك الأجزاء مترابط العناصر، ويسلِّم بعضها لبعض وينتقل من فقرة إلى أخرى بسلاسة، فيذكر مفهوم ما اختاره من موضوع، ثم يذكر الأسباب إن وُجدت، ثم الآثار والنتائج.

الخامس: مواكبة الأحداث:

ومما ينبغي مراعاته في الموضوع أيضًا: أن يكون في واقع الحياة ومع الأحداث التي تمرّ بالناس ويعيشونها في كل يوم من حياتهم؛ ليُؤتي

الموضوع ثماره من التأثير والإقناع والتغيير، وليس من الحُنْكة ولا الحكمة أن يجنح الخطيب إلى موضوعات بعيدة كلّ البعد عن واقع الناس واهتماماتهم، ويترك ما يستحوذ على اهتمامهم ويحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم. وقد تحدّثت عنه تفصيلًا لدى الحديث عن اختيار الموضوع.

المطلب الثالث: الخاتمة:

خاتمة الخطبة بمنزلة افتتاحها في الأهمّيّة، فكما أن افتتاحها مهمّ لاسترعاء انتباه السامعين وجذبهم لها فكذلك خاتمتها؛ لأنها نهاية الخطبة وخلاصتها، وخاتمة أثرها وثمرتها، وهما لموضوع الخطبة كالجناحين للطائر؛ إذْ إن المقدّمة تسهّل الدخول إلى قلوب السامعين لأنها أول ما يسمعون منه، والخاتمة تترك أثرها في نفوسهم لأنها آخر ما يطرق أسماعهم، فيكون ختامها مسكًا؛ أعذبَ لفظًا وأحسنَ سَبْكًا.

فإذا أحسن الخطيب إعدادهما وأتقن عرضهما بلغ بهما مراده في البَدْء والختام، فيجمل بالخطيب أن يراعي حسن الانتهاء كما يراعي حسن الابتداء. وقد تكون الخاتمة آية قرآنية، أو حديثًا نبويًّا، أو كلامًا لصحابي أو عالم أو حكيم، أو قصّة ذات صلة...

هذا وينبغي للخطيب أن يراعي في خاتمة خطبته الأمور التالية:

١- أن تكون قصيرة موجزة، لا ترديدًا للموضوع، ولا استطرادًا، ولا نَأْيًا عنه.

٢- أن يبيّن فيها مراده من الخطبة وغايته منها ونتيجتها بطريق الإشارة لا المباشرة.

٣- أن تكون لصيقة الصلة بموضوع الخطبة وعناصره وأدلّته لتكون نتيجة وثمرة لها.

٤- أن تكون مشبوبة العاطفة؛ لتثير عواطف جمهور السامعين وتحرّك مشاعرهم وأحاسيسهم نحو ما يبغي، فإن كان يريد حملهم على التصدّق والإنفاق أخرج أقوى ما يثيرهم ويحملهم على ذلك من العبارات والإشارات، وإن كان يريد إثارة حماسهم لأمر مهمّ ألهب عواطفهم بأقوى ما يملك، أو يريد إثارة عاطفة الرحمة تجاه الفقراء واليتامى والمساكين ألقى أبلغ ما يثير الرحمة من مكامنها ويبعث الرأفة من محاجرها. وهكذا.

٥- وإن كان الموضوع متعلّقًا بالإقناع أتى بالأدلة المنطقية التي تحمل العقل على التسليم والإذعان، لكنْ بأسلوب جذّاب وموجز، ويحسن أن يكون مَشُوبًا بشيء من حرارة العاطفة ووهج الضمير حيث ينفع ذكره وإيراده.

٦- التركيز على أسلوب الجزم والتأكيد الذي يدفع نحو العمل والتضحية، ويفتح باب الثقة والرجاء تجاه التأثير والتغيير.

٧- استعمال الألفاظ المناسبة والعبارات الملائمة التي تتّسم بالقوّة والوضوح وتبقى عالقة في أذهان الجمهور.

٨- الأداء القويّ المُفْعم بحرارة العاطفة وصدق اللهجة ونبل الغاية، المُتْرَع بالثقة وحسن الرجاء، كلّ هذا من أجل استمالة العاطفة والوجدان، وشحذ الهمم والأذهان؛ صَوبَ الخطبة مقدّمة وموضوعًا وخاتمة. قال الخطيب القزويني وهو يذكر المواضع الثلاثة التي ينبغي للمتكلم أن يتأنّق فيها: (الثالث: الانتهاء؛ لأنه آخر ما يَعيه السمع ويرتسم في النفس، فإن كان مختارًا كما وصفنا جبر ما عساه وقع فيما قبله من

التقصير، وإن كان غير مختار كان بخلاف ذلك وربما أنسى محاسن ما قبله)[1].

فيحسُن بالمقدّمة التشويقُ والإثارة، وبالعرض تنوّعُ الأسلوب ووضوحُ العبارة، وبالخاتمة التلخيصُ وحُسْنُ الإشارة.

وعلى هذا إذا أحسن الخطيب الخاتمة كما أحسن المقدّمة والموضوع: نجح في أداء خطبته، وأفلح في إبلاغ دعوته، وأثّر في السامعين وأقام عليهم بالغ حُجّته.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ١/ ٣٩٤.

الفصل الثاني

الإنشاء الخطابي (التعبير)

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: الألفاظ.

المبحث الثاني: الأسلوب.

المبحث الثالث: المقاطع.

الفصل الثاني

الإنشاء الخطابي (التعبير)

بعد أن يضع الخطيب أصول خطبته ويكوّنها تكوينًا قويًّا متماسكًا، ثمّ ينسّقها تنسيقًا متينًا مترابطًا؛ ينتقل إلى مرحلة التعبير التي لا تقلّ أهمّيّة عمّا سبق؛ فالتعبير أحد أركان الخطبة الثلاثة، وهي: الإيجاد أو الاختراع، والتنسيق، والتعبير. وتلك هي الأركان التي تقوم عليها الخطبة، والعناصر التي تجتمع في تكوينها.

فالتعبير عن المعنى يحتاج إلى لفظ يزيّنه وكلمات تبرزه وتحسّنه؛ فإن المعاني قَلْبُ الألفاظ ودِثَارُها، والألفاظ قالبُ المعاني وشِعارُها، والمعاني جواهر ودُرر، والألفاظ سبائك وغُرَر، والمعاني روح والألفاظ جسم، وهو - التعبير - بجناحيه المعنويّ واللفظيّ مهمّ للخطيب لأداء رسالته الخطابية على ما يرام، فما أحسن أن يجمع بين المعنى الرائق واللفظ الفائق.

وقد قيل: العلوم الأدبية مطالعها من ثلاثة أوجه: قلبٌ مُفكِّر، وبيانٌ مُصوِّر، ولسانٌ مُعبِّر. ويسمَّى الأول: الإيجاد أو الاختراع، والثاني: التنسيق، والثالث: التعبير[1].

فما الإنشاء الخَطَابيّ؟

من المعلوم أن الكلام إمّا خبر وإمّا إنشاء، والخبر هو: ما يحتمل الصدق والكذب لذاته؛ أيْ بقطع النظر عن خصوص المُخْبِر وخصوص الخَبَر؛ أي

(١) الخطابة - جامعة المدينة العالمية ص٥٠، أدب الدنيا والدين ص٥٢.

في النظر إلى الكلام نفسه لا إلى قائله. والمراد بصدق الخبر: مطابقته للواقع؛ نحو: (العلم نور - الجهل ظلام - الصدق فضيلة).

والإنشاء لغةً: الشروع والإيجاد والوضع، تقول: أنشأ الغلام يمشي، إذا شَرَع في المشي، وأنشأ اللهُ العالَمَ، أوجدهم، وأنشأ فلانٌ الحديثَ، وضعه.

واصطلاحًا: له معنيان: الأول عند علماء البلاغة: وهو الكلام الذي ليس لنسبته خارج، تطابقه هذه النسبة أو لا تطابقه؛ أي الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب لذاته؛ مثل: (أقمِ الصلاة).

والمعنى الثاني: علم يعرف به كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها بلفظ لائق بالمقام[1].

وعلى هذا فالإنشاء الخَطَابيّ: علمٌ يعرف به كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها بلفظ لائق بالمقام، أي بما يناسب حال الخطبة وظرفها من المعاني والألفاظ، حماسةً أو رثاءً أو قضاءً أو اجتماعيًّا أو سياسيًّا.

وموادّ الإنشاء ثلاث: الألفاظ الفصيحة الصريحة، والمعاني، وإيراد المعاني بطرق مختلفة.

وقبل الشروع فيها تنبغي الإشارة إلى **الفروق بين الأسلوب الخطابيّ والأسلوب الكتابيّ**، وذلك لكثرة الخلط بينهما لدى كثير من الخطباء، فلا بدّ من التمييز بين الأسلوبين من جهة، وبين الأسلوب الخطابي وأسلوب المحاضرة أو الدرس أو الخاطرة... من جهة أخرى. كما ينبغي تعريف الأسلوب لغة واصطلاحًا ليتبيّن أمرُه ويُعْرَف سَبْرُه.

(١) جواهر الأدب ١٥، المعجم الوسيط ٢/ ٩٢٠.

الأُسْلوبُ في اللغة: الطَّرِيقُ، والوجهُ، والمَذْهَبُ، والفَنُّ، قال صاحب اللسان: (ويُقَال للسَّطْرِ مِن النَّخِيلِ: أُسْلوبٌ. وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ فهو أُسلوبٌ. قال: والأُسْلوبُ الطَّرِيقُ، والوجهُ، والمَذْهَبُ؛ يُقَالُ: أنتم في أُسْلُوبِ سُوءٍ، ويُجْمَعُ أَساليِبَ. والأُسْلُوبُ: الطريقُ تأخذ فيه. والأُسْلوبُ، بِالضَّمِّ: الفَنُّ؛ يُقَالُ: أَخَذ فلانٌ في أَساليِبَ مِنَ الْقَوْلِ أي أَفانِينَ مِنْهُ)[1].

فإطلاق الأسلوب على السطر من النخيل والطريق الممتدّ هذا حِسِّيّ، وعلى الفنّ والوجه والمذهب هذا معنويّ.

ويمكن أن نعرِّف الأسلوب في الاصطلاح بأنه: طريقة في التفكير والتعبير والتصوير يتّخذها المرء وسيلة للإقناع والاستمالة والتأثير.

الفرق بين الأسلوب الخطابي والأسلوب الكتابي ونحوه:

تُعَدُّ الخطبة واحدة من فنون الإنشاء السبعة وهي: المكاتبات (المراسلات)، والمناظرات، والأمثال، والأوصاف، والمَقَامات، والرِّوايات، والتَّاريخ (أيْ: تاريخ أدب اللغة العربية).

وأوجه التشابه بينها متوافرة، وخاصّة بين الخَطابة والكتابة:

أ- من حيث كونهما كلامًا لا تقفية فيه ولا وزن، فهما من المنثور لا المنظوم.

ب- ومن حيث الألفاظ والفواصل، فالخطبة تتّسم بعذوبة الألفاظ وسهولتها وتوزُّع فواصلها، ومثلُها الكتابة، بيد أن الكتابة تُكْتَب فواصلها والخطبة يُشَافَهُ بها من خلال تعابير الوجه والجسد.

(١) لسان العرب: ١/ ٤٧٣.

ت- ومن حيث سهولة جَعْل الخطبة رسالة وجعل الرسالة خطبة، فالخطبة والرسالة تتشاكلان من هذه الأوجه. قال أبو هلال العسكريّ: (واعلم أنّ الرسائل والخطب مُتشَاكِلَتَان في أنّهما كلامٌ لا يلحقه وَزْنٌ ولا تَقْفِيَة، وقد يتشاكلان أيضًا من جهة الألفاظ والفواصل؛ فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتّاب في السهولة والعذوبة؛ وكذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل؛ ولا فرق بينهما إلّا أنّ الخطبة يُشافَهُ بها، والرسالة يُكتب بها؛ والرسالة تُجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة؛ في أيسر كلفة)(١).

ومع غلبة الأسلوب الخطابيّ على الخطابة، وغلبة الأسلوب الكتابيّ على الكتابة؛ فقد تستعير الكتابة من الخطابة أسلوبها، وقد تستعير الخطابة من الكتابة أسلوبها؛ كما إذا خاطب زعيمٌ أمّته عن طريق الصحف لتعذّر المشافهة، وكما يفعله بعض المحامين في مرافعاتهم.

ولا يعني هذا اتّفاقهما من كلّ وجه، بل **ثَمَّة فروق بينهما** يحسن الوقوف عليها ومراعاتها، وأهمّها:

١- **من حيث الألفاظ والعبارات**: تتميز كلمات الخطيب عن كلمات الكاتب أو المراسل بأمرين:

أ- أن كلمات الخطيب تمرّ على لسانه قبل أن يُلْقِيَها، وذلك أثناء الإعداد والتحضير لها والتمرّن عليها.

ب- أن لها أثرًا في أذن السامع ووقعًا في نفسه، فإن السامع للخطيب يسمع ويرى ويلاحظ حركة الفم واللسان والجسم فيعينه هذا على

---

(١) الصناعتين ١٣٦.

تذوّق كلماته وفهمها، في حين أن القارئ للكاتب ينظر إلى استقامة الأسلوب ويفهم المعنى فقط وتغيب عنه كل تلك الرُّؤَى التي يجدها لدى الخطيب.

وفي الأسلوب الكتابي يستطيع الكاتب أن يبيّن بعلامات الترقيم كلّ جملة أو عبارة أو فقرة أو موقف، بينما نجد الخطيب يستعيض عن ذلك بنبرة صوته، وتغيير الأسلوب ولهجة الخطاب، وتوكيد مواضع الفصل والوصل بحركات جسمه وانفعالات نفسه.

٢- **من حيث الإقناع والتأثير**: فالأسلوب الخطابيّ يعتمد على إثارة الشعور وإيقاظ الوجدان وعلى الإقناع العقلي حيث لزم، فهو يجمع بين تقرير الحقائق وإثارة العواطف، فيستخدم الفكر والوجدان وينفُذ منهما إلى الإرادة فيحمل المخاطب على العمل والتنفيذ طوعًا، وهذه أعظم خصائصه ومزاياه، فإنْ فقدها لم يبق للخطبة أثر. بينما لا يشترط ذلك في الكتابة؛ إذ الكتابة تعتمد على الإقناع العقلي - في مجاله - وقد تخلو من إثارة الشعور والوجدان، فهي ألصق بالمنطق منها بالوجدان، وإن كانتا - الخطبة والكتابة - لا تخلوان من الإقناع العقليّ والتأثير الوجدانيّ، لكنّ القضيّة أغلبيّةٌ ليس إلّا.

٣- **من حيث التفنّن والتكرار**: التكرار في العبارات والتفنّن في الإشارات والتنوّع في أساليب التعبير من أمرٍ واستفهام وتعجّب وتهكّم وإنكار ونفي وتقرير: من وسائل التأثير في الأسلوب الخطابيّ، والتكرار المعنوي هذا: استثناءٌ في الخطابة لتثبيت الأفكار في الأذهان، ولتمكين السامعين من الفهم، ومن أجل القوة والتأثير، ولكن لا بدّ من تغيير العبارات

والتفنّن بها لئلّا يؤدي إلى السآمة والإعراض، ومن أعظم فوائد التكرار أنّ من فاته فهم معنًى أو خفيت عليه جملة فهمها من أختها المُكرَّرة.

وأمّا الأسلوب الكتابيّ فيكون التكرار والإطناب بقصد التحليل والتفصيل والاستقراء، وإن كان لا يعدم شيئًا مما في الأسلوب الخطابيّ.

٤- **من حيث تعابير الجسم والانفعالات**: فالأسلوب الخطابي أوفر حظًّا وأعمق أثرًا وأكثر قبولًا في نفوس جمهور السامعين وأقرب إلى وجدانهم؛ إذْ إن الخطيب يستخدم جميع مواهبه ومواهب سامعيه، فيشير بيديه، ويحرّك رأسه، ويقطّب حاجبيه، ويعبّر بحركة عينيه، ويشكّل أسارير وجهه، وتُرى عليه آثار الغضب والرضا، والحزن والفرح، وهذا يعينه على الوصول إلى قلوبهم ومشاعرهم، وإدراك إقبالهم عليه أو إعراضهم عنه، وقبولهم له أو مللهم منه، فيكون معهم بحسب أحوالهم، فيُطنِب حيث يقتضي حالهم ذلك، ويُقْصِر حيث يقتضي الإقصار، ويتوسع حيث يجدي التوسع في العبارة، ويشير حيث تكفي الإشارة.

فالخطابة هي الفن العملي؛ لأنه يجمع بين شخصيتي الخطيب الحسّيّة والمعنويّة، وكلّ هذه - مع صوت الخطيب وحسن إلقائه - عناصر مهمّة في التأثير الخطابي، حتى إذا قُرئت الخطابة مكتوبةً فقدت هذا العنصر المرئيّ المؤثِّر؛ ولذا نرى الناس يتأثرون بالخطيب المرتجل أكثر بكثير من تأثّرهم بالخطيب الذي يقرأ خطبته من ورق.

وأمّا في الأسلوب الكتابيّ فليس أمام الكاتب إلّا الموضوع وعليه أن

يوفي بشروط الكتابة إيجازًا أو إطنابًا، دونما نظر إلى حال القارئين[1].

٥- **من حيث الأداء**: فالخطبة تعتمد على قوّة الحماس وإثارة العواطف والمشاعر، ومصدرها انفعال الخطيب وتفاعله مع مادّة خطبته من جهة، ومع جمهوره من جهة أخرى، مع صدقه وقوة عقيدته ويقينه بما يقول، إضافة إلى حسن اختياره الألفاظَ وطريقة أدائها.

وأما الكتابة فتقوم على تقرير الحقائق والقواعد وتثبيت المعاني والأحكام.

٦- ويتجلّى الفرق واضحًا بين أسلوب الخطابة وسائر فنون القول الأخرى من الدرس والمحاضرة، والحوار والمناظرة، والموعظة والخاطرة، مع اشتراكِها جميعًا بصفة المشافهة، ووحدةِ الغاية والهدف: وهي **إقناع جمهور الحاضرين والتأثير فيهم واستمالتهم لما يُراد منهم.**

ويبرز هذا في الخطب بالحماس الذي يثير المشاعر ويُلهب العواطف ويوقظ الوجدان، ويحمل السامعين على الانقياد والقبول والإذعان، وهو يختلف بداهةً عن أسلوب الدروس والمحاضرات والمناظرات، الذي يتّسم بالهدوء وضبط الانفعالات، وتقرير القواعد والحقائق والأصول والأحكام والإقناع العقليّ والمنطقيّ غالبًا، فلا يحتاج إلى الحماس الذي تستلزمه الخطبة.

وقد أدّى الخلط بين الأسلوب الخطابيّ وهذه الفنون إلى إذابته وضعفه وهشاشته، حيث سلبوه أخصّ خصائصه وأفقدوه أهمّ مزاياه وهو

(١) الخطابة لأبي زهرة ١٠٠-١٠٢ بتصرف كبير، الأسلوب، أحمد الشايب ١١٨.

الحماس المناسب والانفعال المنضبط، وهو الذي كان النبي ﷺ يسلكه في خطبه؛ كما روى مسلم عن جابرِ بْنِ عبدِ الله رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وعَلَا صَوْتُه، واشْتَدَّ غَضَبُه، حتّى كأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ.

المبحث الأوّل

الألفاظ

سبق أن ذكرت أن التعبير يتألّف من المعاني والألفاظ، وبيّنت أنّ المعاني قَلْبُ الألفاظ ودِثَارُها، والألفاظ قالِبُ المعاني وشِعارُها، وأنّ المعاني كالروح والألفاظ كالجسد لها، فلا قيمة للروح بلا جسد، ولا حياة للجسد بلا روح، وهي من الأهميّة بمكان، فلا غَناء للمعاني عن الألفاظ وجمالها، ولا استغناء للألفاظ عن المعاني وكمالها. ومن قال بغير ذلك فقد أبعد النُّجْعةَ وخرّق الرُّقْعَة.

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد رأيت جماعةً من الجهال إذا قيل لأحدهم: إن هذه اللفظة حسنة، وهذه قبيحة، أنكر ذلك، وقال: كلّ الألفاظ حسن، والواضع لم يضع إلّا حسنًا!

ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرّق بين لفظة الغصن ولفظة العُسْلوج؛ وهو الْغُصْن إذا يَبِس وذهبتْ طَرَاوَته، وبين لفظة المُدَامة ولفظة الإِسْفِنْطِ: الخمر، وبين لفظة السّيف ولفظة الخَنْشَلِيل، وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدَوْكَس، فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب، ولا يجاوب بجواب، بل يترك وشأنه، كما قيل: اتركوا الجاهل بجهله ولو ألقى الجعر[1] في رحله، وما مثاله في هذا المقام إلّا كمن يسوّي بين صورة زنجيّة سوداء مظلمة السواد، شوهاء الخلق، ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كِلْوَة، وشعر

(١) الجَعْر: ما يبس من العذرة في المجعر، أي: الدُّبر.

قَطَطٍ [شديد الجعودة] كأنه زبيبة، وبين صورة روميّة بيضاء مشربة بحمرة، ذات خدّ أسيل [طويل مسترسل]،وطرف كحيل، ومَبْسِم كأنما نظم من أقاحٍ، وطُرَّةٍ [ناصية] كأنها ليل على صباح.

فإذا كان بإنسان من سُقْمِ النظر أن يسوّي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوّي بين هذه الألفاظ وهذه، ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام، فإن هذا حاسّة وهذا حاسّة، وقياس حاسة على حاسة مناسب... ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار، وصوتًا منكرًا كصوت حمار، وأن لها في الفم أيضًا حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم)[1].

فينبغي لمن يشتغل بالخطابة أن يكوّن ثروة من المفردات اللغوية الفصيحة، فيستعمل كلّ مألوف ومأنوس من الألفاظ، ولا يقتصر استعمال الفصيح على المفردات الفصيحة فحسب، بل يستعمل المألوف والمأنوس أيضًا من التراكيب الفصيحة، فالفصاحة تكون في المفرد والمركَّب، والبلاغة تكون في المركّب وحده.

فلكي يكون خطابه فصيحًا يتحتّم عليه أن يبتعد عن التعقيد اللفظي وهو: خفاء دلالة الألفاظ على المعنى المراد، وعن التعقيد المعنوي وهو: خفاء الدلالة على المعنى المراد لاستعمال الألفاظ في غير معانيها الحقيقية، وأن يبتعد عن تنافر الكلمات مجتمعةً، وعن التي تثقل على السمع ويصعب النطق بها.

---

(١) المثل السائر ١/ ١٧٠-١٧١.

ولسنا هنا بصدد استقصاء ما ذكره علماء البلاغة في هذا الباب ولكنها توطئة للدخول إلى ما يهمّنا منها في الخطابة خاصّة. وأهمّ ما يلزم في ألفاظ الخطبة: الوضوح والقوّة والجمال.

وفيما يتعلّق بمفردات الخطبة وتراكيبها فينبغي أن تتصف بالصفات الآتية:

١- **أن تكون فصيحة**؛ أيْ بيّنة ظاهرة متبادرة إلى الفهم مأنوسة الاستعمال سهلة الإدراك، بعيدة عن التنافر والغرابة والوحشية ولا تمجّها الأسماع. سُئِلَ أعرابيٌّ عن ناقته، فقال: تَرَكْتُها تَرْعَى العُهْخُعَ[١].

وسَقَطَ عيسى بْنُ عمر - وهو شيخ سيبويه والخليل وابن العلاء - عن حمار له، فاجتَمع عليه الناسُ، فقال: ما لَكُمْ تَكَأْكَأْتُم عليَّ تَكَأْكُؤَكُم على ذِي جِنَّة؟ افْرَنْقِعُوا عَنِّي. أي: اجتمعتم، تَنَحَّوْا عنّي[٢]. فالمثال الأول لكلمة غير فصيحة بسبب تنافر حروفها وثقلها على السمع. والثانية مثال على غرابة الاستعمال. فلا يتعمّد الغريب الوحشي ولا الساقط السُّوقي.

٢- **أن تكون صريحة واضحة** بحيث يكون المعنى واضحًا سهل المأخذ خاليًا من اللَّبس والإشكال، فيختار المفردات البيّنة الدلالة على المقصود؛ كأن يستعمل (التِّبْر) بدلًا من الذهب، أو الوَرِق بدلًا من الفضّة، أو الهِزَبْر بدلًا من الأسد،... إلخ.

---

(١) شجرةٌ يُتَداوَى بها وبوَرَقِها - القاموس ٧٤٥.

(٢) الصحاح ١/ ٦٦، لسان العرب ١/ ١٣٦، المحاسن والأضداد للجاحظ ٣١.

ولا يأتي بكلام أهل التخصّص في الفنون الأخرى دون أن يبيّن معناه للمخاطَبين، وإلّا لبّس عليهم وعَمَّى عنهم المعاني.

ويتحاشى عن كثرة الجمل الاعتراضية، وعن الالتباس في استعمال الضمائر، مع السلامة من ضعف التأليف.

٣- **ألّا تكون الألفاظ مبتذلة أو رديئة** تنزل إلى مستوى العامّيّة، بل يتوسّط في انتقاء ألفاظ الخطبة بين الإغراب والابتذال؛ مثل الكلمات التي يكثر استعمالها بحيث أمست ممجوجة أو مملولة.

ومثل أن يستعمل الكلمات العامّيّة: (أَبِي) أو (بِدِّي) أو (عاوز) في موضع أُريد، أو (الطُّوز) في موضع الغُبار أو العجاج، أو (بلَّش) بمعنى بدأ.[1]

وقد يكون جمهور السامعين من بيئات شتّى وثقافات مختلفة ومستويات متفاوتة، فينبغي للخطيب حينها أن ينتقي من الألفاظ ما يناسبهم جميعًا ولا يثقُل سمعه ولا فهمه عليهم.

ولبِشْرِ بْنِ المُعْتَمِر فيما يجب أن يكون عليه الخطيب والكاتب رسالة من أنفس الرسائل الأدبية البليغة، وممّا جاء فيها: (فكن في ثلاثة منازل: فأوّل ذلك أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، أو فخمًا سهلًا؛ ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، إمّا عند الخاصّة إن كنت للخاصّة قصدت، وإمّا عند العامّة إن كنت للعامّة أردت؛ والمعنى ليس

---

(١) أسلوب مبتذل/ كلام مبتذل/ تعبير مبتذل: تافه، فَقَدَ طرافته وقيمته بسبب كثرة الاستعمال – معجم اللغة العربية المعاصرة ١/ ١٧٨.

يشرُف بأن يكون من معاني الخاصّة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامّة؛ وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكلّ مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامّيّ والخاصّيّ؛ فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة لفظك، ولطف مداخلك، وقدرتك في نفسك - أن تُفْهِم العامّة معانيَ الخاصّة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأَكْفاء، فأنت البليغ التامّ)[1].

٤- **أن تكون الألفاظ محبَّبة إلى قلوب السامعين** وتتشّنف بها آذانهم وتسعد بها نفوسهم، ففي خطب الإصلاح يقتبس الكلمات ذات العلاقة التي تثير معاني عميقة لدى السامعين؛ كالسعادة والطهارة والطمأنينة والقوة والحياة الكريمة ورضا الله وحسن العاقبة. وفي خطب الجهاد يتناول الألفاظ التي تحفّز الهمم وتَحْمل على الإقدام؛ كذكر الجهاد نفسِه، والتضحية والفداء، والشهادة في سبيل الله، واطلب الموت توهب لك الحياة، وما غُزِي قوم في عقر دارهم إلّا ذلّوا، والأجر العظيم والنعيم المقيم لمن يقتل في سبيل الله، ونحوها من الألفاظ التي توقد الحماس وتوقظ الوجدان وتحمل على اقتحام المخاطر واستسهال الصعاب واستعذاب العذاب.

وفي خطب التزهيد في الدنيا يأتي بالألفاظ التي تقلّل من شأن الدنيا؛ مثل: الدنيا فانية، والدنيا غرّارة، وهي كظلّ زائل، ولا تعدل عند الله جناح بعوضة، والدنيا ممرّ والآخرة مقرّ، ومَثَلها كمثل النبات يخضرّ

---

(١) العقد الفريد ٤/ ١٤٧.

فيعجب الناس، ثم يصفرّ ويصبح هشيمًا يابسًا متكسّرًا تنسفه الرياح إلى كلّ جهة، والمراد قلّة بقاء زهرة الدنيا كقلّة بقاء هذا النبات. وهكذا.

٥- **أن يختار الألفاظ الجزلة الفخمة** لما يناسبها من المواقف والمقامات، **والألفاظ السهلة الرقيقة** لما يوائمها من المواقع والمناسبات؛ إذْ لكلّ مقام مقال، والجزالة أصلها شدّة القطع، وهي إذا أطلقت على اللَّفْظ يُرَاد بها نقيض الرِّقّة، وإذا أطلقت على غَيره يُرَاد بها نقيض القلَّة.[١] فيَطْلُبُ اللّفظَ الظاهرَ الجَزَالَةِ الذي قد هذَّبه العقل، وصَقَلَه العلم والفضل، قد أُحْكِمَتْ مَبَانِيه، وتَكَافَأَتْ ألفاظُه ومَعَانِيه[٢].

قال الهاشمي: (الجزالة: هي إبراز المعاني الشريفة في معارض من الألفاظ الأنيقة اللطيفة)[٣].

والسهولة تعني الرقّة والعذوبة، قال الجاحظ: (إن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وإن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وتزيّن به المعاني)[٤].

ففي مقام الجهاد والجِلاد، والتهديد والوعيد، والغَضَب والحَمَاسة، والفخر والحَميّة، والوَعْظ، والعِتَاب، ونحوها: يختار الألفاظ الجزلة الفخمة القويّة.

وفي الشَّوْق والرِّثَاء، والأسى والعَنَاء، والاعتذار والاستعطاف،

---

(١) الكليات للكفوي ٣٥٣.
(٢) الدر الفريد وبيت القصيد محمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩ هـ - ٧١٠ هـ) ١/ ٨٧.
(٣) جواهر الأدب ٢٠.
(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٦.

والتأديب والاستلطاف، وفي العلوم وأدب الأدباء، وكذا المخاطَبات بين الأَكْفاء: يستخدم الألفاظ السهلة الرقيقة، كرقّة النبع المترقرق والشلّال المتدفّق.

والجزالة والرقّة في الألفاظ تبع لأحوال المتكلّمين والمخاطَبين، ولكل بيئة وفترة ما يناسبها، فقد غلب على العرب في صدر الإسلام الجَزَالة والفخامة، وغَلَب على العرب الأندلسيّين الرِّقَّةُ والعذوبة، وأهل المدنيّة لهم عناية بالمعاني، وأهل البادية يُعْنَون بالمباني.

هذا فيما تشترك فيه الألفاظ والتراكيب من خصائص وصفات.

وتنفرد التراكيب بخصائص أخرى وصفات تنأى بها عن عيوب الكلام، وهي:

١- **سلامة كلمات التركيب من التنافر**، وإن كان كلّ كلمة منها على حِدَةٍ لا ثقل فيها، وإذا تنافرت الألفاظ صعب النطق بها وبدت غير متلائمة؛ كما في البيت المشهور:

وقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ   ولَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فهذه القافات والراءات من الأحرف قد تكررت وتقاربت فأكسبت الكلام ثقلًا وركاكة ونأت به عن الفصاحة. وكقول المتنبّي من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ   زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

إذْ جَمَعَ أفْعالَ أمْرٍ دون عاطفٍ بينها فجعلها ثقيلة على السمع فأفسد فصاحتها.

٢- **السلامة من ضعف التأليف**: وضعف التأليف معناه أن يكون الكلام في تركيبه مخالفًا للمشهور من قوانين النحو؛ كالإتيان بالضمير متصلًا بعد (إلّا)، وكالإضمار قبل ذكر المرجع لفظًا، أو معنًى، أو حكمًا؛ نحو قول حسّانَ بن ثابتٍ يرثي مُطْعِمَ بْنَ عَدِيّ:

وَلَوْ أَنَّ مَجْدًا أَخْلَدَ الدَّهْرَ وَاحِدًا   مِنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِما

فأعاد الضمير في (مَجْدُهُ) على متأخّرٍ لفظًا ورُتبة وهو (مُطْعِما) وهو لم يذكر قبل الضمير لفظًا، وهو ظاهر، ولا معنًى لأنه مفعول به، فمرتبته التأخير، ولا حكمًا؛ لأنه محكوم عليه بالتأخر لمفعوليته، على خلاف قانون التأليف المتّبع في العربيّة، وهذا من العيوب المخلّة بالفصاحة.

٣- **السلامة من التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي**، والتعقيد: هو أن يكون الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد؛ لخلل واقع فيه. **فالتعقيد اللفظي**: خفاء دلالة الألفاظ على المعنى المراد؛ لخلل واقع في نظمه وتركيبه، بحيث لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني بسبب تقديم أو تأخير، أو فصل أو حذف، أو نحو ذلك مما ينشأ عنه صعوبة فهم المعنى المراد. ومن أمثلته قول الفرزدق يمدحُ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خالَ هشام بن عبد الملك:

وما مِثْلُهُ في النَّاس إلّا مُمَلَّكًا   أبو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

أي: وما مِثْلُ إبراهيم في النّاس حيٌّ يشبهه في فضائله غير مَلِكٍ أَبُو أُمِّهِ أبوه، أي: لا يماثله أحد إلّا ابن أخته.

ففي هذا البيت من التقديم والتأخير ما قد أحال معناه وأفسد إعرابه. وأصْلُ ترتيب الكلام: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربُه إلّا مملّكًا أَبُو أُمِّهِ

أَبُوه، فقَدَّمَ وأَخَّرَ في الكلمات، فألْغَزَ إلْغازًا سَيِّئًا، فأتعب أهل اللغة والنحو بشرحه، منهم سيبويه فمَن بعده، ولم يبلغوا منه ما يُقنع ويُرضي.

والتعقيد المعنوي: خفاء الدلالة على المعنى المراد لاستعمال الألفاظ في غير معانيها الحقيقية؛ أي لخلل واقع في انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم من اللفظ لغة إلى المعنى الثاني المقصود بحيث يكون إدراك المعنى الثاني من الأول بعيدًا عن الفهم بسبب استعمال اللفظ في معنى خفي لزومه للمعنى الأول، ومن الأمثلة على التعقيد المعنويّ قولُ العبّاسِ بن الأحنف:

سأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدا

والشاهد فيه السَّبَب الثاني الحاصل به التعقيد وهو الانتقال، فإن معنى البيت أطلب وأُريد البعد عنكم أيّها الأَحِبَّة لتقربوا إذْ من عادة الزَّمان الإتيان بضدّ المُرَاد، فإذا أُرِيد البعد يأْتي الزَّمان بالقرب، وأُرِيد وأطلب الحزن الذي هو لازم البكاء ليحصل السُّرُور بما هو من عادة الزَّمان.

وقد أبعد في هذه الكناية لكثرة لوازمها الذهنيّة التي لا تُدْرَكُ إلّا بعد جهد ذِهْنِيّ، فأخلّ بالفصاحة.

وقد أطلت نوعًا ما في الكلام عن الألفاظ وفصاحتها للإيضاح ومزيد الفائدة التي يحتاجها الخطيب(١).

(١) المنهاج الواضح للبلاغة ١/ ١٦-٢٠، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ١/ ٥١ لأبي الفتح العباسي (المتوفى: ٩٦٣هـ).

المبحث الثاني

الأسلوب

المطلب الأول: تعريف الأسلوب:

الأُسْلوبُ في اللُّغة: الطَّرِيقُ، والوجهُ، والمَذْهَبُ، والفَنُّ. وفي الاصطلاح: طريقة في التفكير والتعبير والتصوير؛ يتّخذها المرء وسيلة للإقناع والاستمالة والتأثير.

فهو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير عن المعاني بقصد الإيضاح أو التأثير، وهو يختلف بين إيجاز وإطناب، وسهولة وإغراب، وتيسير وتعقيد. هذا ويسبق صوغَ العبارات: اختيارُ الأفكار وترتيبها، أو بعثرتها واضطرابها، ووضوحها أو غموضها؛ ولذلك تختلف الأساليب تبعًا لاختلاف الأفكار وطريقة المُعبِّر.

والعلوم الأدبية - كما سبق ذكره - مَطالعها من ثلاثة أوجه: قلبٌ مُفكِّر، وبيانٌ مُصوِّر، ولسانٌ مُعبِّر. وينضاف إليها في الأدب: العاطفة. وفي الشعر: الوزن والقافية.

فالقلب (العقل) يخترع ويفكِّر، والبيان يُنسِّق ويصوِّر، واللسان يُخاطِب ويعبِّر، فالأسلوب الأدبي إذًا يقوم على هذه العناصر الثلاثة: الأفكار والصور والعبارات، إذْ هو معانٍ مُرتَّبة قبل أن يكون ألفاظًا مُنَسَّقة، وهو يتشكّل في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يخطّه البَنَان.

ويختلف من شخص لآخر، ومن بيئة لأخرى، ومن جيل لجيل، فأسلوب أهل الجاهلية في الشعر والنثر يختلف عن أسلوب الذين عاشوا

في صدر الإسلام، وهذا يختلف عنه أسلوب عصر الأمويين، وأسلوب الذين كانوا في العصر العباسي يزايل أسلوب من عاشوا في عصر بني أُميّة، كما أن أسلوب الأندلسيين ليس على شاكلة من كان قبلهم ولا من جاء بعدهم، وكذا أسلوب الكُتّاب والشعراء والأدباء والخطباء ونحوهم في العصر الحديث يختلف عمّا سبق كلّه، إضافة إلى التمايز والاختلاف بين أسلوب المعاصرين أنفسهم.

ونخلص من هذا إلى أنّ لكل إنسان وجيل وبيئة أسلوبَه وطريقته شعرًا ونثرًا، فالأسلوب للإنسان طبيعته الثانية.

وإنّك لتجد هذا التباين في الأسلوب إذا نظرت إلى هذه الشخصيات المتباينة في الخطابة - مثلًا - كعليّ ومعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وزياد والحجّاج، وعبد الملك بن مروان وزيد بن عليّ بن الحسين، والحسن البصريّ والشعبيّ، وأبي جعفر المنصور والمأمون.

وفي الكتابة كالجاحظ والحريري وبديع الزمان الهمذاني وابن المقفّع وابن خلدون وابن خَلِّكان.

وفي الشعر كأبي تمّام والمتنبّي وابن الرُّومي والبُحْتُري وجرير والأخطل.

فلكلّ واحد منهم نمط مختلف، وأسلوب مباين، وطابع منفرد.

المطلب الثاني: أنواع الأسلوب:

وقبل الحديث عن مزايا الأسلوب وخصائصه ينبغي التعريج لمعرفة أنواع الأسلوب التي يستخدمها الكُتّاب والشعراء والخطباء والعلماء في

نثرهم وشعرهم. وهما نوعان: الأسلوب العلميّ، والأسلوب الأدبيّ، ولكلّ واحد منهما ما يميّزه عن الآخر.

فالأسلوب العلميّ:

١- يقوم على عنصري الأفكار والعبارات، فهذا الأسلوب العلمي هو لغة العقل حيث يُعْنَى بالمصطلحات العلمية، والأرقام الحسابية، والصفات الهندسية، والحقائق والأفكار، وهذه مظهر العقل المُدقِّق.

٢- في الأسلوب العلميّ ليس ثمّة حاجة لتكرار الفكرة وترديدها.

٣- يمتاز بدقّة العبارة والتحديد والاستقصاء وبالسهولة والوضوح إذا كانت صادرة عن عقل رزين، كما تمتاز بالجزالة والقوة ما دامت تعبّر عن عاطفة قويّة حيّة.

٤- ويكون الغرض منه أداء الحقائق قصد التعليم وخدمة المعرفة، وإنارة العقول، وربّما استخدم الانفعال.

والأسلوب الأدبي:

١- يقوم على الأفكار والعبارات والصور، فهو يزيد على الأسلوب العلمي بالانفعالات والأخيلة؛ فمجال الخيال فيه رحب وحرارة العاطفة فيه مشبوبة والتصوير واسع.

٢- الأسلوب الأدبي يأخذ المعنى الواحد ويعرضه في صور بيانية مختلفة، ويعبّر عنها بألفاظ جميلة رائعة مؤثّرة مقصودٍ سَوْقها؛ لتؤثّر في نفوس السامعين أو القرّاء، بخلاف ما رأيناه في الأسلوب العلمي حيث ليس ثمّة حاجة لتكرار الفكرة وترديدها.

٣- العبارة هنا تُعنى بالتفخيم والتعميم والوقوف عند مواطن الجمال والتأثير، ولا تعنى كثيرًا بالدقة والاستقصاء كما في العلمي.

٤- الأسلوب الأدبي يُعنَى بالصور الخيالية والصنعة البديعية والكلمات الموسيقية التي هي فيه: مظهر للانفعال العميق. وغرضه: إثارة الانفعال في نفوس القرّاء والسامعين.

وبالجملة: الأسلوب العلمي هو لغة العقل، والأسلوب الأدبي هو لغة العاطفة، وتطغى فيه شخصية الكاتب أو المتكلِّم وتأثيره أكثر منه في الأسلوب العلميّ.

والخلاصة أن بين الأسلوبين فرقًا في المصدر والغاية والوسيلة:

فالعلميّ: مصدره العقل. وغايته: أداء الحقائق بقصد التعليم وخدمة المعرفة وإنارة العقول، وقلّما تجد للانفعال أثرًا واضحًا. ووسيلته: الحقائق العلمية والفلسفية والمنطقية.

والأدبيّ: مصدره العاطفة، وغايته: إثارة الانفعال في نفوس القرّاء والسامعين. ووسيلته: عرض الحقائق بطريقة رائعة وألفاظ منمّقة كما أدركها الكاتب الأديب وتصوَّرها، فهو يجمع بين الإفادة والتأثير.

وبالمثال يتّضح المقال، فإليك النَّصّين الآتيين كلّ واحد منهما يصف الشمس، لكن الأول يصفها بأسلوب علميّ، والثاني يصفها بأسلوب أدبي.

النّصّ الأول:

(الشمس كوكب مضيء بذاته، وهي أعظم الكواكب المرئية لنا منظرًا وأسطعها ضوءًا، وأغزرها حرارة، وأجزلها نفعًا للأرض التي نسكنها

ولكثير من أخواتها سيّارات الشمس وبناتها. والشمس كرة متأجّجة نارًا، حرارتها أشدّ من حرارة أيّ ساعور أرضيّ، ويبلغ ثقلها ثلاثمائة وزن من ثقل الأرض، وهي أكبر منها جرمًا بثلاثمائة ألف وألف ألف مرّة. وتدور الشمس على محورها من الغرب إلى الشرق مرة واحدة في نحو خمسة وعشرين يومًا، وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين ألف ألف ميل وخمسمائة ألف ميل، وهي مع كل هذا العِظَم الهائل لا تعدّ في النجوم الكبرى، بل إن أكثر ما نشاهد من النجوم الثابتة شموسٌ أكبرُ من الشمس بألوف الألوف، والشمس بسيارتها تابع من توابع أحدها)[١].

النصّ الثاني:

(سَلِ الشمس من رفعها نارًا، ونصبها منارًا، وضربها دينارًا؟ ومن عقلها في الجو ساعة، يدبّ عقرباها إلى يوم الساعة؟ ومن الذي آتاها معراجها، وهداها أدراجها، وأحلّها أبراجها، ونقل في السماء الدنيا مسراجها؟... الزمان هي سبب حصوله، ومنشعب فروعه وأصوله، وكتابه بأجزائه وفصوله، وُلِد على ظهرها، ولعب على حَجْرِها، وشاب في طاعتها وبرّها، ولولاها ما اتسقت أيامه، ولا انتظمت شهوره وأعوامه، ولا اختلف نوره وظلامه، ذهبُ الأصيل من مناجمها، والشفق يسيل من محاجمها، وتحطّمت القرون على قرنها، ولم يعل تطاول السنين بسنّها، ولم يمحُ التقادم لمحة حسنها)[٢].

(١) جواهر الأدب ٣٨١-٣٨٢.
(٢) أسواق الذهب، أحمد شوقي ٤٠-٤١.

المطلب الثالث: اختلاف الأساليب:

يرجع اختلاف الأساليب إلى الأسباب الآتية:

السبب الأول: الموضوع:

ويراد بالموضوع: الفنُّ الذي يختاره الكاتب أو الخطيب ليعبّر به عمّا في نفسه، علمًا كان أو أدبًا، نظمًا أو نثرًا؛ إذْ لكل فنّ أسلوبه الخاصّ الذي يلائم طبيعته.

والسبب الثاني: الشخص:

واختلاف الأساليب يرجع أيضًا إلى اختلاف شخصيات الخطباء والأدباء والكُتّاب من حيث أذواقهم ومواهبهم العقلية وطاقاتهم الذهنية وقدراتهم النفسية، وعواطفهم وطبائعهم، وطريقة تفكيرهم وتصويرهم؛ فما دامت طبائعهم ومواهبهم وطريقة تفكيرهم وفهمهم مختلفة فلا بدّ إذًا أن تختلف أساليبهم في التعبير والتصوير.

والسبب الثالث: اختلاف الصنعة:

ويراد بالصنعة المهنة أو الحرفة (الاحتراف أو التخصّص)، ولا شكّ في أن صاحب الصنعة أقدر على تطويع العبارات والمشاعر والتفنّن بالمخاطبة أو المكاتبة نظمًا أو نثرًا، وأقوى على الملاءمة بين اللفظ والمعنى أولًا؛ لأن المعنى الكريم يحتاج إلى لفظ كريم، واللفظ الكريم يزيده المعنى القويم قوة وبهاء، فلا غَناء للمعاني عن الألفاظ وجمالها، ولا استغناء للألفاظ عن المعاني وكمالها، وعلى الملاءمة بين المعنى والمستمعين أو القرّاء ثانيًا، فلكلّ طبقةٍ كلامٌ ولكلّ حالة مقام.

وهذا التمايز كما يكون بين أصحاب الصنعة الواحدة فهو بين أصحاب الصنائع المتنوّعة أظهر وأقوى.

ومن كان ذا حرفة - من شعر أو مقالة أو قصة أو خطابة... - متقنًا إيّاها، سيكون أسلوبه مغايرًا لمن لم يتقنها، وسيظهر ذلك في الفنون المختلفة كلٌّ بحسبه.

المطلب الرابع: خصائص الأسلوب الخطابي:

هذا وإن الخطابة يغلب عليها الأسلوب الأدبي وإن كانت لا تخلو في كثير من الأحايين من خواصّ الأسلوب العلمي. وبقي أن أذكّر بأبرز خواصّ الأسلوب الخطابي وأوصافه:

١- **الوضوح**: فالأسلوب المتميّز هو ذاك الواضح المفهوم، الذي وضحت فكرته تبعًا لوضوح عقلية الخطيب وغيره، وزانت عبارته بحيث يكون المعنى واضحًا سهل المأخذ خاليًا من اللَّبْس والإشكال؛ لأن غاية الأسلوب الأصلية: الإِفهام لا الإبهام. ويعتمد الوضوح في الأسلوب على ركيزتين أساسيّتين:

أولاهما: تتعلق بالأفكار؛ بحيث تكون الفكرة واضحة جليّة لدى الخطيب، ويلزم من ذلك مراعاة الدقّة في اختيار الكلمات التي تعبّر عن الغرض وتُفصح عن المعنى.

وثانيتهما: مطابقة الأسلوب لمقتضى الحال، بمعنى أن يراعي الخطيب مستوى المتلقّين، فتكون عباراته وتراكيبه متناسبة مع مستواهم لا تعقيد فيها ولا إسفاف، ولا غموض ولا إلحاف، ولا إطناب في موطن يقتضي الإيجاز، ولا اقتضاب في موضع يستلزم الإطناب.

٢- **المتانة**: والقوّة صفة نفسية مصدرها نفس الخطيب أو الكاتب وعقله، فالخطيب الذي يدرك الحقائق بوضوح وجلاء، ويعتقدها بصدق وانتماء، ويحرص على الدعوة إليها بإخلاص ووفاء، ستجد صدى ذلك في أسلوبه تأثّرًا وانفعالًا، وتأثيرًا في متلقّيه واستقبالًا.

فعلى الخطيب أن يختار الألفاظ المناسبة للمعاني المستحضَرة ليضع كلّ لفظ في المعنى الذي يليق به، بحيث تكون الألفاظ من القوة والضخامة والجزالة والفخامة موائمة للمعاني المقرَّرة وبحسب الحال ترهيبًا أو ترغيبًا، فيفرغ المعنى في قالبه؛ إذِ الألفاظ تنبئ عن المعاني كما ينبئ الوجه عن الجسد، والبراعة اللغوية تمنح الموضوع قوة وجمالًا، وكلّما كانت الألفاظ والجمل والتراكيب قوية ومناسبة كان الأسلوب قويًّا تبعًا لقوتها، مع تمام الانسجام بين المعاني والألفاظ، واجتماع دقّة المعاني مع رقّة المباني.

والخلاصة أن الخطيب إذا جمع في أسلوبه قوّةَ الصورة والتصوير - باستعمال الخيال والمعاني البلاغية من كنايات واستعارات ونحوها - وقوّةَ التعبير؛ أيْ قوة التركيب والتأليف والمواءمة بين الإطناب والإيجاز؛ فإذا جمع الخطيب بين هاتين الصفتين جاء أسلوبه قويًّا متينًا وواضحًا رزينًا.

٣- **التنويع**: والتفنّن بأنواع الكلام والتصرّف في فنون القول؛ بأن ينوّع في القول والطريقة، وتتعاقب على المعنى الواحد أو المعاني المختلفة أنواع من التعابير وضروب من الفنون، فيكون كمن يكسو جسدًا واحدًا كلّ يوم ثوبًا جديدًا، فيأتي بجديد لأن النفوس ميّالة إلى كل جديد، ولو بقيت على نمط واحد من الحديث لكلّت وملّت، وعلى

هذا ينبغي للخطيب التنويع في الأسلوب فينتقل بسامعيه من فنّ لآخر ومن أسلوب لأسلوب سواه؛ من تقرير إلى تعجّب إلى استعطاف أو استلطاف إلى استفهام أو إنكار أو تهكّم...

وهكذا ينوّع في الأسلوب ليبعد نفسه وسامعيه عن الملل والسآمة، ويأخذهم إلى حيث التجديد والاستمتاع.

ولغتنا العربية ثريّة بالألفاظ البليغة الملائمة، وغنية بالأساليب المتنوّعة الموائمة، فما أكثر طرائق الحقيقة والتشبيه والمجاز، والاستعارة والكناية والإطناب والإيجاز، والطباق والجناس والتورية والإِلغاز!

فحريّ بالخطيب أن ينتقل بجمهوره من بستان إلى بستان، ومن عذوبة الألفاظ إلى لذّة الأساليب.

قال أبو عليّ: (إذا ذكرت صفات للمدح وخولف في بعضها الإعرابُ فقد خولف للافتنان أي للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجِدّ في الإصغاء فإن تغييرَ الكلامِ المَسوقِ لمعنًى من المعاني وصَرْفَه عن سننه المسلوك يُنبئ عن اهتمامَ جديد بشأنه من المتكلِّم ويستجلبُ مزيدَ رغبةٍ فيه من المخاطب)[1].

٤- **مطابقة مقتضى الحال**: وهي التي يعبّر عنها البلاغيون بـ(مطابقة المقالِ المقامَ وموافقته مقتضى الحال)، والأسلوب يتنوّع بتنوّع المقامات بَدْءًا بحال الخطيب وذلك بمراعاة سنّه ومنصبه، وعلمه وعمله، وما يليق به وما لا يليق، وما يحسُن منه وما لا يحسن.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١/ ٢٩-٣٠.

ثم أحوال السامعين؛ إذْ للعامّة أسلوب لا يناسب الخاصّة، وللخاصة أسلوب لا يُجدي مع العامّة، ولمخاطبة العلماء والفقهاء والحكماء أسلوب يخصّهم فيناسبهم العبارات المنتقاة والجمل المُحْكَمة والأحكام المستدلّ لها والمعلّلة. والخاصّة يخاطبون بأسلوب يتناسب مع فنّهم واختصاصهم، والعامّة يُختار لهم العبارات الساذجة التي لا تستعصي على أفهامهم، والمتديّنون يستشهد لهم بالأدلة الشرعية، والأدباء بالشواهد الأدبية نظمًا ونثرًا.

كما أن لكلّ مقام أسلوبًا يناسبه، ففي مقام الحماس والتهديد، والترهيب والوعيد: تُختار الأساليب الفخمة والعبارات الضخمة، وفي المقام الذي يستدعي الألم والأسى تختار العبارات اللينة الرفيقة، والجمل المؤثرة الرقيقة. وهكذا يُنوّع الأسلوب بحسب الدواعي ومقتضيات الأحوال، فيُعرَف لكلّ مقام مقال، ويُستعمَل ما يناسب المقام من فنون الكلام.

قال بِشْرُ بْنُ المُعْتَمِرِ المعتزليّ: (ينبغي للمتكلِّم أن يعرفَ أقدارَ المعاني، ويُوازنَ بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعلَ لكلِّ طبقةٍ من ذلك كلامًا، ولكلِّ حالةٍ من ذلك مَقامًا، حتى يَقْسِم أقدار الكلام على أقدار المعاني، وأقدارَ المعاني على أقدار المَقامات، وأقدارَ المستمعين على أقدار تلك الحالات)[1].

لمّا مات معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اجتمع الناس بباب يزيد، فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية، حتى أتى عبدُ الله بن همّام السَّلُوليّ، فدخل فقال: يا أمير المؤمنين، آجَرَكَ الله على الرَّزيّة، وبارك لك في العطيّة،

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٩.

وأعانك على الرعيّة، رُزئتَ عظيمًا، وأُعْطِيتَ جسيمًا، فاشكر الله على ما أُعطِيت، واصبر على ما رُزئت، فقد فقدتَ خليفة الله، وأُعطيتَ خِلافةَ الله، ففارقتَ جليلًا، ووُهِبتَ جزيلًا؛ إذ قضى مُعاوِيةُ نَحْبه، ووليت الرياسة، وأعطيت السياسة، فأورده الله موارد السرور، ووفقك لصالح الأمور. وأنشد:

اصْبِرْ يزيدُ فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ   واشكُر حِبَاءَ الذي بالمُلْك حاباكَا
لا رُزْءَ أعظمُ في الأَقْوَام قد عَلِمُوا   مما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كعُقْبَاكا
أصبحتَ رَاعيَ أهل الأرض كلِّهمُ   فأنت تَرعاهُمُ والله يَرْعاكا
وفي مُعاويةَ الباقي لنا خلفٌ   إذا بقيتَ فلا نَسْمَع بِمَنْعاكا(١)

٥- **الجمال**: هذا ويضاف إلى خواصّ الأسلوب وأوصافه: جمال الأسلوب، وهذا يتأتّى بالعناية بحسن اختيار الألفاظ وجودة التعبير، مع قوة التصوير وجاذبية التأثير.

والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال واسع وذوق مهذّب يفصل بين الجيّد والرديء وبين الحُسْن والقُبح، فالخيال يغوص في المعاني ويسبر أغوارها ويستخرج أسرارها، والذوق يختار لها أجمل العبارات وأنقاها، ويصطفي لها أحسن الألفاظ وأبهاها، بمنأًى عن الكلمات المتنافرة الحروف من ثِقَل، أو العبارات المتنافرة الكلمات والجُمل، في مطابقة قويّة ومواءمة مَرْضيّة بين الألفاظ ومعانيها، وزيادتها جمالًا وروعة بالمُحسِّنات البديعية، والصور الخيالية.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني ٢/ ١٥٥، جمهرة خطب العرب ٢/ ٢٦٣.

ومما يضع على أسلوب الخطيب مسحة الجمال وهالة الروعة: استعمال السَّجْع في خطابه، فالسجع من النثر كالقافية في الشعر، وهو يجمّل الكلام ويزيّنه، ويزيده روعة ويحسّنه، فهو في الكلام كالملح في الطعام، ما لم يكن كثيرًا طاغيًا، أو متكلّفًا باغيًا.

والناس فيه على خلاف؛ فمنهم من تعصّب له فمدحه، ومنهم من تعصّب عليه فقدحه، والصواب أن السجع في ذاته حسن مليح، ولكنّ تكلّفه ذميم قبيح، فمن استعمله في موضعه حيث يَجْمُل ويَحْسُن كان حلية للكلام، ومن تقعّره كان عيبًا فيه ومذمّة عليه.

قيل لعبد الصّمد بن الفضل بن عيسى الرَّقَاشيّ: لِمَ تُؤْثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: (إن كلامي لو كنت لا آمُل فيه إلّا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكنّي أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحقّ بالتقييد وبقلّة التفلّت، وما تكلّمت به العرب من جيّد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره)[1].

وقال ابن الأثير: (واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام؛ والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد؛ إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كلّ أديب من الأدباء سجّاعًا، وما من أحد منهم ولو

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٣٩.

شدا شيئًا يسيرًا من الأدب إلّا ويمكنه أن يؤلّف ألفاظًا مسجوعة، ويأتي بها في كلامه، بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادّة طنّانة رنّانة، لا غثّة ولا باردة، وأعني بقولي غثة باردة أنّ صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابًا من الكُرْسُف، أو ينظم عقدًا من الخزف الملوّن. وهذا مقام تزلّ عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلًا. فإذا صفا الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوبًا آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعًا لِلَّفْظ؛ فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مُمَوَّه، على باطن مُشَوَّه، ويكون مثله كَغِمْدٍ من ذهب، على نَصْلٍ من خشب)[1].

المطلب الخامس: صياغة الأسلوب:

إن حقيقة الأسلوب هي قدرة الخطيب أو الكاتب على التعبير عمّا في نفسه من المعاني ونقلها إلى المخاطَبين بالعبارات اللغوية، فيفصح عن مراده من أقرب طريق، ويُفهِم غيرَه بأحسن ما يستطاع من التعبير.

وعلى هذا فصياغة الأسلوب الراقي فنٌّ يعتمد على الطبع والتمرّس بالكلام البليغ والجمل والعبارات والصور البيانية، مع طول الممارسة ومزاولة أساليب النابغين من الخطباء والأدباء.

وإنما يأتي الاختلاف بين الناس في اختيار الأفكار، وكيفية ترتيبها ترتيبًا

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١٩٦-١٩٧.

صحيحًا أو مضطربًا، ووضوحها أو غموضها، وصحّتها أو خطئها، وفي صوغ العبارات بين إيجاز وإطناب، وسهولة وإغراب، وبساطة وتعقيد، وجمال وتنافر(١).

فالخطيب الذي يريد أن يصوغ خطبة عليه أولًا أن يختار الأفكار التي يريد أداءها؛ إمّا لكونها جديدة مبتكرة، أو لقيمتها العلمية أو الأدبية، أو لملاءمتها مقتضى الحال، ثم يرتب تلك الأفكار ترتيبًا حسنًا؛ ويسلك سبل إفهامها ويعبّر عنها بما يُستجاد من الألفاظ وما يستحسن من الطُّرق.

ومن أراد أن يأخذ بناصية القوّة في الأسلوب؛ فلْيُنَمِّ مَلَكَة الفهم ولْيَرْعَ موهبة التذوّق لديه بكثرة المطالعة والوقوف على أساليب الخطباء المتقنين والأدباء النابغين؛ القدماء منهم والمُحْدَثين، ولْيحرصْ على الجِدّة والابتكار مع طول المِرَان والاصطبار، والأخذ بنصائح أهل هذا الفن وأصحاب الممارسة ولا يحرم نفسه من تجاربهم وخبراتهم، وألّا يرضى عن أدائه دائمًا لئلّا يوقفه العجب والغرور عن الإبداع والابتكار، بل يتطلّع دائمًا إلى العلياء والتميّز، ولْيكوِّنْ لديه ثروة لغوية حفظًا واستيعابًا وتذوّقًا.

(١) الأسلوب ٥٠-٦٠.

المبحث الثالث

المقاطع

إن مراعاة مقاطع الكلام من توابع فهم المعاني وإدراكها، فعلى الخطيب أن يراعي مواضع الوقف والوصل، بحيث يكون وقوفه عند جزء تامّ من المعنى الذي يقصده، ويكون وصله لما لا بدّ منه، وإلّا أوهم خلافَ المراد وأفسد المعنى الذي يراد، فقولك جوابًا لمن سألك: هل تريد شيئًا: (لا بارك الله فيك) فيه إساءة؛ لأنك وصلت حرف النفي بالجملة التي بعدها ولا يصلح هذا الوصل، بل الجواب الذي ليس معه توهّم ولا لَبْس أن تقول فاصلًا لا واصلًا: (لا، وبارك الله فيك) وعندها يكون الجواب قد جمع بين الخبر المقدَّر (لا أريد شيئًا) وبين الإنشاء (بارك الله فيك). فالأولى من غير عطفٍ تُوهم أنك تدعو عليه، وفي الثانية زال هذا التوهّم والإشكال.

ولو خطب خطيب عن العلم يقف عند المقاطع الآتية فقال: (إن العلم نور والجهل/ ظلام، وما عُنيت أمّة بالعلم إلّا/ وكانت سيّدة الأمم والشعوب/ إذا أهملت العلم ذلّت وتصاغرت، ولقد عُني الإسلام/ بالعلم ودعا/ الناس إلى الأخذ/ به ليبدّدوا/ ظلام الجهل بنور العلم...) لكان خطابه مُوهِمًا لا مُفْهِمًا؛ لأنه لم يُرَاعِ مقاطع الكلام، ولم يحسن اختيار مواضع الوقوف؛ إذ من حِلْية البلاغة المعرفةُ بمواضع الفصل والوصل.

وقد جاء في كتاب الصناعتين ٤٣٨-٤٣٩ لأبي هلال العسكريّ: (قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل). وفيه أيضًا: (وقال الأحنف بن قيس: ما رأيت رجلًا تكلّم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام،

ولا عرف حدوده إلّا عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كان إذا تكلم تفقّد مقاطع الكلام، وأعطى حقّ المقام، وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج؛ حتى كان يقف عند المقطع وقوفًا يحول بينه وبين تبيعته من الألفاظ... ولما أقام أبو جعفر صالحًا خطيبًا بحضرة شَبِيب بْن شَبَّةَ وأشراف قريش فتكلم، أقبل شبيب فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما رأيت كاليوم أبين بيانًا، ولا أربط جَنانًا، ولا أفصح لسانًا، ولا أبلّ ريقًا، ولا أغمض عروقًا، ولا أحسن طريقًا، إلا أن الجواد عسير لم يُرَضْ؛ فحملته القوة على تعسّف الإكام وخبطها، وترك الطريق اللّاحب، وايم الله لو عرف في خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من نطق بلسان).

إذًا حسن اختيار المقاطع التي يقف عليها، وحسن انتهائه بمقطع ذي رنين وصدًى: يوضح الغرض من الكلام، ويجعل المعنى جليًّا والرَّنين نديًّا، ويجمّل الإلقاء ويجعله مؤثّرًا قويًّا.

ويسرّني قبل الختام أن أضع بين يدي القارئ الكريم هذه الصحيفة التي دفعها بشر بن المعتمر لتلامذة إبراهيم بن جبلة السكونيّ الخطيب وهو يعلّمهم الخطابة، ويقنّن لهم أصول البلاغة، قال الجاحظ: (مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جَبَلة السَّكونيِّ الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر فظنّ إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلًا من النّظّارة، فقال بشر: اضربوا عمّا قال صَفْحًا، واطووا عنه كَشْحًا. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان أول ذلك الكلام: خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرف حسبًا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكلّ عين وغُرّة، من لفظ شريف ومعنى بديع.

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكدّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولًا قصدًا، وخفيفًا على اللسان سهلًا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه. وإياك والتوعّر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراد معنًى كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا، فإن حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقّهما أن تصونهما عما يُفسدهما ويهجّنهما، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالًا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقّهما.

فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، وفخمًا سهلًا، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، أمّا عند الخاصّة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة.

وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامّيّ والخاصّيّ. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تُفْهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأَكْفاء، فأنت البليغ التامّ.

قال بشر: فلما قُرِئت على إبراهيم قال لي: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان.

قال أبو عثمان: أما أنا فلم أر قطّ أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّرًا وحشيًّا، ولا ساقطًا سُوقيًّا.

وإذا سمعتموني أذكر العوامّ فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والصُّنّاع والباعة، ولست أعني أيضا الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل الببر والطيلسان، ومثل موقان وجيلان، ومثل الزنج وأشباه الزنج. وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند، والروم. والباقون همج وأشباه الهمج. وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منّا. على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضًا.

ثم رجع بنا القول إلى بقية كلام بشر بن المعتمر، وإلى ما ذكر من الأقسام. قال بشر: فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك وفي أول تكلّفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقّها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحلّ في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد. فإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقًا مطبوعًا ولا محكمًا لشأنك، بصيرًا بما عليك وما لك، عابك من أنت أقلّ عيبًا منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك.

فإن ابتليت بأن تتكلّف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جَرَيتَ من الصناعة على عِرق.

فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفّها عليك، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحنّ إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات؛ لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة. فهذا هذا.

وقال: ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات...)[1].

(١) البيان والتبيين ١/ ١٢٨-١٣١.

الفصل الثالث

آداب الخطيب وثقافته وصفاته

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: آداب الخطيب.

المبحث الثاني: ثقافة الخطيب (العلوم الدينية والدنيوية).

المبحث الثالث: صفات الخطيب.

الفصل الثالث

آداب الخطيب وثقافته وصفاته

بعد أن تكلّمنا عن الخطبة وأصولها وكيفية إعدادها وتكوينها والتنسيق بين عناصرها وترتيب أفكارها، ثم التعبير عنها بالأسلوب اللائق، سنتحدّث عن الخطيب وآدابه وصفاته، ذلك أن إعداد الخطبة مهما كان قويًّا ورائعًا لن تنجح ما لم يكن من يؤدّيها خطيبًا مُفوَّهًا يتمتع بصفات تؤهّله للتأثير في نفوس المخاطبين وعقولهم، فيحملهم على التسليم والإذعان والانقياد لما يقول ويأمر به أو ينهى عنه بما لديه من أدلة وبراهين وقوّة ويقين، يقنع بها العقول ويستميل بها النفوس. وفي المباحث الآتية نتعرّض للآداب التي ينبغي للخطيب أن يتحلّى بها وللصفات التي يجب أن يتّسم بها.

المبحث الأول

آداب الخطيب

لا يستطيع الخطيب أن يؤثّر في المخاطَبين بإجادته في إعداد الخطبة، ولا بقدرته على التعبير وامتلاك ناصية الكلمة وقِيَادِ العبارات وجودة الأسلوب في العرض والإلقاء - على الرغم من أهمّيّتها - حتى يجمع إلى ذلك كلّه أحوالًا مَرْضيّة وآدابًا شرعيّة وخصالًا نفسيّة، يتحلّى بها في مسيرة دعوته، ويعتضد بها ليؤثّر في خطبته.

وفي السطور التالية عرض لأبرز الآداب العامّة التي ينبغي للخطيب أن يتأدب بها؛ لتكون عونًا له على أداء رسالته الخطابية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الآداب آداب عامّة ذكرتها إجمالًا ثم أعود لتفصيلها مع ذكر صفات تتعلق بالخطيب كلٌّ في موضعه فيما بعد إن شاء الله كما سترى.

أولًا: الإخلاص:

وهو سرّ بين العبد وربّه جلّ جلاله، وسبيل التوفيق والسَّداد والهدى والرَّشاد، ووَقود العبد نحو الأعمال الزَّاكية، ومحرّكه إلى الدار الباقية، وأحد جناحي الطَّيران والوصول، وثاني شرطي الصّحّة والقَبول؛ اللذين هما: الإخلاص ومتابعة الرسول.

والمراد بالإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله ولا يقصد به أحدًا سواه، ولا شيئًا من أغراض دنيوية من مال أو منصب أو جاه أو شهرة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [هود: ٧]. قال الفُضيل بن عِياض

رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَخْلَصُهُ وأَصْوَبُهُ؛ فإنّه إذا كان خالصًا ولَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وإذا كان صوابًا ولَمْ يَكُنْ خالصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خالصًا، والخالصُ إذا كان للهِ، والصوابُ إذا كان على السُّنَّة)(١).

وقد دلّ على هذا الذي قاله الفضيل قولُه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. وفي الحديث القدسيّ عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**قالَ اللهُ تبارك وتعالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكاء عن الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه معي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَه**»(٢).

والإخلاص أحرى بالخطيب وهو أولى الناس بالتحلّي به؛ لأنه زاده في دعوته، ووقوده في خطبته، ورائده في أداء رسالته، وهو أعظم سبب في إقبال الناس عليه، وقبولهم لما يقول والتفافهم حواليه، واقتناعهم بما يفعل وما يذر، وسرّ استجابتهم له إذا ما نهى أو أمر.

ومتى خلا قلبه من الإخلاص وابتغى بعمله غير الله: خابت مساعيه، وضلّت مراجيه، وانطفأ نور أقواله، وغابت بركة أفعاله، وانفضّ الناس عنه ولم يجدوا لكلامه حلاوة، ولا لأقواله ونصائحه وإرشاداته قبولًا ولا طَلَاوة؛ لأنّ لكلام المخلص أثرًا في نفوس سامعيه، وقبولًا ورضًا في قلوب حاضريه، وصدقًا يفيض على قلوبهم جلالة الحق ونصاعته، ويلقي على أسماعهم براعة المنطق وقوّته، وانتفاعًا يقودهم إلى العمل، ويبعث

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٩٥.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

فيهم الرجاء والأمل، قال زيادُ بْنُ أبي سُفيانَ: (إذا خَرجَ الكلامُ من القلبِ وَقعَ في القلب، وإذا خَرجَ من اللِّسَان لمْ يُجاوِزِ الآذانَ)(١).

وقال عليُّ بْنُ الفُضَيل لأبيه: (يا أبتِ! ما أَحْلَى كلامَ أَصْحَابِ محمد ﷺ! قال: يا بُنَيَّ، وتَدْرِي لِمَ حَلَا؟ قال: لا يا أبت، قال: لأنّهم أَرَادُوا به الله تبارك وتعالى)(٢). وقيل لِحَمْدُونَ القَصَّار: ما بالُ كلامِ السَّلَفِ أَنْفَعُ من كلامِنا؟ قال: (لأنّهم تَكَلَّمُوا لِعِزِّ الإسلام، ونَجَاةِ النُّفُوس، ورِضَا الرَّحمن. ونحنُ نَتَكَلَّمُ لِعِزَّةِ النَّفس، وطَلَبِ الدُّنيا، وقَبُولِ الخَلْق)(٣). ولله درّ من قال:

سَهَرُ العُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِك بَاطِلٌ ... وبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعُ

فإذا أخلص الخطيب في أقواله وأفعاله وأحواله، وتحاشى الرياء والسمعة وحبّ المكانة عند الناس والسعي للشهرة؛ فقد سلك سبيل المؤمنين، وتنكّب سبيل الغاوين؛ وإلّا رجع بالخيبة والخِذلان، وباء بالسخط والخسران، وكان أحدَ الأوائل الذين تُسعّر بهم النار؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنّ أوّلَ النّاس يُقْضَى يومَ القيامة عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فأُتِيَ به فعَرَّفَهُ نِعمَهُ فعرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قَاتَلْتُ فيك حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قال: كَذَبْتَ! ولَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فسُحِبَ على وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النَّار، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَهُ وقَرأَ القُرْآنَ، فأُتِيَ بِهِ فعَرَّفَهُ نِعمَهُ فعرَفَها، قال:**

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٠٠.
(٢) شعب الإيمان ٣/ ٣٠١، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣.
(٣) شعب الإيمان ٣/ ٢٩٩، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣١.

فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فيك القُرْآنَ، قال: كَذَبْتَ! ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فسُحِبَ على وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عليه، وأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّهِ، فأُتِيَ بِهِ فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيها إِلَّا أَنْفَقْتُ فيها لك، قال: كَذَبْتَ! ولَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فسُحِبَ على وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ»(١).

ثانيًا: متابعة الشرع وموافقته:

والمقصود: متابعة هدي النبي ﷺ في كلّ ما أُثِرَ عنه من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقيّة أو خُلُقيّة أو سِيرة.

وهذه المتابعة أحد شرطي صحّة الأعمال وقبولها كما سبق، وهي من الأهمية بمكان، ومن القدْر والأثر ما هو بيّنٌ للعِيان، وتنمّ على الصدق في القصد وتقود إلى حسن الأثر في الدعوة، قال عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وعن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما ليس فيه، فهو رَدٌّ»(٢). ومعناه: فهو باطل غير معتدّ به، وهو صريح في ردّ كلّ البدع والمحدثات في الدين.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

فالواجب على جميع المكلفين اتباعُه ﷺ، ويحرم عليهم مخالفتُه، ومن يقف خطيبًا بالناس يأمرهم وينهاهم، ويرشدهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم؛ هو أولى الناس بالاتباع، وأبعدهم عن الابتداع، وكلّما كان صادقًا في اتباعه مُؤْثرًا مرضاة ربّه على مرضاة مَن سواه، وكان تأسّيه بالنبي ﷺ جليًّا: كان أثره في الناس واضحًا قويًّا، وانتفع الناس بدعوته وأقبلوا على خطبته وكانوا عونًا له على أداء رسالته، وهم بحاجة إلى قدوة يقتدون به يرونه يُتبع أقواله بأفعاله، فحاجتهم إلى خطيب فعّال أشدّ من حاجتهم إلى خطيب قوّال.

والقدوة الحسنة هي الترجمة العمليّة للخطيب، فليكن أُسوة خير، ولْيحذرْ أن يكون قدوة سوء.

ثالثًا: تقوى الله تعالى:

ومن أعظم الآداب التي ينبغي على الخطيب أن يتصف بها: تقوى الله تعالى. ومعنى التقوى: فعل المأمور، واجتناب المحظور، والصبر على المقدور، فمن فعل ما أمر الله به، واجتنب ما نهى عنه، وصبر على ما قدّره عليه؛ فهو التقيّ. ويترجمها: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة من الدنيا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل. وقد أوصى الله بها الأولين والآخرين فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

ووصّى بها النبي ﷺ أبا ذرّ رضي الله عنه، وهي وصيّته لكلّ أحد؛ عن أبي ذرٍّ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُما كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها، وخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»(١).

ووصّى بها الأنبياءُ والأولياء، والأئمة الراشدون، والوعّاظ والناصحون. ولكن القائل بها كثير والعامل بها قليل.

وحقيقٌ بكلّ خطيب أن يكون رأسًا في التقوى؛ إذْ لا معنى لدعوته ما لم يكن أتقى الناس وأنقاهم ظاهرًا وباطنًا؛ لأن التقوى ثمرة العلم والعمل، ولا قيمة لهما بلا ثمرتهما، والتزامه التقوى مهمّ للغاية؛ إذِ الناس يتأثرون بأفعال الخطيب أكثر من أقواله، بل لا قيمة لأقواله لديهم ما لم تصدّقها أفعاله. وينبغي أن يكون أسرع الناس إلى الخير وأبطأهم عن الشرّ، مِفتاحًا لكل خير مِغلاقًا لكل شرّ.

وتتجلّى تقوى الخطيب من خلال عنايته الفائقة بتحضير خُطبه، وحرصه الشديد على توقير منبره، واهتمامه بقضايا الناس ومشكلاتهم، واختيار الموضوعات التي تنفعهم في العاجل والآجل، وسلوك الأسلوب الأمثل في الإقناع والتأثير والاستمالة، والحرص على هدايتهم والحزن على غوايتهم، مع الترفّق والتواضع لهم والعناية بهم.

رابعًا: العلم بما يدعو الناس إليه:

ولا بدّ من هذا؛ لأن الدعوة بلا علم ضلال وإضلال، وقد يذهب صاحبه ليصلح فيفسد، أو ينكر شيئًا وهو معروف وليس بمنكر، أو يأمر بشيء على أنه خير أو معروف وهو منكر، أو يُحلّ حرامًا أو يحرّم حلالًا، ولا يخفى ما في هذا من الإفساد الخطير والشرّ المستطير.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٩٢)، والترمذي (١٩٨٧) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

فالعلم ضروري للخطيب والداعية بَلْهَ كلّ أحد، كلٌّ في فنّه وبابه؛ ولذا بوّب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه بابًا فقال: (بابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَل) قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فبَدَأَ بالعِلْمِ. وهو شرط في كلّ داعية إلى دين الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فشرط سبحانه أن يدعو الداعي إلى دينه على بصيرة: أيْ على يقين وعلم وحجّة.

وهكذا يبدأ الخطيب - وهو داعية إلى الله - بالعلم، حتى إذا عَلِم عَلَّم، وإذا علّم فهّم، ثم عمل بما عَلِم وعلّم؛ إذْ من بركة العلم أن يعلَم ويعلّم ويعمل بما علم، فإذا عمل دعا الناس؛ ليكون ذلك أدعى لقبول ما يدعوهم إليه، ثم إذا لقي أذًى من الناس بسبب دعوته فحقيقٌ به أن يصبر على أذاهم، فيُجاهِد نفسه على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، وهو من الصبر الذي أمر الله به وحثّ عليه حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: (أقسم سبحانه أن كلّ أحد خاسر إلّا من كمّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمّل غيرَه بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يَتمّانِ إلّا بالصبر عليهما، والتواصي بهما، كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين)[1].

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٠.

فخليقٌ بالخطيب أن يتسلّح بالعلم الذي أوجبه الله على كل مكلَّف وجعله شرطًا على كلّ داعية. ونعني بالعلم هنا: العلم الشرعيّ أوّلًا، ثم العلوم الأخرى التي يحتاج إليها الداعية في دعوته.

خامسًا: الالتزام بما يدعو الناس إليه:

وهذا يعني إذا قال قولًا أن يكون أوّل من يصدّقه بفعله، وإذا نهى عن شيء كان أبعد الناس منه؛ ليكون قدوة حسنة لمن يدعوهم. ومن المعلوم أن الناس يتأثرون بالخطيب ويتخذونه أسوة لهم فيما يأتون وفيما يذرون، فإن رأوه يلتزم ما يقول ويطبّق على نفسه وأهله تأثروا به وساروا سيره، وإلّا انفضّوا من حوله ورفضوه وتركوه ودعوته، وكان داعية سوء يهدم ولا يبني، ويفسد ولا يصلح، ولهذا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا نهى الناس عن شيء جمع أهل بيته، فقال: (إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس لينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وايمُ الله لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت له العقوبة ضعفين)[1]. وعند عبد الرزاق[2]: (عن سالم عن أبيه قال: كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا نهى الناس عن شيء دخل إلى أهله أو قال جمع فقال: إني نهيت عن كذا وكذا، والناس إنما ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا وإن هِبتم هابوا، وإني والله لا أُوتَى برجل منكم وقع في شيء مما نهيت عنه الناس إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني، فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر).

ولقد أخبر الله تعالى عن نبيّه شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه يدعو قومه وأنه لا يريد أن

---

(١) ابن أبي شيبة ١١/ ١٢٥.
(٢) أخرجه في مصنّفه ١١/ ٣٤٣.

يخالفهم فيرتكب ما نهاهم عنه، أو يترك ما دعاهم إليه، وأنه ما يريد إلا إصلاحهم قَدْر طاقته واستطاعته، وما كان ذلك من نبي الله شعيب إلّا لعلمه بضرورة أن يكون الداعية قدوة حسنة للمدعوّين ليسمعوا كلامه ويأخذوا بنصحه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وليحذر الخطيب أن يأمر الناس بالمعروف ولا يأتيه، وينهاهم عن المنكر ويأتيه، فقد عاب الله على من يفعلون ذلك وأنكر عليهم أشد الإنكار، قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يُجاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَة فيُلْقى في النَّار، فتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النَّار**[1]**، فيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّار عَلَيْهِ فيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ! ما شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! قال: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ ولا آتِيهِ، وأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ**»[2].

ومما كتب مالكٌ إلى الرشيد رحمهما الله: إذا علِمْتَ عِلْمًا فليُرَ عَلَيْكَ أَثَرُهُ وسَمْتُهُ وسَكِينَتُهُ ووَقَارُهُ وحِلْمُهُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنبياء**»[3].

(١) أي تخرج أمعاؤه وتنصبّ بسرعة.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).
(٣) المدخل للعبدري ٢/ ١٦١.

وممّا نُسب إلى عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من نصب نفسه للناس إمامًا فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه)[1].
وقيل: مؤدّب نفسه ومعلّمها أحقّ بالإجلال من مؤدّب الناس ومعلّمهم.

ومن أعظم الطّوامّ أن يخالف قوله فعله، ويظهر بمظهر الذي يقول ولا يفعل، ويكذب ولا يصدق.

يا واعظَ الناس قد أصبحتَ متّهمًا ... إذ عِبتَ منهمْ أمورًا أنت تأتيها
أصبحتَ تنصحُهم بالوعظ مجتهدًا ... فالموبقات لَعَمْري أنت جانيها
تَعيب دنيا وناسًا راغبين لها ... وأنت أكثرُ منهم رغبةً فيها

وقيل:
يا أيُّها الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هلّا لِنَفْسِكَ كان ذَا التَّعْلِيمُ؟
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ مِنَ الضَّنَى ... ومِنَ الضَّنَى تُمْسِي وَأَنْتَ سَقِيمُ
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَمِيمُ
ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وهذا لا يعني ألّا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلّا من كان معصومًا من الخطأ والوقوع في المخالفة؛ لأن هذا من المستحيل، وإلّا لم يأمر بالمعروف ولم يَنْهَ عن المنكر أحد؛ إذ لا معصوم بعد المعصوم ﷺ،

(١) شرح نهج البلاغة ١٨/ ٢٢٠.

ولكن المقصود أن يكون الخطيب قدوة لغيره في فعل الخير وترك الشرّ، فيأتي من الخير ما استطاع إليه سبيلًا، ويتجنّب المنكر جملة وتفصيلًا، فإن وقع في مخالفة تاب وأناب ومضى في طريقه، ويجتهد في دعوة الناس وإصلاحهم مع العناية بإصلاح نفسه، روى مالكٌ عن ربيعةَ بْنِ عبد الرحمن أنّه سَمِعَ سعيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يقول: (لَوْ كان المَرْءُ لا يَأْمُرُ بِمَعْرُوفٍ ولا يَنْهَى عن مُنْكَرٍ حتّى لا يكونَ فيه شيءٌ؛ ما أَمَرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ ولا نَهَى عن مُنْكَرٍ)[1].

من ذا الذي ما ساء قطْ ومن له الحسنى فقطْ

سادسًا: حسن الخلق:

إن حسن الخلق هو حلية الخطيب وزينته، وشرفه بين الناس ومنزلته، والباعث الأصيل على قبول دعوته والاستماع لخطبته، ذلك أن حسن الخلق هو التطبيق العمليّ للدعوة، والترجمة الحقيقية للقدوة، والناس يَنشُدون دائمًا في القدوةِ الخصالَ الحميدة والشمائلَ الفريدة التي تغرس في نفوسهم الثقة بما يدعوهم إليه، وتبعث فيهم المثل العليا والقيم السامية، ولا ينجح صاحب دعوة ولا ذو فكرة، ولا ربّ مبدأ - دينيًا أو دنيويًّا - إن لم يكن ذا خلق كريم، ليّنًا صادقًا هيّنًا متواضعًا، ولا غَرْوَ فإن الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ - بعد التوحيد - هي إتمام مكارم الأخلاق؛ فعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاق**»[2].

---

(١) الموطّأ ١/ ٢٦٢، المدخل للعبدري ٣.

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٥٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والبزار (٨٩٤٩) والبيهقي (٢١٣٠١)، وصحّحه محقّق المسند شعيب الأرناؤوط، وصحّحه الألباني.

كما أن سوء الخلق يهدم ما يبني صاحبه - إن كان منه بناء - ويفسد الأعمال والأحوال؛ ففي الحديث: «**إِنَّ سُوءَ الخُلُقِ يُفْسِدُ العَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ**»(١).

فلا يكفي الخطيب أن يؤدي الشعائر ويكون كثير العبادة، بل يلزم أن يكون على خلق حسن وأدب جمّ؛ لأن عبادته لنفسه، وخُلقه للناس، وقد أمرنا النبي ﷺ بمراعاة الحقوق الثلاثة: حق الله تعالى، وحق النفس، وحق الناس؛ كما في حديث أبي ذرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُما كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها، وخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»(٢).

ولذا نرى النبي ﷺ يؤكّد على أهمّيّة مراعاة الخُلق في الحياة الاجتماعية والأسرية؛ فعن أبي حاتِم المُزَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا جاءكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقَهُ فأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأرضِ وفَسَادٌ**»، قالوا: يا رسولَ الله، وإِنْ كان فيه؟ قال: «**إذا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقَهُ فأَنْكِحُوهُ**» ثلاثَ مَرَّاتٍ(٣).

وبالجملة فإن حسن الخلق لا بدّ منه للخطيب الداعية لكي يكون مؤثّرًا في الناس ومقبولًا عندهم.

---

(١) أخرجه الطبراني «المعجم الكبير» (١٠٧٧٧) وفي «المعجم الأوسط» (٨٥٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٧٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (٣٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسّنه الألباني.
(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٩٢)، والترمذي (١٩٨٧) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.
(٣) أخرجه الترمذي (١٠٨٥)، والبيهقي (١٣٨٦٣)، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ. وحسّنه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

سابعًا: حُسْن السَّمْت والمظهر:

السمت يعني القصد والهَدْي والاستقامة، والمظهر ما يبدو من الإنسان في شكله الظاهر من النظافة واللباس وحسن الهيئة. فيجمل بالخطيب أن يكون نظيفًا في ثوبه وجسمه، أنيقًا في لباسه ومظهره، بتواضع ووقار لا بعجب ولا استكبار، لا يُرى عليه أثر للوسخ والإهمال فيُزري به في أعين الناس ويقلّل من قيمته ويذهب من هيبته؛ فإن للنفوس ميلًا إلى المظهر الحسن، وانجذابًا إلى الجمال واستئناسًا بالكمال، وتعلّقًا بالمألوف والمأنوس، وقد أمر ربنا عز وجل بأخذ الزينة، وهي ما خلق الله لنا من اللباس الحسن، فقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ يعني البَسوا ثيابكم واستروا عوراتكم عند كلّ صلاة، وكونوا على طهارة ونظافة.

وعن عبدِ الله بْنِ سَرْجِسَ المُزَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**السَّمْتُ الحَسَنُ، والتُّؤَدَةُ والاقتصادُ: جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[1].

وعن عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**». قال رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنَةً، قال: «**إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ**»[2]، وبطر الحق: دفعه وإنكاره ترفُّعًا، وغمط الناس: احتقارهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٠) وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ. وحسّنه الألباني، وأحمد من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصحّحه أحمد شاكر.

(٢) أخرجه مسلم (٩١).

وفي السنّة الشريفة ما يدلّ على استنكار أن يكون المرء في مظهر ينفّر الناس ويضرّ بالذوق العام، فكيف بمن ترمقه العيون وتشرئبّ له الأعناق؟! عن جابرِ بْنِ عبدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أَتَانا رسولُ اللهِ ﷺ، فرَأى رَجُلًا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّقَ شَعْرُهُ، فقال: «**أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ**»، وَرَأى رَجُلًا آخَرَ وعليه ثِيَابٌ وَسِخَةٌ، فقال: «**أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ**»[1]. ونبّه النبي ﷺ على مثل هذا ليوم الجمعة لأنه يوم اجتماع ولقاء؛ فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فرَأَى عَلَيْهِمْ ثِيَابَ النِّمَار، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ**»[2].

وعند أبي داود من حديث عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ - أَوْ مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدْتُمْ - أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ**»[3]. وعن نافعٍ (أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ يُقَلِّمُ أَظْفَارَهُ وَيَقُصُّ شَارِبَهُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ)[4].

ثامنًا: حسن السيرة وطهارة السريرة:

ما أحسن أن يكون المرء حسن السيرة! وما أجمل أن يكون نقيّ السريرة!

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٧)، وأبو داود (٤٠٦٢)، والنسائي (٨/ ١٨٣)، والحاكم (٧٣٨٠) وصحّحه ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٩٦)، وابن خزيمة (١٧٦٥)، وابن حبان (٢٧٧٧)، وصحّحه الألباني.
(٣) أخرجه أبو داود (١٠٨٠) وصحّحه الألباني. النِّمَار: ثياب يلبسها الأعراب. مهنته: المهْنة بفتح الميم وكسرها: الخدمة بالعمل ونحوه.
(٤) أخرجه البيهقيّ (٥٧٥٨) وصحّحه، وصحّحه النووي في الخلاصة.

طاهر المظهر والمخبر، يجمع بين جمالي الظاهر والباطن، سمعته بين الناس حسنة، وتاريخه غير ملوَّث بأخلاق رذيلة، ولا يعرف عنه إلّا حبّ الخير والدعوة للفضيلة، ليس بمخاصم ولا منازع، ولا مشاحن ولا مقاطع، وليس بحقود ولا حسود، معروفًا بالصدق والأمانة، نائيًا عن الكذب والخيانة، عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قِيلَ لِرسولِ الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قال: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، قالوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قال: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، ولَا بَغْيَ، ولَا غِلَّ، ولَا حَسَدَ**»(١). وهذا كلّه يُعينه على حمل أمانته وأداء رسالته.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦) وقال البوصيري: إسناده صحيح، وكذا صححه الحافظ العراقي.

المبحث الثاني

ثقافة الخطيب (العلوم الدينية والدنيوية)

إذا كان الخطيب يتحدّث إلى أقوام شتّى وذوي اتجاهات وأفكار متعدّدة وميول وثقافات متنوّعة؛ فإنه مضطرّ إلى أن يراعي تلك الميول المختلفة والثقافات المتنوّعة؛ ليتمكّن من إيصال رسالته إلى المخاطبين الذين تنوّعت مشاربهم وتعدّدت مآربهم؛ ليأخذ كلّ فريق منهم حاجته المعرفية والعاطفية ويجد عنده ضالّته وينال بغيته. وإذا كانت كلّ فئة منهم لها مستوًى في الفهم والتفكير ووسيلة في التوجيه والتعبير؛ فإن مهمّة الخطيب وقتئذ تكون صعبة؛ لأنه يحتاج إلى مراعاة كلّ فئة منهم في خطابه.

ولمّا كان للخطبة ركنان أساسيان تقوم عليهما، وهما الإقناع والاستمالة، كان لا بدّ من مراعاتهما؛ لأنّ لكلٍّ ما يناسبه من الإقناع العقلي بالأدلة والبراهين، ومن التأثير الوجداني والاستمالة العاطفية، وهذا كلّه يستلزم أن يكون الخطيب ذا ثقافة واسعة وشاملة، وعلى قدر كبير من الاطّلاع على شتّى العلوم والمعارف والثقافات، فيكون موسوعيًّا ولا يقتصر على ما هو فيه من الفنّ أو التخصّص؛ لأن العلوم والمعارف الأخرى روافد لعلمه الشرعي لا يستغني عنها؛ كعلوم الكون والعلوم الإنسانية من التاريخ واللغة والأدب والفنون ونحوها، فيأخذ من كلّ علم بطرف ليلمّ بها، ولا يُقْصَد هنا أن يتعمّق في العلوم كلّها؛ إذ ذاك بعيد المنال ولا يستطيعه كلّ أحد، وإنما المقصود الإلمام بها وخاصة ما يحتاج إليه منها، كما قيل: (تعلّمْ شيئًا عن شيء لتكون مثقّفًا، وتعلّمْ كلّ شيء عن شيء لتكون عالمًا)، وهذا تعريف

للثقافة من حيث العموم. وأما الثقافة التي تخصّ أمّة من الأمم فتعني: تراث تلك الأمّة الحضاري والفكري في كلّ جوانبه النظرية والعملية. ولا يكون أيّ خطيب حاذقًا فيها ومؤثّرًا في جمهوره تأثيرًا حقيقيًّا إلّا إذا كان مثقّفًا ثقافة عالية شاملة.

بَيْدَ أن تحصيل هذه الثقافة يحتاج إلى همّة لا تَفْتُر وعزيمة لا تَقْصُر، ونَهَم في القراءة والمطالعة لا ينقطع، ولذا كان كثير من العلماء السابقين مثقّفين ثقافة واسعة حتى أضحوا موسوعيين في العلوم والمعارف، فتجد أحدهم يلمّ بالفلك والرياضيات والطبّ والتاريخ واللغة والهندسة والأدب وغيرها، والسرّ في هذا يرجع إلى علوّ هممهم التي تعانق الجوزاء، ومُضِيّ عزائمهم التي تستميت للوصول إلى العلياء.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإني أُخبر عن حالي، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره فكأني وقعت على كنز.

ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحُميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن محمد بن الخشاب وكانت أحمالًا، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه. ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر وأنا بعدُ في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع)[1].

---

(١) صيد الخاطر ١٤٨.

ويبدأ من أراد أن يكون خطيبًا مثقّفًا حاذقًا بمعرفة علوم الشريعة وتعلّمها، وأهمّها ما يلي:

أولًا: علوم القرآن الكريم:

فالقرآن وحي الله إلى رسوله محمد ﷺ، يخاطب العقل والروح والوجدان، ويلبّي متطلّبات الحياة من جميع جوانبها من حيث الأصول والقواعد العامّة. وهو مصدر التشريع الأول، وعلى هذا فهو الدليل الأوّل للخطيب ولا يمكن أن يستغني عنه؛ لأنه حجته التي لا تضلّ، وبرهانه الذي لا يُفَلّ، وركنه الأقوى المعتبر.

والواجب على الخطيب نحو القرآن: أن يحفظ ما لا بدّ من حفظه ليستدلّ به عند الحاجة، ويستحسن أن يحفظه كلّه، ويحسن تلاوته وتجويده، وأن يتدبّر آياته ويتعلّم أحكامه، ويتعلّم أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والقراءات واللغات وقصص الأمم الماضية وأخبار ما هو كائن من الحوادث وأمور الحشر والمعاد، والأهمّ من هذا أن يحفظ حدوده قبل أن يحفظ حروفه، ويتأدّب بآدابه، قال عبدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذِ النَّاسُ نَائِمُون، وبِنَهَارِهِ إِذِ النَّاسُ مُفْطِرُون، وبِوَرَعِهِ إِذِ النَّاسُ يَخْلِطُون، وبِتَوَاضُعِهِ إِذِ النَّاسُ يَخْتَالُون، وبِحُزْنِهِ إِذِ النَّاسُ يَفْرَحُون، وبِبُكَائِهِ إِذِ النَّاسُ يَضْحَكُون، وبِصَمْتِهِ إِذِ النَّاسُ يَخُوضُون»[(١)].

ومن المفيد كثيرًا أن ينوّع الخطيب قراءاته ومطالعته في كتب التفسير؛ لأن لكلّ تفسير مزايا ربما لا يجدها في تفسير آخر، وقد تكون فيه عيوب

(١) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ٥٥، أخلاق أهل القرآن للآجرّي ١٠١.

لا توجد في غيره، كما أنّ ثَمَّة تفاسير تُعنى بالمأثور وتركّز على الروايات ووجوهها، ومن محاسنها تتبُّع الروايات والتفسير بما ثبت أو ورد عن النبي ﷺ أوّلًا ثم عن الصحابة ثم عن التابعين، فالأول - كما قال الزركشي - يبحث فيه عن صحة السند، والثاني ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسّره من حيث اللغة فهُمْ أهل اللسان فلا شكّ في اعتمادهم، أو بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شكّ فيه، وحينئذ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك، وإن تعذّر قُدّم ابن عباس؛ لأن النبي دعا له وبشّره بذلك حيث قال: «**اللهم علّمه التأويل**»، وقد رجّح الشافعي قول زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الفرائض لحديث «أفرضكم زيد». وأمّا ما ورد عن التابعين فحيث جاز الاعتماد فيما سبق فكذلك هنا، وإلّا وجب الاجتهاد. ومن عيوبها: وجود روايات ضعيفة وإسرائيلية وقصص خرافية.

ومن أبرز هذا النوع من التفاسير: تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير، والدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، وتفسير البغوي.

وثَمّة تفاسير تجنح إلى التفسير بالرأي، والمراد بالرأي هنا - كما قال الشيخ محمد حسين الذهبي - «الاجتهاد»، وعليه فالتفسير بالرأي: عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسِّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسِّر.

على أن التفسير بالرأي أنواع، ويمكن القول إنها تختصر بنوعين:

الأول: التفسير بالرأي الجائز: وهو ما وافق العربية ووافق القرآن والسنّة وراعى شروط التفسير، فهو محدود بحدود ومقيَّد بقيود لا مفرّ من مراعاتها.

والثاني: التفسير بالرأي المذموم: وهو ما خالف النوع الأول؛ كتفسير الفِرَق المبتدعة من المعتزلة والخوارج ونحوهم، والباطنية كالإسماعيلية والبابية والبهائية ونحوهم.

والصواب أن ما وافق كلام العرب مع موافقة الكتاب والسُّنَّة، وروعيت فيه شروط التفسير؛ فهو جائز لا بأس فيه.

وما كان على خلاف ذلك فليس بجائز؛ لأن مصدره مجرّد الرأي ومحض الهوى والذوق والتشهّي، ودافعه الانتصار لمذهب صاحبه أو معتقَده.

ومن كتب التفسير بالرأي عمومًا: مفاتيح الغيب للفخر الرازي، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، ولُباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، والبحر المحيط لأبي حيّان، وتفسير الجلالين للجلال المحلي والجلال السيوطي، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود.

وهنالك ألوان من التفاسير، وهي:

أوّلًا: اللون العلمي: ومنها الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهري، لكن فيه مبالغات كثيرة. وإعجاز القرآن للأديب المعروف مصطفى صادق الرافعي، عقد فيه بحثًا خاصًّا لموضوع «القرآن والعلوم».

ثانيًا: اللون المذهبي: ومنها آلاء الرحمن في تفسير القرآن لمؤلّفه محمد جواد النجفي، المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ. (جعفري). وهِمْيان الزاد إلى دار المعاد لمؤلّفه محمد بن يوسف إطفيش، المتوفى سنة ١٣٢٢هـ (إباضي).

ثالثًا: اللون الإلحادي: ولم أقف على تفسير كامل من هذا اللون، ولا أعلم تفسيرًا مستقلًّا بهذا، وإنما هي أبحاث ممسوخة ومقالات متعسّفة متفرقة هنا وهناك، فيها تعسّف بيّن وانتحال ممجوج لفهم القرآن وتفسير ألفاظه وليّ أعناق معانيه بالهوى والتشهّي ليس غير ذلك. والله حسيبهم.

رابعًا: اللون الأدبي الاجتماعي: ويمتاز التفسير في هذا العصر - كما يقول الشيخ الذهبي - بأنه يتلوّن باللّون الأدبي الاجتماعي، أيْ أن التفسير لم يعد يظهر عليه في هذا العصر ذلك الطابع الجافّ، بل يُعْنَى بمعالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أوّلًا على إظهار مواضع الدقّة في التعبير القرآني، ثم تُصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شائق، ثم يطبق النص القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع، ونُظُم العُمران. فكشف عن بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضح معانيه ومراميه، وأظهر ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع، وعالج مشاكل الأمة الإسلامية والأُمم عامة بما أرشد إليه القرآن.

ومن عيوب بعض هذه التفاسير أنها توسّعت فيما يسمّى بالحرية العقلية وتأوّلت بعض الحقائق الشرعية إلى المجاز والتمثيل، وتأثرت ببعض الفرق الضالّة المبتدعة كالمعتزلة في بعض آرائها وعقائدها، ومن أشهر هذا اللون من التفسير: تفسير جزء (عمّ) للشيخ محمد عبده، وتفسير القرآن الكريم المعروف بتفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا وهو تلميذ الشيخ محمد عبده ووريثه في التفسير، فالمنهج هو المنهج، والأفكار هي الأفكار، وقد

ابتدأ بأول القرآن وانتهى عند قوله تعالى في الآية [١٠١] من سورة يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ثم عاجلته المنيّة قبل أن يُتمّ تفسير القرآن.

ومن أعظم ما يؤخذ عليه في تفسيره أنه لا يتقيّد بأقوال المفسرين، وأن آراءه تقوم على حرية واسعة في الرأي واعتداد كبير بالفهم، ومن ذلك قوله بخلود مرتكب الكبيرة - كقتل النفس عمدًا وأكل الربا - في النار، ولا يرى السحر إلا ضربًا من التمويه والخداع، وليس له حقيقة كما يقوله أهل السُّنَّة، وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول المعتزلة من قبله، ويقرّر أنه لا معجزة للنبي ﷺ غير القرآن الكريم وينكر بعض معجزاته الكونية.

وهناك تفاسير أخرى ضربت عنها صفحًا لئلّا أطيل، والغاية من ذكرها التمثيل لا الحصر، وفيما ذكرت غُنية عمّا لم أذكره.

والخلاصة أن علاقة الخطيب بكتاب الله تعالى وعلومه يجب أن تكون وثيقة ليتمكّن من القيام بواجبه الخطابي والدعوي، وأن يعلم ما يصلح أن يتخذه مصدرًا أو مرجعًا من الكتب التي عُنيت بعلوم القرآن من التفسير وعلم القراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ونحوها، ويتجنّب القصص الواهية والأخبار الكاذبة والخرافات والأساطير والتفاسير التي تحشى كثيرًا بالفلسفة والجدل والكلام.

ثانيًا: السُّنّة النبوية:

ثم لا بدّ للخطيب من الاطلاع الكافي على السنة الشريفة، وهي كل ما جاء عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية أو خُلقية. أو: ما

صدر عن النبي ﷺ غير القرآن، فيشمل فعله، وتقريره، وكتابته، وإشارته، وهمّه، وتركه.

وأهميتها للخطيب أو الداعية بل لكلّ مسلم غير خافية؛ لأنها المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، وهي مفصِّلة (مفسِّرة) لِمُجْمَلِه، وموضِّحة لمُشكِلِه، ومخصِّصة لعامّه، ومقيِّدة لمُطلَقِه، قال أبو عبيد القاسم بن سلّام رحمه الله: (السنة هي المفسِّرة للتنزيل، والموضّحة لحدوده وشرائعه، ألا ترى أن الله تعالى أنزل في كتابه حين ذكر الحدود، فقال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور: ٢]، فجعله حكمًا عامًّا في الظاهر، على كلّ من زنى، ثم حكم رسول الله ﷺ في الثّيّبينِ بالرَّجم، وليس هذا بخلاف الكتاب، ولكنه لمّا فعل ذلك علم أن الله تعالى إنما عنى بالآية البِكرين دون غيرهما.

وكذلك لمّا ذكر الفرائض فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء: ١١]، فكانت الآية شاملة لكلّ أحد، فلمّا قال رسول الله ﷺ: «**لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم**» لم يكن هذا بخلاف التنزيل، ولكنْ علم أن الله تعالى إنّما عَنى بالموارثة أهلَ الدين الواحد دون أهل الدينين المختلفين.

وكذلك لمّا ذكر الوضوء فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ [المائدة: ٦]، ثم مسح رسول الله ﷺ على الخفّين وأمر به؛ تبيّن لنا أن الله إنّما عنى بغسل الأرجل، إذا كانت الأقدام بادية لا خفاف عليها، وكذلك شرائع القرآن كلّها إنّما نزلت جملًا حتى فسّرتها السنّة)(١).

(١) الفقيه والمتفقّه للخطيب البغدادي ١/ ١١٤.

وفيها أقسام الأحكام الشرعية: من فرض وندب وتحريم وكراهة وإباحة، كما أنها مصدر الأخلاق وينبوع القيم والفضائل والمثل العليا والتربية والتوجيه ووجوه السلوك الإنساني بعد القرآن الكريم.

وأجلّ مصادر السنة: صحيحا البخاري ومسلم ومسند الإمام أحمد وكتب السنن الأربعة: سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وصحيحا ابن خزيمة وابن حِبّان وموطّأ الإمام مالك وسنن البيهقي والدارقطني والدارمي.

ومن كتب الحديث العامة التي ينتفع بها الخطيب: الترغيب والترهيب للمنذري مع صحيحه وضعيفه للألباني، ورياض الصالحين للنووي، وجامع الأصول لابن الأثير، وغيرها.

ومن كتب التخريج: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير للحافظ ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، ومَجْمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ونَصْب الراية لأحاديث الهداية لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (المتوفى: ٧٦٢هـ)، وكشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني، وخلاصة الأحكام في مهمّات السنن وقواعد الإسلام للإمام النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، وغيرها.

وينبغي أن يُعنى أيضًا بشروح الحديث للاطّلاع على معانيها وفوائدها وما يستنبط منها من أحكام شرعية؛ مثل: فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر، وشروح أخرى له، والمنهاج شرح صحيح مسلم بن

الحجّاج للإمام النووي، وشرح سنن أبي داود للعلّامة عبد المحسن العبّاد، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للشيخ محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للعلّامة علي القاري، والتَّنوير شَرْح الجامع الصَّغِير لمحمد بن إسماعيل الصنعاني (المتوفى: ١١٨٢هـ)، ونحوها.

ومن ضمن كتب السنة ما يتعلق بسيرة النبي ﷺ العطرة وشمائله المباركة، ومن أبرزها وأنفعها: الشمائل المحمدية للترمذي، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري، والسيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وزاد المعاد لابن القيّم، ودلائل النبوّة للبيهقي، ونور اليقين في سيرة سيّد المرسلين للشيخ محمد الخضري، والرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري، وسواها كثير.

هذا، وعلى الخطيب أن يتحرّى الأخبار الثابتة والآثار الصحيحة، ويحذر الأخبار الموضوعة والواهية والقصص المخلوقة الكاذبة التي نُسِبت إلى الشريعة البريئة، سواء ذكرت في بعض كتب السنة ودواوينها أو في كتب الشمائل والسيرة.

ثالثًا: العقيدة الإسلامية:

العقيدة هي أُسُّ الدين الأعظم وركنه الأقوم، فعليها تبنى أعمال المكلَّفين صحّة أو فسادًا، والتوحيد حقّ الله على العبيد، وهو أول دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام لأقوامهم، وأول ما يجب على الآدميين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: ١- توحيد الربوبية. ٢- توحيد الألوهية. ٣- توحيد الأسماء والصفات، وقد اجتمعت في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

ويضادّ التوحيدَ الشركُ الذي هو أظلم الظلم وأعظم الذنب والإثم، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وينقسم الشرك إلى قسمين: أكبر وأصغر. فالشرك الأكبر هو: اتخاذ ندّ مع الله يُعبد كما يُعبد الله، وهو ناقل من ملّة الإسلام محبط للأعمال كلّها، ومنه: دعاء غير الله.

والشرك الأصغر: وهو كلّ ما كان ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه، أو ما جاء في النصوص تسميته شركًا ولم يصل إلى حدّ الشرك الأكبر، وهو يقع في هيئة العمل وفي أقوال اللسان؛ كيسير الرياء، والحلف بغير الله.

والمقصود هُنا أنه يلزم الخطيبَ معرفةُ التوحيد بأقسامه وما يجب لله تعالى وما لا يجوز عليه، وأن يعرف ما يضادّه من الشرك بكل أنواعه ووسائله.

وكذا ينبغي له أن يكون على علم بالمِلَل والنِّحَل والأديان والمذاهب والأفكار والمعتقدات التي يموج بها العالم؛ ليحذّر الناس منها ويبعدهم عنها، ويفنّدها بالأدلة الشرعية والعقلية. وأن يعرف وسائل السحرة والمشعبذين وطرقهم في إضلال الناس وإغوائهم وصدّهم عن سواء السبيل؛ ليكشف زيفهم ويعرّي ضلالهم ويدمغهم بالحق المبين.

وحقيق بالخطيب أن يجمع في ثقافته بين الأصالة والمعاصرة، فيكون ابن زمانه وعصره يتابع مستجدّات الحياة ويلامس واقع الناس، ولا ينكفئ على نفسه فيعيش في زمان غير زمانه، وفي الوقت نفسه يتمسك بالأصول والثوابت التي لا تقبل التبديل ولا تخضع للتغيير، وبهذا يكون متمسّكًا بأصالته ومواكبًا لعصريّته.

رابعًا: معرفة الأحكام الفقهيّة:

من المعروف أن الفقه معناه: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبُ من أدلتها التفصيلية؛ أي الأحكام الشرعية المتعلّقة بما يصدر عن الناس من أعمال كالصلاة والزكاة والصوم والحج والبيع ونحوها، المأخوذة اجتهادًا من الأدلة الجزئية الخاصّة بكلّ مسألة فقهية. ونهايته تعني: الفهم العميق للأشياء.

ومن يتصدّى للخطابة يحتاج إلى الفقه بالأحكام الشرعية، والفهم العميق للشريعة الإسلامية، ومعرفة مقاصد التشريع ومراعاة روح الشريعة. ولن يستطيع معالجة مشكلات الناس ومعضلاتهم ووصف الدواء الناجع لأدوائهم إلّا من تفقّه في الدين وعرف أحكامه وآدابه وما وَضَع من حلول شرعية لكلّ نازلة أو مشكلة بشرية، ولِيردّ على استفسارات الناس في حياتهم اليومية وقضاياهم الاجتماعية، ويفنّد ما يثار من أفكار وشبهات، ويجيب عمّا يعرض عليه من أسئلة، ويتلمّس الحلول لما يرى من مشكلات.

والفقه في الدين من علامات إرادة الله تعالى الخيرَ بالإنسان؛ فعن مُعاويةَ

بْنِ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(١).

ومن المهمّ أن يكون على معرفة بفقه الواقع؛ ليُحْسن التعامل مع القضايا المطروحة والمسائل المطروقة التي تشغل حياة الناس ودنيا البشر، فإن الخطيب الذي لم يتفقّه في الدين ولم يعرف واقع الحياة ومشاغل الناس لن يفلح في دعوته ولن يثمر في خطبته، بل سيكون في وادٍ والناس في واد آخر، وربّما نهى عن شيء وهو ليس بمنكر، وربما أمر بشيء وهو منكَر، أو أحلّ حرامًا أو حرّم حلالًا، وعلى هذا سيكون داعية سوء يفسد بدلًا من أن يصلح.

ومن المهمّ أيضًا أن يَعْلم أحكام الجمعة من خطبة وصلاة وشروطهما وآدابهما، فقد يتعرّض لمواقف ومسائل وهو على المنبر أو في الصلاة أو في غير ذلك، فإن كان فقيهًا تعامل بعلم ودراية وأجاب بفقه ورواية، وإن لم يكن كذلك فإمّا أن يعتذر عن الإجابة وفي هذا ما فيه من ظهور نقصه وقلّة علمه، وخاصّة إذا كانت المسألة مما لا ينبغي له أن يجهلها، وإمّا أن يتقحّمها فيجيب بغير علم ويفتي بدون فهم، وهذه أدهى وأمرّ من الأولى، ويكون داخلًا في عموم الحديث الذي رواه عبدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) مطوّلاً.
(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

ومن الكتب التي يستفاد منها في هذا المجال وهي من أيسر الكتب وأنفعها:

١- في فقه الحنفية: مراقي الفلاح للشُّرُنْبُلَالِيّ وحاشية الطحطاوي عليه، واللباب في شرح الكتاب للشيخ عبد الغني الميداني، وحاشية ابن عابدين، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني.

٢- وفي فقه المالكية: القوانين الفقهية لابن جُزَي، ومختصر خليل وشروحه، وبِداية المُجْتَهِد وكِفَاية المُقْتَصِد لابن رشد الحفيد.

٣- وفي فقه الشافعية: الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع للخطيب الشربيني، ومنهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه للنووي مع شروحه، وروضة الطالبين، والمجموع شرح المهذب وكلاهما للنووي أيضًا.

٤- وفي فقه الحنابلة: دليل الطالب لنيل المطالب لمرعي بن يوسف الكرمي، وزاد المستقنع في اختصار المقنع لشرف الدين موسى بن أحمد أبو النجا الحَجَّاوِيّ، وشروحه، وكَشَّاف القِنَاع عن الإقناع لمنصور بن يونس الْبُهُوتِيّ، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف لعلاء الدين علي بن سليمان المَرْداوي، والمغني لابن قدامة.

٥- وفي الفقه العام: الفقه الميسّر في ضوء الكتاب والسُّنّة لمجموعة من المؤلفين، وفقه السُّنّة لسيّد سابق. ومن المطوّلات: الموسوعة الفقهية الكويتية، والفقه الإسلامي وأدلته لأستاذنا د. وهبة الزحيلي رحمه الله.

خامسًا: الاطّلاع على العلوم الإنسانية:

العلوم ثلاثة أقسام:

أوّلها: العلوم الرياضية، وهي العلوم التي تدرس خواصّ الكمِّ من حيث إنه معدود أو مَقِيس؛ كالحساب والجبر والهندسة...

وثانيها: العلوم الطبيعية، وهي التي تدرس ظواهر الكون؛ كالفَلَك والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية وعلم الحيوان وعلم النبات والطبيعة والكيمياء...

وثالثها: العلوم الإنسانية، وهي التي تبحث في الإنسان، أو في المجتمع الإنساني. وتنقسم قسمين:

أحدهما: علوم فردية، وهي التي تدرس الإنسان من حيث إنه فرد؛ كالأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، والفيزيولوجيا الإنسانية (علم وظائف الأعضاء الإنسانية) والسيكولوجيا (علم النفس).

والآخر: علوم اجتماعية، وهي التي تدرس الإنسان من حيث إنه عضو في مجتمع، أيْ: تدرس العلاقات التي تتكون بين أفراد يضمّهم مجتمع؛ كعلم السياسة وعلم الحقوق وعلم الأديان وعلم الاقتصاد السياسي وعلم الأخلاق[1].

وبالجملة فالعلوم الإنسانية تشمل: علم الاجتماع وعلم النفس وعلم التربية وعلم السياسة وعلم الحقوق وعلم الاقتصاد والتاريخ وعلم اللغة الذي يصفه بعضهم بأنه أكثر العلوم الدقيقة إنسانية وأكثر العلوم الإنسانية دقّة.

---

(١) علم اللغة، علي عبد الواحد وافي ٢٦.

ومن المهمّ أن يُلمّ الخطيب بهذه العلوم لعلاقتها الوطيدة بالإنسان والمجتمع؛ إذ تعينه على معرفة نفسيّات من حوله من الناس، وطرق الدخول إلى قلوبهم وعقولهم وأساليب التأثير فيها، وتُثري معرفته وتُغني ثقافته، وخاصّة أن الخطابة ترتبط ارتباطًا لا ينفكّ عن هذه العلوم التي تتعلق بحياة الناس وشؤونهم الدينية والدنيوية، فهذه العلوم إذًا روافد لا بدّ منها لمن يخاطب الناس ويوجّههم، لكن لا بدّ من مراعاة أن تُستقَى هذه العلوم من مصادرها الموثوقة؛ لأن في غير المصادر الموثوقة دَخَلًا كبيرًا وزَغَلًا كثيرًا، وفيها لَوْثات عقلية، ونظريات فلسفية، تتنافى وأصل العقيدة الصحيحة ومبادئ الدين الحق.

ومن أهمّ ما يلزم الخطيبَ تعلّمُه: علوم اللغة العربية، وهي علوم الآلة التي تدرس من أجل فهم الشريعة، وعلى رأسها علم النحو وعلم الصرف وعلم البلاغة، ذلك أن هذه الثلاثة ترجع إلى بنية الكلمة وبنية الجملة والتراكيب اللفظية وطرق تحسينها.

فالنحو يختصّ بمعرفة أحوال أواخر الكلم، إعرابًا وبناء. وثمرته: صون اللسان عن الخطأ في كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ وكلام العرب، والاستعانة به على فهم الشريعة.

والصرف يختصّ بأصول يُعرفُ بها أحوالُ أبنية الكلمة - التي ليست بإعراب ولا بناء - اعتلالًا وصحّة، زيادة ونقصانًا. وثمرته: صون اللّسان عن الخطأ في المفردات، ومراعاة أصول اللُّغة في المُكاتبة.

والبلاغة: مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، أيْ باعتبار المعاني والأغراض وانتقاء الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام - المناسب لحال المخاطب - وموضوعاته.

فالنحو والصرف يصونان اللسان عن الخطأ في الكلام، ويمنعان القلم عن الزلل في الكتابة.

وتعلُّم هذه الثلاثة من علوم العربية خاصّةً فرضُ كفاية، قال الأصمعي: (إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل فيما قال النبي ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1]؛ لأنه ﷺ لم يكن لحّانًا ولم يلحن في حديثه، فمهما رويت عنه ولحنتَ فيه كذبتَ عليه)[2].

فيتعلّم من النحو ما تمسّ الحاجة إليه ويصون به لسانه عن الخطأ في كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ وكلام أهل العلم، ولا يلزمه أن يتوغّل فيه ويتعمّق في دراسته بحيث يَشغَله عمَّا هو أهمّ منه من علوم الشريعة وغيرها. ومثل ذلك في الصرف والبلاغة.

ولا يتوقف ذلك على هذه العلوم الثلاثة من العربية، بل ينبغي للخطيب أن ينهل من سائر الفروع الأخرى لها؛ كالشعر والحِكَم والأمثال والأدب، وكلّما ازداد من هذه العلوم وأكثرَ من الأدب: اتّسع أفقه ورقّ طبعه، وربّما رقّق القلوب القواسي، وألان الصخور الرّواسي، وألهب الوجد الخامد، وأذاب الدمع الجامد، قال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ: (وعندي أنه ينبغي لطالب العلم المشتغل بالحديث أن يكثر من درس الأدب واللغة، حتى يحسن فقه الحديث وهو كلام أفصح العرب وأقومهم لسانًا ﷺ)[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٨)، ومسلم «في مقدمة الصحيح» (٢) من حديث المغيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) روضة العقلاء ٢٢٣، معجم الأدباء ١/ ٥.
(٣) الباعث الحثيث ٢٤٠.

وأُمّات الكتب في الأدب أربعة كما ذكر ابن خلدون رَحِمَهُ اللهُ في مقدّمته إذْ قال: (وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمُبرِّد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها)[١].

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٥٨.

المبحث الثالث

صفات الخطيب

المطلب الأول: الصفات العقلية للخطيب (الصفات الفطرية والصفات المكتسبة):

إن العقل هبة من الله سبحانه وتعالى للإنسان، وهو أداة الإدراك ومناط التكليف ومُتعلَّقه؛ إذ لا تكليف مع فقدانه، وهو أداة التفكّر والتصوّر والتدبّر وآلة الفهم عن الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا يُتصوَّر تكليف بلا عقل؛ فإن الله إذا سَلب ما وَهَب أسقط ما أوجب، ولقد شرع الإسلام من الأحكام ما يحافظ بها على العقل، وعدَّه من الضروريات الخمسة التي أُنزلت الشرائع للمحافظة عليها، وهي: الدين، والنفس، والعِرْض (أو النَّسْل أو النَّسب)، والعقل، والمال.

فأوجب الإسلام العلم - وهو زينة العقل - ومدحه، ونهى عن الجهل وذمّه، وحرّم كل ما يُذهبه أو يغيّبه؛ كالخمر والمخدّرات وسائر المسكرات، وحثّ العقل على العمل فيما خُلق له، فلا يجوز إهماله ولا تعطيله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يبيّن منزلة العقل ووظيفته: (العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال وبه يكمل العلم والعمل؛ لكنه ليس مستقلًّا بذلك؛ بل هو غريزة في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين؛ فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار. وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها)(١).

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٨-٣٣٩.

وفي الحديث الثابت عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلاثةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وعَنِ الصَّبيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وعَنِ المَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ»(١).

وكثيرًا ما تُخْتَم آيات من كتاب الله تعالى بـ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾.

وعلى هذا فالعقل ضرورة لكلّ خطيب بَلْه الإنسان؛ لأنه آلة فهم الخطاب وأداة الإفهام للمخاطبين، ووعاء الحجّة والبرهان، ووسيلة الإقناع والاستمالة، فلا محالة أن يكون الخطيب ذا عقل راجح وذهن قادح، ورأي صائب وفكر ثاقب؛ ليستطيع مواجهة غيره بقوّة العلم وسلطان الحجّة والإقناع، ويؤهّله لخوض ميدان الدعوة عامّة والخطابة خاصّة بظفر ونجاح. قال الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور: (فأما شروط الخطيب الراجعة إلى ذِهْنِه فقد أرجعها أرسطو في كتابه في الخطابة إلى ثلاثة أشياء - هي كالأصول لها-:

أولها: معرفة الأقوال التي يحصل بها الإقناع. وثانيها: معرفة الأخلاق والفضائل الذاتية. وثالثها: معرفة الانفعالات، ومِنْ أيِّ شيءٍ تكون. ونحن نزيدها رابعًا وهو قُوَّة البَدَاهة في استحضار المعاني).

ثم أنشأ يبيّن معاني تلك الأصول: (أمّا معرفة الأقوالِ المُقْنِعَة فالمراد بها

(١) أخرجه أحمد (٢٥١٥٧)، وأبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٣٤٣٢)، وابن ماجه (٢٠٤١)، وصحّحه أحمد شاكر، والحاكم (٢٣٥٠) وصحّحه ووافقه الذهبي على شرط مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

معرفة الأَقْيِسَة الخَطابيَّة، وذلك يحصل من التمييز بين الأقيسة الصحيحة، والكُلِّيات وجزئياتها، والصادق والكاذب، ومراتب أنواع الحُجَّة، وذلك مما دُوِّن له علمُ المنطق، ولا نريدُ معرفتَه بصناعة المنطق؛ إذ قد كان الخطباءُ خطباءَ قبل تدوينِه، ولا يزال الخطباءُ خطباءَ ومنهم من لم يخطُر المنطق بباله، وإنما المراد أن تكون له مَلَكَةُ التمييز.

وأما معرفة الأخلاق والفضائل فالقصدُ من ذلك التمييزُ بين ما هو فضيلةٌ وضدِّه من الأفعال.

ومعرفة محاسِن الأخلاق ومساوئها... ولا غِنَى للخطيب عن معرفة أضداد الفضائل أيضًا.

وأمّا معرفة الانفعالات ومَنْشَئِها فهي من أكبر ما يعتمدُ عليه خطيبُ القوم؛ إذ به يُمَيِّزُ بين ما تنفعلُ به نفوس العامة، وما تنفعلُ به نفوس الخاصة، وما هو مُشترَكٌ بينهما، وبين أنواعِ الانفعالات خيرِها وشَرِّها، وقوَّتِها وضعفِها، وما هو مقبولٌ وما هو مردود. فعلى الخطيب ألّا يقيس الناسَ على حَذْوِ نفسِه؛ فإنَّ منهم مَنْ يُسَاويه، ومنهم مَنْ يفوقُه، ومنهم مَنْ هو دونه، وليس ما يزهد فيه الفتى - مثلًا - يزهد فيه الصَّبي، ولا ما يخاطَب به الجنديُّ في صَفِّ القتال يخاطَب به الحكيمُ؛ إذ رُبَّ مَحْمَدَةٍ عند هذا هي مَذَمَّةٌ عند الآخَر، فنحن ندعو كلًّا منهما - إذا أَرَدْنا منه انفعالًا - بما يُناسِب اعتقادَه)[1].

(١) أصول الإنشاء والخطابة، محمد الطاهر عاشور ص ١٣٠-١٣٢ بتصرف.

ومن أولى الصفات العقلية التي لا بدّ للخطيب أن يتصف بها:

١- رجاحة العقل: رَجَح الشيءُ رُجْحانًا ضدّ نَقَص، ورجح الحِلمُ رَجاحةً رَزُن، فرجاحة العقل تدلّ على نضجه وقوة إدراكه وكماله، فمن صفات الخطيب العقلية اللازمة: أن يكون ذا نظر ثاقب ورأي صائب، يضع الأمور في نصابها، ويميّز بين خَطَلها وصوابها، وهذا من الحكمة التي يرزقها الله تعالى من يختار من عباده؛ إذْ إنها جوهرة العقل وذروة سنامه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يقال: إن من أُعطي الحكمة والقرآن فقد أُعطي أفضل ما أعطي من جمع علم كتب الأولين من الصحف وغيرها، لأنه قال لأولئك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وسمّى هذا خيرًا كثيرًا؛ لأن هذا هو جوامع الكلم)[١].

والخطيب ذو العقل الراجح سيزن الأشياء بموازين دقيقة، ويعالج المشكلات والنوازل معالجة متأنّية، بل يعالج كلّ موقف يواجهه - في الخطبة أو غيرها - بحكمة وتُؤَدة، ويَنفُذ إلى حقائق الأشياء دون الاكتفاء بظواهرها، ويقارع الحجّة بالحجّة ويفنّد أدلة الخصم ويثبت الحق بالدليل النقلي والعقلي، ولا يكون للطيش إلى عقله سبيل، ولا للسَّفَه إلى تصرّفاته دليل.

وإنما تتكوّن رجاحة العقل بالفطرة والاكتساب وبكثرة المِران وطول التجربة والخبرة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٣٢٩-٣٣٠.

لَوْذَعِيٌّ له فؤادٌ ذكيٌّ ما له في ذكائه من ضَريب
أَلْمَعِيٌّ يرى بأوّلِ ظنٍّ آخرَ الأمرِ من وراء المغيب
لا يُرَوِّي ولا يُقَلِّبُ كفًّا وأكُفُّ الرجالِ في تقليب[1]

اللَّوذع واللَّوذعيّ: الخَفِيف الذَّكيّ الظَّرِيف الذِّهْن أَو الحَدِيد الفُؤَاد والنَّفس واللَّسِن الفصيح كَأَنَّهُ يلذع بالنَّار من ذكائه[2]. والألمعيّ هو الفطن الذكيّ الَّذي يتبيَّن عواقب الأمور بأدنى لمحة تلوح له[3].

قالوا: إذا كان الرَّجل ذا رأي وتَجْرِبة فهو داهِية. فإذا جال بِقاع الأَرْض واسْتَفَادَ التَّجارِب منها فهو باقِعة. فإذا نَقَّبَ في البلاد واستفاد العِلم والدَّهَاءَ فهو نِقَابٌ. فإذا كان ذا كَيْس وَلُبّ ونُكْرٍ فهو عِضٌّ. فإذا كَانَ حَدِيدَ الفؤاد فهو شَهْم. فإذا كان صادق الظَّنِّ جَيِّدَ الحَدْس فهو لَوذَعِيّ. فإذا كان ذَكِيًّا مُتَوَقِّدًا مُصِيبَ الرَّأْي فَهُوَ أَلْمَعِيّ[4].

٢- **قوّة الذَّاكرة:** يحتاج المرء إلى ذاكرة قوية، ومن يتصدّى لأمور العامة والخاصة أحوج إليها من غيره؛ لأنه يحتاج إلى تذكّر أفكاره وعناصر موضوعه وأدلّته التي حشدها لتقوية موقفه والانتصار لمبدئه وإظهار حجّته وقطع حجّة خصمه، وإلّا أصابه الإرتاج والحَصَر[5].

---

(١) ديوان ابن الرومي ٣٣٤.
(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٨٢٠.
(٣) الفروق اللغوية للعسكري ٨٥.
(٤) فقه اللغة ١١٤.
(٥) الإرتاج: أُرْتِجَ عَلَيْهِ: اسْتَغْلَقَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ. لسان العرب ٢/ ٢٨٠. الحَصَرُ: ضربٌ مِنَ العِيِّ. حَصِرَ الرجلُ حَصَرًا مِثْلُ تَعِبَ تَعَبًا، فَهُوَ حَصِرٌ: عَيِيَ فِي مَنْطِقِهِ؛ وقِيلَ: حَصِرَ: لَمْ يَقْدِرْ على الكَلَام. لسان العرب ٤/ ١٩٣.

وممّا يعين على تقوية الذاكرة:

أ- **التركيز**: ويسمّيه (ديل كارنيجي): الانطباع، وهو أحد أسرار قوة الذاكرة، فينبغي للخطيب أن يكون دقيقًا أثناء تحضيره خطبته وأن يركّز تفكيره فيما يقرأ؛ لترسخ المعلومات في ذهنه، ويعينه الجمع بين النظر إلى المكتوب وقراءته بصوت مسموع على التذكّر أكثر لاجتماع حاسّتين معًا في عملية التحضير. ومع المثابرة والتمرين تصبح ذاكرته فولاذية، يقول إيوجيني غرايس رئيس شركة (فولاذ بيت لحم): وقد كسب أكثر من مليون دولار وقتذاك: (إن هناك شيئًا أكثر أهميّة مما تعلمته ومارسته كلّ يوم ضمن أيّة ظروف: هو التركيز على العمل الذي أقوم به)[1].

وحيثما وُجدت العناية والاهتمام كانا عونًا قويًّا للذاكرة؛ إذْ إنك ترى أن المرء إذا اهتمّ بأمر كان حاضرًا في ذاكرته ومهيمنًا على تفكيره، فأكثر الأشياء حضورًا في ذاكرة الإنسان ما كان في دائرة رغبته واهتمامه.

ب- **التّكرار**: وهو إعادة المعلومات مرّة بعد مرّة وترديدها حتى تثبت في الذاكرة، ولهذه الوسيلة أثرها الجليّ في تذكّر المعلومات، فالمعلوم أن التكرار يرسّخ المكرَّر ويعين على حفظه كثيرًا، وهذا التكرار هو الذي سمّاه النبي ﷺ (التّعاهُد)؛ فعن أبي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**تَعَاهَدُوا هَذَا القُرْآنَ، فوالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ في عُقُلِهَا**» أخرجه البخاري ومسلم؛ أيْ: واظبوا عليه بالتلاوة والحفظ واطْلُبوا مِنْ أَنْفُسِكمُ المُذاكرة به.

---

(١) فنّ الخطابة، ديل كارنيجي ٥٤.

وواضح أن التكرار يحتاج إلى وقت كافٍ للقيام به، وهذا يعني أنه كلّما بكَّر الخطيب في إعداد خطبته كأسبوع مثلًا، كان أقدر على عملية التكرار وإعطاء فسحة من الوقت للتحضير وترسيخ المعلومات في ذهنه من جرّائها. فحقيقٌ بالخطيب أن يتّخذه وسيلة لحفظ مادّة خطبته وتثبيتها في ذاكرته.

ت- **اختيار الزمان والمكان المناسبين**: وللزمان والمكان أثر كبير في الذاكرة سلبًا أو إيجابًا، فأفضل الأوقات التي يستفيد منها الإنسان في التحضير وتنشيط الذاكرة: هَدْأة الليل وآخره، وبعد الفجر وآخر النهار بعد الراحة، وهذه هي الأوقات المناسبة بشكل عامّ، بَيْدَ أن الناس يختلفون في هذا بحسب أحوالهم وأمزجتهم. وأفضل الأمكنة ما كان نائيًا عن الضَّوضاء وجَلَبة الناس، وبعيدًا عن الأماكن شديدة الحرّ أو شديدة البرد، أو المناظر المقزِّزة والأصوات المنفِّرة.

ث- **الاستعانة بوسائل التذكّر**: كالخرائط الذهنيّة ورسوم التشجير وتوزيع الفقرات وترقيم العناصر واستعمال المجسّمات... إلخ.

ج- **ترابط الأفكار**: إن ذهننا هو بالأساس آلة ترابط الأفكار؛ كما يقول وليام جيمس. فمن أراد تقوية ذاكرته وتثبيت معلوماته فليجعل أفكاره مترابطة ببعضها بحيث إذا تحدّث عن فكرة طلبتْ أختَها، ولْتكنْ عناصر موضوعه متسلسلة بحيث يسلّم كلّ عنصر لما بعده، ويكون كلّ واحد منها نتيجة لسابقه ومقدّمة للاحقه. وهذا الترابط المتقَن والتسلسل المُحْكَم يسهّل للخطيب عملية تذكّرها بل انسيابها وتداعيها بشكل عفويّ أو قريب من ذلك.

ح- **المناقشة**: وهي وسيلة داعمة للذاكرة ومنشّطة للذهن ومعينة على تذكّر الأشياء، وهي طريقة كنّا نتبعها أيام الدراسة لتثبيت معلوماتنا وترسيخ محفوظاتنا، ولها نتائج إيجابية في الحفظ والدّقّة والتركيز في أخذ المعلومة وتسهيل تذكّرها حين طلبها، وهي تحاكي طريقة التكرار السالف ذكرها.

وعلى هذا يمكن للخطيب أن يتناقش مع زملائه أو بعض الناس الآخرين حول موضوع خطبته وأفكارها وعناصرها وأدلتها لغاية ترسيخها في ذهنه وتذكّرها عند الحاجة إليها.

هذا، وإن جهاز الذاكرة لدى الإنسان يقوم على مرتكزات ثلاثة وهي: الانطباع (التركيز) والتكرار وترابط الأفكار، وهي (قوانين التذكّر الطبيعية) كما ذكرها ديل كارنيجي في كتابه فنّ الخطابة ٥٣.

٣- **قوّة الملاحظة**: الملاحظة: مُفاعَلة مِنَ اللَّحْظ، وَهُوَ النَّظَرُ بِشِقِّ العَينِ الَّذِي يَلِي الصُّدْغَ. وقوّة المُلاحَظَة عند الإنسان: ما يَلْفِت انتباهَه إلى تمحيص الشَّيء وتمييز خصائصه لمعرفة كُنْه حقيقته، وإدراك مَراميه. وروح المُلاحَظَة: المهارة في النَّظر إلى الشَّيء بدقّة وانتباه[1].

وعلى هذا ينبغي أن يكون الخطيب قويّ الملاحظة دقيق النظرة، يتفحّص الأمور ويدقّق فيها بعمق ليتمكن من إدراكها على حقيقتها ثمّ مناقشتها ومعالجتها.

وقوّة الملاحظة يحتاج إليها الخطيب قبل أن يبدأ خطبته ليقْدرَ على معرفة واقعه الذي يعيشه، ومعرفة أحوال الناس وطبائعهم وأخلاقهم

---

(١) لسان العرب ٧/ ٤٥٨، معجم اللغة العربية المعاصرة ٣/ ١٩٩٨.

ورغباتهم وثقافاتهم؛ ليُعدّ الخطبة التي تناسب واقعهم وأحوالهم، ويتحدّثَ إليهم بالأسلوب الذي يلائمهم ويتوافق وثقافتهم.

كما يحتاج إليها أثناء الخطبة ليتفرّس أحوال جمهوره ويعرف إقبالهم على خطبته فيقبل ويسترسل، أو إدبارهم عنها فيلملم حديثه ويوجز، وهل هم راضون عنها متفاعلون معها؟ أم معرضون لا يلوون على شيء منها قد لحقهم الملل والسآمة؟ ويستطيع أن يعرف ذلك كلّه من ملامح وجوههم وحركات أجسادهم ونظرات أبصارهم. وهذا من التوسُّم (التفرّس) الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده، وكذا علامة على صدق الإيمان وحدّة الذكاء وقوّة الفطنة والدهاء؛ عن أَنَس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّ لِلهِ تبارَكَ وتعالى عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ**»[1].

٤- **حضور البديهة**: حاضر البديهة هو سريع الفهم والإدراك. وهو يعني سَداد الرأي عند المفاجأة، فالبديهة ضدُّ الرَّوِيَّة؛ أي: ما قيل أو فُعِل أوّلًا على عجل دون تقدُّم فكرة فيه. وهي دليل على حدّة الذكاء وشدّة الفطنة، ويدلّ عليها حسن التصرّف في المواقف المُحْرِجة.

قال أبو الحسن: أسرع الناس جوابًا عند البديهة قريش، ثم بقية العرب. وأحسن الجواب كلّه ما كان حاضرًا، مع إصابة معنًى وإيجاز لفظٍ[2].

ومن صفات الخطيب المحبّبة كونه حسن البديهة حاضر الجواب؛ لأنه قد يتعرض لمواقف محرجة واعتراضات من بعض السامعين، أو يطرأ

(١) أخرجه الطبراني المعجم الأوسط (٣/ ٢٠٧)، والبزار (١٣/ ٣٢٦)، وغيرهما وحسّنه الهيثمي والسَّخَاوي والألباني.
(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة ١/ ١٧٥ والعقد الفريد ٤/ ٩٠.

عليه عقب إلقائه خطبته، فسرعان ما تسعفه بديهته فيفحم معترضه ويلجمه ويتابع حديثه: إذا كان سريع البديهة حاضر الجواب، وإن لم يكن كذلك: تلعثم وتردّد وربما انقطع عن الكلام، وحينها سيفقد كثيرًا من هيبته وقد يخدش وجه دعوته، وخاصّة عند عوامّ الناس الذين تغيب عنهم حقائق الأشياء، وربّما ظنّوا أن الحق مع من يُحسن الكلام ويُقارع الأنام.

ومن المواقف الصعبة التي دلّت على حضور البديهة ما يروى أنه لمّا قَدِم يزيد بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشام واليًا عليها لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خطب الناس فأُرْتِج عليه، فعاد إلى الحمد لله، ثم أرتج عليه، فعاد إلى الحمد لله، ثم أرتج عليه، فقال: يا أهل الشّام، عسى الله أن يجعل من بعد عسر يسرًا، ومن بعد عِيٍّ بيانًا، وأنتم إلى إمام فاعل؛ أحوج منكم إلى إمام قائل. ثم نزل. فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه.

وصعِد بعض خلفاء بني العباس المنبر ليخطب، فسقطت على وجهه ذبابة، فطردها، فرجعت، فحَصِرَ وأُرْتِجَ عليه، فقال: أعوذ بالله السميع العليم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ ثم نزل، فاستُحْسِن ذلك منه.

وخطب عبد الله بن عامر بالبصرة في يوم أَضْحًى، فأُرتج عليه، فمكث ساعة، ثم قال: والله لا أجمع عليكم عِيًّا ولُؤْمًا، من أخذ شاة من السوق فهي له، وثمنها عليّ[1].

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٢٨٠. وانظر: جمهرة خطب العرب ٣/ ٣٥٠-٣٥٦.

وبينا خطيب يخطب - وهو يذكر حديثًا - إذ اعترضه أحد السامعين بأن الحديث ضعيف، فأجابه الخطيب من فوره: (نسمّنه). وهذا وإن كان الجواب غير سديد لكنه أسكت المعترِض وثبّت قدم الخطيب.

٥- **غزارة الفكر وسعة المعارف:** إذا كان الجسم لا يقوم إلا بالطعام والشراب، والروح لا غذاء لها إلا بالإيمان وطاعة الرحمن، فإن العقل يتغذّى بالعلوم والمعارف، فهي جوهره وزينته، وفضله وقيمته، ولمّا كانت خطبة الجمعة لا تقتصر على فنّ واحد من الفنون ولا تكتفي بعلم منفرد عن سائر العلوم؛ كان الخطيب في حاجة إلى عقل يفكّر ويتدبّر، وإلى إلمام بعلوم شتى كلّها تعينه وترفده في إعداد الخطبة وأدائها، وعلى هذا فالواجب على الخطيب أن يلمّ بالعلوم الشرعية أوّلًا ثم بسائر العلوم الأخرى التي تكون عونًا - بعد الله - على أداء رسالته؛ فيجمع بين أصالة القديم وقوّته، وروعة الحديث وجِدّته؛ لأن إحاطته بالعلوم وجمعَه بينها تسهّل له إيصال ما يريد إيصاله للناس بأحسن السبل وأيسر الطرق، مع القدرة على التحقيق والتوثيق، والمهارة في التصوير والتعبير، والمَكِنَة في التأثير والتغيير.

فليكن الخطيب غزيرًا في أفكاره، واسعًا في تفكيره، عميقًا في تفكّره وتدبّره، موسوعيًّا في علومه ومعارفه، وإنما يتحصّل له ذلك بسعة الاطّلاع وكثرة الممارسة، مع فؤاد ذكيّ وعقل ألمعيّ، وهمّة عالية وطموح يرنو إلى الثريّا ولا يقنع بما دون النجوم.

وإذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، والهموم بقدر الهِمَم، وصدق من قال:

على قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ ... وتَأتي على قَدرِ الكِرامِ المَكارِمُ
وتَعظُمُ في عَينِ الصَّغيرِ صِغارُها ... وتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

٦-الحِذْق في إدراك مقتضى الحال والقدرة على مراعاته: فلكلّ جماعة من الناس ما يناسبها من الخطاب؛ إذْ لكلّ مقام مقال، ولكلّ زمان رجال، والحاذق من يعرف الطباع الغالبة على الناس، ويلاحظ مستوياتهم وطبقاتهم، وأحوالهم العقلية والنفسية، فيختار لكلّ طائفة ما يلائمها من الألفاظ ويصطفي ما يناسبها من الأساليب، ولا يحسن أن يخاطبهم بخطاب واحد، بل يكون حكيمًا يضع كلّ شيء في موضعه النافع، ويداوي كلّ علّة بدوائها الناجع.

فالجماعة الهائجة الثائرة تُخاطَب بعبارات رقيقة هادئة تخفّف من شدّة ثورتها وتكسر حدّة سَوْرتها، والجماعة الخاملة الفاترة تخاطب بعبارات تثير حميّتها وتوقظ همّتها.

والجماعة العنيدة الفائرة تخاطب بالعزم والحزم مَشُوبينِ بالعطف والرحمة، فيجمع بين سيف الترهيب ولطف الترغيب.

والسلاطين وأهل السطوة والنفوذ يغلب عليهم الترفّع والأنفة والعجب والخيلاء والتفاخر والتكاثر، ويشقّ عليهم النصح ويأبون التوجيه، ويحبّون المحمدة ويُبغضون المذمّة، يستهويهم الإطراء ويستميلهم الثناء، كما يغلب عليهم المروءة والبذل وعلو الهمّة، فلا بدّ من التلطّف لهم واللين معهم.

والأغنياء يغلب عليهم الصَّلَف والتِّيه واتّباع الشهوة والهوى، يطغيهم

المال ويستهويهم الجاه، يهيمن عليهم الحرص على الدنيا والتجافي عن الآخرة، يترفّعون على الفقراء ويتعاظمون على البسطاء، وخاصّة من كان منهم حديث عهد بالنعمة. وهؤلاء يتحبّب إليهم بالتواضع من غير مذلّة، وبالاحترام من غير هوان ولا طمع، وبذكر فضل الغنى إذا رافقه إنفاق وتواضع لله وخلقه، والتذكير بمآثر الأغنياء من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وبمحبة الله للغني الشاكر، ونحو ذلك.

والعلماء والأدباء والنبلاء قوم حسُنت أخلاقهم وطابت خصالهم، وقلّ طمعهم وازدادت قناعتهم، وهذه الطائفة من الناس تأسرهم الكلمة الطيبة، وتؤثّر فيهم الأحدوثة الجميلة، ويعجبهم أن يُنعَتوا بالفضل والتميّز، وأن يُكْرَموا ويعظَّموا ويُحترموا، وليس فيهم ما في الطائفتين قبلهم.

وعامة الناس تغلب عليهم البساطة وقلّة التكلّف، وأصل الفطرة وطيب العنصر - وإن كانوا يتمايزون في هذا - وحسن السيرة ونقاء السريرة. وهؤلاء ينتفعون باللهجة الصادقة، ويتأثّرون بالقصّة المعبّرة، ويغنيهم قليل الكلام عن كثيره، وتستميلهم المواقف الجليلة والأخلاق النبيلة، ولطف المعاشرة وحسن المعاملة.

وعلى قدر معرفة الخطيب بأحوال هذه الطبقات من الناس وخبرته بأخلاقهم وطبائعهم، وإدراكه اختلافَ بيئاتهم ومشاربهم، وبقدر إعطائه كلّ طبقة ما يناسبها، ومراعاة مقتضيات أحوالهم؛ شِيبًا وشبابًا، متعلِّمين وأمّيّين، عقلانيين وعاطفيين: يكون تأثيره فيهم ونجاحه في دعوته[1].

(١) انظر: فنّ الخطابة، علي محفوظ ٤٢-٤٣، فن الخطابة لأبي زهرة ٤٥-٤٦.

المطلب الثاني: الصفات النفسية:

١- **رباطة الجأش**: إن الخطيب قائد يقود الناس إلى المكارم، وموجِّه يوجههم إلى الخير والمعالي، ومن هذا شأنه فقَمِنٌ به أن يكون شديد النَّفْس ثابت القلب والقدم، غير مضطرب ولا وَجِل، فلا يتهيّب الناس ولا يتخوّف من لقائهم ولا مواجهتهم ولا يتلعثم بين أيديهم، بل يُضفي من قوّته النفسية قوة إلى نفوسهم، ويُفيض من ثبات قلبه ثباتًا لقلوبهم، ويتفنّن بألوان الكلام ويتقلّب بفنونه.

ورباطة جأش الخطيب نابعة من داخله العامر بالتقوى، ومن عمق إيمانه بما يدعو الناس إليه، ومن هدفه السامي وغايته النبيلة في نصرة الحق والثبات عليه.

ومتى فقد هذه الدعائم وخاف الناس وتهيّبهم: اعترته الرِّعْدَة والرِّعْشَة، وعلته الحَيرة والدَّهْشَة، وارفضّ جسمه عرقًا وحُبس لسانه واضطرب جَنانه، وهذه حال تستدعي إعراض الناس عنه وصغره في أعينهم وهوانه عليهم، فلا يتأثرون به ولا بكلامه بل سيذهب أدراج الرياح.

تأمّل موقف أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة كيف كان قويًّا فأفاض من رباطة جأشه وثبات إيمانه على غيره، عن عائشةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رسولَ الله ﷺ ماتَ وأبو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ - قال إسماعيلُ: يَعْنِي بالعالِيَة - فقامَ عُمَرُ يَقُولُ: واللهِ ما مَاتَ رسولُ الله ﷺ، قالتْ: وقال عُمَرُ: واللهِ ما كَانَ يَقَعُ في نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، ولَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ، فلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وأَرْجُلَهُمْ.

فجاءَ أبو بكرٍ فكَشَفَ عَنْ رسولِ الله ﷺ فقبَّلَهُ، قال: بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا ومَيِّتًا، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لا يُذِيقُكَ اللهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فقال: أَيُّها الحَالِفُ! على رِسْلِكَ، فلَمَّا تكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فحَمِدَ اللهَ أَبُو بَكْرٍ وأَثْنَى عَلَيْهِ، وقال: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فإنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، ومَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤][(١)].

٢- **قوّة العاطفة**: إن العاطفة تعبّر عن أشواق النفس وتطلّعات الروح، وتتغلغل في أعماق النفس البشرية لتبثّ مكنوناتها. وذكرنا غير مرّة أنّ الخطابة المؤثِّرة تقوم على عنصرين أساسَيْنِ هما: العقل والوجدان، فالعقل يؤثّر في الآخرين بالحجّة والإقناع، والوجدان يستميلهم بالعاطفة المتلهّبة ويوقظ مشاعرهم بالحماسة المتوقّدة، المنبعثينِ من ألم الجَوَى وشدّة الغيرة والأسى على قومه أو على مبدئه.

وحيثما وُجد هذان العنصران - مع مراعاة الألفاظِ المنتقاة المناسبة للموضوع حزنًا أو فرحًا، حبًّا أو بغضًا، حماسًا أو تهدئة، رغبة أو رهبة، والأسلوبِ الموافق المتناسب قوة ووضوحًا - آتت الخطبة أُكلها وأينعت ثمارها، وانطلقت انطلاق السيل المندفع؛ فتحرّك العقول بالبراهين القاطعة والأدلة الدامغة، وتستثير القلوب بإثارة العواطف الكامنة، وتنتزع أهواء النفوس وخلجات الصدور.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧).

فإذا ما خلت من العاطفة المشبوبة وتجرّدت من الانفعال المتوقّد، وانطفأت جذوة نارها وخمد زند أُوارها: غاب عنصر تأثيرها، وتلاشى أريج عبيرها، وأضحت هامدة بلا روح، وخامدة بدون وهج.

فصدق العاطفة وتوهّجها وحرارة الانفعال؛ مع صحّة البرهنة والاستدلال: تنفع الخطيب أيّما نفع.

ومن هنا ندرك سرّ افتتاح النبي ﷺ خطبه بالحماس والانفعال؛ كما روى ذلك جابر رضي الله عنه: كَانَ رسولُ الله ﷺ إذا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وعَلَا صَوْتُهُ، واشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ[1]. قال النووي رحمه الله: (يستحبّ للخطيب أن يفخّم أمر الخطبة ويرفع صوته ويجزل كلامه ويكون مطابقًا للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب أو ترهيب، ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمرًا عظيمًا وتحديده خطبًا جسيمًا)[2]. ولا يفوت الخطيب النَّبيه أن العاطفة لا بدّ أن تكون خاضعة للشرع ومقاصده، فلا يجوز أن يطلق لها العِنان، فربّ عاطفة دمّرت وما عمّرت.

٣- قوّة النُّفوذ (قوّة الشخصية): إن قوة الشخصية تعني حضور الإنسان بقوّة وتأثيره بشدّة في الآخرين، فهو يؤثّر في غيره تأثيرًا كبيرًا، ويَنْفُذ إلى أعماقهم فيهزّها هزًّا عظيمًا.

وهذا النفوذ هِبَة ربّانيّة ومنحة إلهيّة، وهي من أجلّ النعم المعنوية التي تكسب صاحبها محبة في القلوب وجمالًا، وتكسوه في أعين الناظرين

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).
(٢) شرح النووي ٦/ ١٥٦.

مهابة وإجلالًا، وإحدى سمات القيادة الناجحة المؤثِّرة، ومن أهمّ صفات القائد الصالحة المتجذِّرة. وعلى الرغم من كونها وَهْبية إلّا أنه يمكن للمرء أن ينمّيها بالتدريب والممارسة؛ ليجمع بين طرفيها الوهبيّ والكسبيّ.

ولأن الخطابة موضع إرشاد وتوجيه، ووسيلة نصح وتنبيه، ومحضن قيادة وتربية: اقتضت أن يكون الخطيب أقوى من المخاطَبين نفسًا، وأثبتهم قلبًا، وأكثرهم عزمًا وحزمًا، ذلك أن الخطيب هو قدوتهم إقدامًا وإحجامًا، وفعلًا وتركًا، فهو القائد المُلْهَم والمُوجِّه المُعلَّم والقويّ المُعظَّم. ومتى فقد هذه الخصال: انفرط عِقد تأثيره، وضاع حسن توجيهه وتدبيره، فلا يصلح لقيادة الجماهير خائرُ القُوَى، ضعيف الفؤاد، مضطرب النفس، مهزوم الإرادة؛ الذي يقف بينهم مهزوزًا مهزومًا، فليت شعري كيف يؤثّر في الناس ويقودهم من هو عليلٌ كليلٌ؟! و(فاقد الشيء لا يعطيه).

إن قيادة الناس - إنْ في الخطابة أو في السياسة أو في الحرب أو في السلم... - تحتاج إلى قائد قويّ صاحبِ عقيدة راسخة، ورجلِ مواقف ثابتة، إنْ في الحرب فخاض غمارها وتوسّط غبارها: كان شجاعًا مقدامًا، وإن أراد السلم كان بردًا وسلامًا، أو علا منبرًا كان خطيبًا مِصْقَعًا، أو شارك في مِرْبَد كان شاعرًا مُفْلِقًا، أو تسنَّم محضنًا علميًّا كان مُلْهَمًا، إليه النهاية في الهيبة والوقار، وعنده تبلغ الغاية في المفاخر والمآثر، شديدًا في غير عنف، ليّنًا في غير ضعف؛ ولهذا لمّا طلب أبو ذرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من النبي ﷺ أن يولّيه عملًا فيه ولاية على الناس لم يولّه؛ معلِّلًا له بأنه ضعيف، والضعيف لا يصلح لموضع قيادة أو مسؤولية، عن أبي

ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ: يا رسولَ الله، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قال: فضَرَبَ بِيَدِهِ على مَنْكِبِي، ثُمَّ قال: «**يا أبا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وإِنَّهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خِزْيٌ ونَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فيها**»(١).

ولكي تكون للخطيب هيبته وقوته وتوقيره لا مناص من أن يبتعد عن كثرة المزاح واللهو واللعب، وأن يضع الجدّ في موضعه، والمزاح في موضعه، بلا إفراط ولا تفريط:

ووَضْعُ النَّدى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَا

مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

وجملة القول: إنك لن تجد - في الحاضر ولا في الغابر - امرَأً متميّزًا، أو عبقريًّا فذًّا، أو قائدًا مظفَّرًا؛ إلّا كان ذا شخصية فذّة ونفوذ عميق. والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف؛ كما روى أبو هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»(٢).

٤- **التودّد إلى الناس بلا خوف منهم ولا طمع**: إن طبيعة رسالة الخطيب بين الناس من كونه داعية لهم إلى المكارم والفضائل، وترك القبائح والرذائل: تستوجب مدّ جسور المحبة والمودة، والاتصال بنفوس من يخاطبهم والتقرّب منهم بقلبه وروحه معًا؛ ليحبهم ويحبوه ويألفهم ويألفوه، فإذا تمّ ذلك تقاربت النفوس وائتلفت القلوب، مع تواضعه

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

لهم وشفقته عليهم ومحبته الخير لهم، فيقابلون حبّه بحبّ ومودّته بمودّة وإلفه بإلف، وخير الناس من يألف الناس ويألفونه؛ فعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحَاسِنُهُمْ أَخْلَاقًا: الْمُوَطَّؤونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ**»(١).

والتودّد من باب الإحسان الذي يتملّك القلوب ويأسر النفوس؛ كما قال أبو الفتح البُسْتِيُّ: أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلوبَهُمُ فطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإنسانَ إحْسَانُ

ومن مقتضيات مودّته لمخاطَبيه: أن يخاطبهم - وهو يدعوهم إلى التمسّك بالمحاسن واجتناب المقابح - بأحسن الألفاظ وأعظمها، ويمدحهم بأفضل المَمادح وأكرمها، ويَذْكرهم بأكرم النعوت وأقومها؛ بعيدًا عن الغلوّ والجفاء معًا.

وعليه - وهو يدعوهم لذلك - ألّا يظهر منه ما يشفّ عن مطامع ذاتية أو مصالح شخصية من دعوته، بل إنما يفعل ذلك قيامًا بالواجب الشرعي في النصح والإرشاد، وحبّ الخير والهداية للعباد، وليس ثَمّ مطمع شخصي ولا غرض دنيوي من ورائها؛ فإن الناس إن رأوه لا يطلب حظّ نفسه أجلّوه وأحبّوه وقبلوا ما يسمعونه ويرونه منه وأقبلوا عليه، فالحسن عندهم ما يستحسنه، والقبيح عندهم ما يستقبحه، وإلّا صغُر في أعينهم وهان على أنفسهم ونَفَروا منه ولم يقبلوا منه ما يدعوهم إليه.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٣٥٠) والصغير، وصحّحه الألباني كما في الصحيحة رقم (٧٥١)، وأخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد بلفظ آخر وصحّحه محققه الأرناؤوط.

ومن المواقف التي تذكر في هذا الجانب من التودّد ونفي الغرض الذاتي: ما عُرف من خطبة يزيد بن الوليد بعد قتله الوليد بن يزيد حيث (حَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! والله ما خرجت أشَرًا ولا بَطَرًا ولَا حِرْصًا على الدنيا ولا رغبةً في الملك، وما بي إطراءُ نفسي، وإني لظَلُومٌ لها إن لم يرحَمْني الله، ولكن خرجت غَضَبًا لله ودِينه، داعيًا إلى الله وإلى سنّة نبيّه، لَمّا هُدمت معالمُ الهدى، وأُطفئ نورُ أهل التقوى، وظَهَر الجبّار العَنِيد، المستحِلّ لكلّ حُرْمة، والراكبُ لكل بِدْعة، الكافرُ بيوم الحساب، وإنه لَابن عَمِّي في النَّسَب وكَفِيئي في الحَسَب؛ فلمّا رأيتُ ذلك استخرتُ الله في أمره وسألته ألا يَكِلَني إلى نفسي، ودعوتُ إلى ذلك مَنْ أجابني من أهل وِلايتي، حتى أراح الله منه العبادَ، وطهّر منه البلاد، بحَوْله وقُوّته لا بحولي وقوتي)[1].

٥- **قوّة الثبات واليقين:** وقد يعبّر عنه بعضهم بـ **(الثقة بالنفس)**، ولكني عدلت عن هذا لأن فيها مخالفة لحديث النبي ﷺ الذي أخرجه النسائي والحاكم عن أَنَسِ بْنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبيُّ ﷺ لفاطمةَ: «**ما يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي ما أُوصِيكِ به، أَنْ تَقُولِي إذا أَصْبَحْتِ وإذا أَمْسَيْتِ: يا حَيُّ يا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّه، ولَا تَكِلْنِي إلى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**». وعند الترمذي: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا كَرَبَهُ أَمْرٌ قال: «**يا حَيُّ يا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**». وحسّن الحديث الأول الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، وحسّنهما كليهما الألباني. وفي الحديثين يبرأ

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٥٥-٢٥٦، عيون الأخبار ١/ ٢٢٧، البيان والتبيين ٢/ ٩٦-٩٧.

النبي ﷺ من الاعتماد على نفسه: «**وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»، ولو كان يثق فيها ما تبرّأ من الاعتماد عليها؛ فإن من وُكِل إلى نفسه فقد وُكل إلى عَجْز وضعف وفاقة.

ولا يخفى أن الخطيب - كغيره من البشر - يتعرّض لشبهات العقول وشهوات النفوس، لكنّ رسوخ إيمانه بالله تعالى وقوة يقينه بعدالة قضيّته واستعداده العلميّ الواعي وفهمه العميق لدعوته يَحُول دون تأثّره بالشبهات والشهوات التي تُورَد عليه، وما أكثرها! بل يثبت أمامها شامخًا، ويستمسك بدينه راسخًا، فالشبهات تُدرأ بالعلم النافع، والشهوات تُدفع بالإيمان القاطع، إذًا الصبر واليقين هما جناحا المؤمن إلى الله تعالى؛ فبالصبر تُترك الشهوات وباليقين تُدفع الشبهات، ولا تُنال الإمامة في الدين إلا بهذين الاثنين: الصبر واليقين؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

ولا ينحني بين يدي عواصف المُثبِّطين، ولا ينثني أمام قواصف المُرْجِفين، التي تحاربه بشراسة لِثَنيه عن مبدئه وزحزحته عن دعوته، وبما لديه من قدرة ذهنية وقوة نفسية وطاقة إيمانية يقهر كلّ ما يواجهه من مواقف وما يلقاه من صِعاب، فنفس الخطيب الداعية تؤثّر ولا تكاد تتأثّر، وتغيّر ولا تكاد تتغيّر، كيف لا؟ وقدوته النبي محمد ﷺ ومنْ قبله إخوانه الأنبياء عليهم السلام، ومن بعدهم الصّدّيقون والأولياء والصالحون؛ الذين تعرّضوا لألوان الأذى وأصناف العذاب، فثبتوا ولم يتزحزحوا عن إيمانهم قِيدَ أَنمَلَة، وأخذوا من الصبر أجمله، ومن الشموخ أنبله،

ومن اليقين أرسخه، قال الله جلّ جلاله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١].

والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؛ كما سبق في الحديث.

وقد كان النبي ﷺ يدعو بأدعية يسأل الله تعالى فيها الثبات واليقين، ومنها:

عن أَنَسٍ رضي الله عنه قال: كَانَ النبيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يا مُقَلِّبَ القُلُوب، ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ**»(١)، وفي الباب عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، وأُمِّ سَلَمَةَ وعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، وعائشةَ وأبي ذَرٍّ.

وعن عائشةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: ما رَفَعَ رسولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ إلى السماء إلَّا قال: «**يا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي على طَاعَتِكَ**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٦٩٦)، والترمذي (٢١٤٠) وحسّنه، وابن ماجه (٣٨٣٤)، والحاكم (٣١٤١) من حديث أنس والنوّاس، وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (٩٤٢٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٣٦)، وصحّحه محقّق المسند شعيب الأرناؤوط.

وعن أَنَسِ بْنِ مالِكٍ رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَخْدُمُ رسولَ اللهِ ﷺ كُلَّمَا نَزَلَ، فكُنْتُ أَسْمَعُهُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ، والبُخْلِ والجُبْنِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ وغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»[١].

٦- **التفاؤل**: التفاؤل ضدّ التشاؤم، والأصل في المؤمن التفاؤل، وهو علامة على صحّة الإيمان وقوته، ودليل على حسن الظن بالله عز وجل. وما أحسن أن يكون الخطيب مفعمًا بتفاؤل الواثق ومُشْبَعًا بأمل الصادق، لا يجد التشاؤم إلى نفسه مسلكًا، ولا يلقى اليأس والقنوط في قلبه موضعًا.

والحياة الدنيا - كما هو معلوم - كثيرة التقلّب لا تستقيم لأحد على حال ولا تبقى على قرار، ولا تصفو لمخلوق من المنغّصات والأكدار؛ لذا كان لا محالة من أن يلاقي المؤمن شدائدها بقلب مطمئنّ، ووجه مستبشر، وثغر باسم، وأمل عريض، فإذا حارب كان واثقًا بالنصر، وإذا أعسر لم ينقطع رجاؤه في تبدّل العسر إلى يسر، وإذا مرض غلب رجاؤه بالشفاء والطُّهر...

والخطيب المتفائل يبدّد دياجير الظلام بشعاع الأمل وضياء الرجاء، ويحوّل المحنة إلى منحة، وألم المصائب والشدائد إلى لذّة بالصبر والاحتساب وطلب الثواب، إنه يصنع من الليمون الحامض شرابًا حلوًا. ولا يصلح أن يقود الجماهير قَنُوط يؤوس؛ لأن القُنوط يطفئ جذوة الأمل في النفوس، واليأس يقطع خيوط الرجاء من القلوب، وهما يقتلان بواعث الجِدّ والعمل، ويُسْلمان أصحابهما إلى السآمة والملل.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦٩)، ومسلم (٢٧٠٦).

إن الخطيب الناجح يقود الناس ويُفْرِغ من نفسه الملأى بالرجاء والتفاؤل والاستبشار أملًا ورجاء واستبشارًا في نفوسهم، فإن الذين يحسنون صناعة الحياة، ويتقنون صياغة التاريخ، ويجيدون بناء الحضارة: هم أكثر الناس أملًا وتفاؤلًا، وأقلّهم يأسًا وتشاؤمًا، وإن المتشائمين لا يصنعون حضارة، ولا يبنون وطنًا، ولا يؤثّلون مجدًا، ولا ينصرون دينًا ولا يعمرون دنيا.

إن حقيقة الأمل الصادق لا تأتي من فراغ، كما أن التفاؤل لا ينشأ من عدم، وإنما هما وليدا الإيمان بالله تعالى، وثمرة المعرفة بسننه ونواميسه في الكون والحياة.

أليس جديرًا بالخطيب أن يقتدي بالنبي ﷺ وقد مكث في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو إلى الإسلام ويواجه طواغيت الشرك وعبدة الأصنام، فلم يفتر له عزم ولم تلن له قناة، ولم تنطفئ في نفسه جذوة أمل الغلبة ولا ضعفت لديه قوة اليقين بالنصر والظفر؟!

أليس حقيقًا به - وهو يخطب في الناس ويبثّ فيهم التفاؤل ويغرس فيهم روح الأمل - أن يتأسّى بالنبي ﷺ الذي أشرقت نفسه بالتفاؤل في أصعب المواقف وأحلك الظروف وقد تجمّعت الأحزاب وتكالبت الأعراب وأعلن حقدهم اليهود في غزوة الخندق ورمَوه عن قوس واحدة؟ عن البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أَمَرَنَا رسولُ اللهِ ﷺ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ، قال: وعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ في مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ، لَا تَأْخُذُ فِيهَا المَعَاوِلُ، قال: فشَكَوْهَا إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ، قال عَوْفٌ: وأَحْسِبُهُ قال: وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إلى الصَّخْرَة، فأَخَذَ المِعْوَلَ

فقال: «**بِاسْمِ الله**» فضرب ضَرْبَةً فكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ، وقال: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّام، واللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَها الحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**». ثُمَّ قال: «**بِاسْمِ الله**» وضَرَبَ أُخْرَى فكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ، فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، واللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ المَدَائِنَ، وأُبْصِرُ قَصْرَها الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**». ثُمَّ قال: «**بِاسْمِ الله**» وضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فقَلَعَ بَقِيَّةَ الحَجَرِ، فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، واللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»[1]. وأصله في صحيح البخاري بدون هذ الزيادة.

وقوله لأبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قصة الغار من أحداث الهجرة بثقة المؤمن: «**يا أَبا بَكْرٍ! ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثالِثُهُما**»[2].

وما أعظم تفاؤله المبنيّ على اليقين وصدق الثقة برب العالمين حين يخبر عن انتشار الإسلام؛ فعن تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ ما بَلَغَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ، ولَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ ولَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الكُفْرَ**»[3].

وفي سير أنبياء الله ورسله آيات في التفاؤل وعبر في صدق الثقة

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٦٩٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٥٨)، وحسّنه الحافظ في الفتح ٧/ ٣٩٧.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧)، والحاكم (٨٣٢٦) وصحّحه ووافقه الذهبي.

والرجاء، ينبغي للخطيب أن يتخذها نبراسًا في حياته الدعوية وخطبه المنبرية، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه وعليهم الصلاة والسلام قد صار شيخًا كبيرًا ولم يرزق الولد، فيدفعه حسن ظنّه بربه وعظيم تعلّقه به أن يدعوه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠٠-١٠١].

وكذلك نبي الله زكريا عليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

ونبي الله يعقوب عليه السلام فقد يوسف عليه السلام ثم اثنين من أبنائه الآخرين، ولكنه لم يتسرّب إلى قلبه اليأس، ولا جرى في عروقه القنوط، بل أمّل ورجا، وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

وما أجمله من تفاؤل تعزّزه الثقة بالله عز وجل حين قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وأكرم بنبيّ الله أيوب عليه السلام صابرًا محتسبًا متفائلًا: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

فشتان ما بين المؤمن المتفائل الذي يرى النور ويستبشر بالفرج والهناء، وبين الفاجر المتشائم الذي لا يرى في الوجود إلا الظلام والتعاسة والشقاء.

فليكن الخطيب متفائلًا، وليفرغْ من دلوه في دِلاء قومه، وليبعث فيهم روح التفاؤل والأمل والجِدّ والعمل؛ فإن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا.

المطلب الثالث: الصِّفات الخُلُقية:

الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق، فالعقيدة (التوحيد) يتأكّد فيها حق الله على العبيد، والشريعة تترسّخ فيها حقوق الخلق، والأخلاق يتعامل بها المسلم مع الناس مؤمنهم وكافرهم وبرّهم وفاجرهم، ولقد جمع النبي ﷺ هذه الثلاثة في حديث واحد؛ فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها، وخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1].

والخطيب الداعية قدوة للناس ومحطّ أنظارهم، فينبغي ألّا يروا منه إلّا حسنًا مليحًا، وألّا يلمحوا فيه سيِّئًا ولا قبيحًا؛ لأنه حامل رسالة الإسلام عقيدةً وشريعة وخُلُقًا، ويدعو الناس إلى محاسن تلك الرسالة، ومن أجلّ محاسنها: الأخلاق التي تربّي المسلم على الصدق والأمانة والعفّة والطهارة ونحوها من المكارم والفضائل، وتبعده عن الكذب والخيانة والدياثة ونحوها من الأخلاق السيّئة والرذائل.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٩٢)، والترمذي (١٩٨٧) وقال: حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. وقد سبق.

فهو يحتاج إلى التحلّي بتلك الأخلاق والفضائل، وإلى التخلّي عن تلكم المساوئ والرذائل؛ ليكون داعية خير وحبّ ووئام، وقدوة حسنة لجميع الأنام؛ فالناس يتأثرون بأفعال الخطيب أكثر من أقواله، وينفعلون بسلوكه ويتفاعلون معه أعظم من تفاعلهم بخطبه، فإذا اجتمع صدق القول والفعل أينعت ثمار جهوده ودعوته خيرًا وأحبّها الناس تبعًا لحبّهم صاحبَها وتقديره، وإلّا لم يكن لخُطبه كبير جدوى.

ومن أهمّ الصفات الخُلقية التي ينبغي للخطيب أن يتحلّى بها ويمارسها في حياته الدعوية:

١ - **طهارة القلب والقالب**: معلوم أن الإنسان مكوَّن من جسم وروح، وله باطن ومخبر لا يعلمه إلّا علّام الغيوب سبحانه وتعالى، وظاهر أيضًا يبدو للناس، والمرء مأمور بتزكية باطنه؛ ليكون العمل لله تعالى وحده، وهو ما يعرف بالهدي الباطن، ومأمور أيضًا بتزكية ظاهره؛ ليكون وَفْق الشريعة، وهو ما يعرف بالهدي الظاهر، قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠]. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: طهّر نفسه من الذنوب، ونقّاها من العيوب، ورقّاها بطاعة الله، وعلّاها بالعلم النافع والعمل الصالح. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنّس بالرذائل، والدنوّ من العيوب، والاقتراف للذنوب، وترك ما يكملها وينمّيها، واستعمال ما يشينها ويدسّيها)[1].

(١) تفسير السعدي ٩٢٦.

ولأنّ تمكين النفس وما تهوى بَطَرٌ يُطْغِي وأَشَرٌ يُرْدِي؛ لأن شهواتها غير متناهية، فيصير الإنسان أسير شهوات لا تنقضي، وعبدًا لهوًى لا ينتهي.

يا خادِمَ الجِسمِ كمْ تشقى بخِدْمَتِهِ   أتطلُبُ الرِّبحَ فيما فيه خُسْرانُ
أقبِلْ على النَّفسِ فاستكمِلْ فضائلَها   فأنتَ بالنَّفسِ لا بالجِسمِ إنسانُ

وإن كانت طهارة الباطن والظاهر مطلوبة؛ بيد أن المُعوَّل عليه تطهير الباطن أوّلًا وعمدة هذا التطهير هي القلب؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، ولما رواه النُّعْمانُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**أَلَا وإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وهِيَ القَلْبُ**»(١).

فالقلب هو محلّ نظر الربّ عزّ وجلّ، عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأَمْوَالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمَالِكُمْ**»(٢).

وفيه التأكيد على السعي في صلاح القلب وحمايته، وذلك لأنه بصلاح القلب يصلح باقي الجسد، وبفساده يفسد سائره.

والواجب على الخطيب أن يزكّي نفسه ويطهّر قلبه وقالبه، فأمّا تطهير القلب فيكون بالتجافي عن الشرك والنفاق والرياء والكبر والحسد وسائر

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٢) أخرجه صحيح مسلم (٢٥٦٤).

أمراض القلب التي تفسده. وأمّا تطهير القالب فيكون من المنّ والأذى والكلام البذيء والزهو والخيلاء، ومن خصال النفاق كالكذب والخيانة والغدر وسائر وجوه السلوك السَّيِّئ.

وهو أحوج الناس لهذه التزكية ولذاك التطهير؛ إذْ هو متبوع والناس تَبَع، وهو أسوة والناس به يأتسون، فإن ظهر منه خير قبلوه أو خلق طيّب اتّبعوه أو معروف شكروه. وبالعكس إذا رأوا منه شرًّا أو منكرًا أو يفعل خلاف ما يقول: أبغضوه وأعرضوا عنه وتنكّروا له، ولم يكن لكلامه وزن في قلوبهم ولا قبول في نفوسهم.

فطهارة الظاهر والباطن في غاية الأهمّيّة لكلّ إنسان، وهي للخطيب أهمّ وعليه أوجب؛ لذا نجد الشرع قد عُنِي بهذا كثيرًا، حتى إن النبي ﷺ كان يستفتح صلاته بسؤال الله عزّ وجلّ أن يطهّره وينقّيه من الذنوب والخطايا، وأن يهديه لأحسن الأخلاق وأن يصرف عنه سيّئها؛ فعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا كَبَّرَ في الصَّلاةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فقُلْتُ: يا رسولَ الله، بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي! أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ والقِرَاءَةِ ما تَقُولُ؟ قال: «أَقُولُ: **اللهُمَّ باعِدْ بَيْنِي وبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، اللهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ والمَاءِ والبَرَدِ**»(١).

وعن عَلِيِّ بْنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إذا قَامَ إلى الصَّلَاةِ قال: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفًا، ومَا**

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

أَنا مِنَ المُشْرِكِينَ، إنَّ صَلَاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِين، لَا شَرِيكَ لَهُ، وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنا مِنَ المُسْلِمِين، اللهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي واعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فاغْفِرْ لي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، واهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ...»[(١)].

وصفوة القول: إن عناية الخطيب بتطهير باطنه وظاهره يُعدّ أمرًا لا بدّ منه لكي يُبلِّغ رسالته وتُقْبَل دعوته.

٢- **صدق اللهجة**: إن الناس يتفاضلون بينهم بما يقوم في قلوبهم من حقائق الإيمان وقوة اليقين النابعَيْنِ في كلّ صادق من نقاء نيّته ونبل غايته، فمن كانت نيّته طاهرة وغايته شريفة ولهجته صادقة؛ ظهر ذلك في كلامه وتقاسيم وجهه؛ فإن لصدق الخطيب في كلامه وإخلاصه في قلبه وحرصه على هداية الخلق أثرًا - وأيّ أثر - في إقبال الناس على دعوته وإعظام رسالته وتوقير شخصيّته، حين يظهر لهم صدقه فيما يدعوهم إليه، ويلمسون عاطفته الجيّاشة في حرصه على هدايتهم، يسبق فعلُه قولَه، ويطابق حالُه قالَه، فإذا قال قولًا صَدَّقه بالعمل، فهو قدوة حسنة وأسوة صالحة.

قال أبو بكر بن أبي داود: سمعت أبي يقول: (خير الكلام ما دخل الأُذن بغير إِذن)[(٢)].

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢١٧.

يقرّ له بالفضل من كان منصفًا إذا قال قولًا كان بالقول أمثلا

لا يسرف في مدح ولا قدح، ولا يغلبه جشع ولا طمع، ولا يأتي على لسانه زور ولا بذاءة، يتكلم بالتلميح حين يُغْني عن التصريح، ويتحدّث بالتصريح إذا نأى عن القبيح؛ لأن عفّة اللسان تدلّ على نزاهة الجَنَان، وعلى استقامة العمل وخشية الجوارح والأركان، قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: (ومن آدابه [أي المتكلّم]: أن يتجافى هُجْرَ القول ومُسْتَقْبَحَ الكلام، ولْيَعْدِلْ إلى الكناية عمّا يُسْتَقْبَحُ صريحُه ويُسْتَهْجَنُ فصيحه؛ ليبلغ الغرض ولسانه نَزِهٌ وأدبه مَصُون. وقد قال محمّد بن عليّ رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] قال: كانوا إذا ذكروا الفروج كَنَّوا عنها. وكما أنه يصون لسانه عن ذلك فهو يصون عنه سمعه، فلا يسمع خَنًى ولا يُصغي إلى فحش؛ فإن سماع الفحش داعٍ إلى إظهاره، وذريعة إلى إنكاره. وإذا وَجَدَ عن الفحش مَعْرِضًا كَفَّ قائلُهُ وكان إعراضه أحدَ النَّكِيرَيْنِ، كما أن سماعه أحد الباعثين)(١).

وليعلم كلّ من يخطب الناس أن صدق لهجته سُلَّم نجاحه عندهم وسرّ حظوته لديهم؛ لأن ما يخرج من القلب يلامس شَغاف القلوب، وما كان من اللسان فلا يجاوز الآذان.

ذكر أبو محمد بن قتيبة الدِّينَوَرِيّ وأبو بكر الدِّينوَرِيّ أيضًا أن عُمَرَ بْنَ ذَرٍّ قال لأبيه: يا أبتِ! ما لك إذا تكلَّمْتَ أَبْكَيْتَ النَّاسَ، وإذا تكلَّمَ غَيْرُكَ لَمْ يُبْكِهِمْ؟ فقال: (يا بُنَيَّ! لَيْسَتِ النَّائِحَةُ الثَّكْلَى مِثْلَ النَّائِحَةِ المُسْتَأْجَرة)(٢).

---

(١) أدب الدنيا والدين ٣٥٥.

(٢) عيون الأخبار ٢/ ٣٢١، والمجالسة وجواهر العلم ٣/ ١١٠.

لا يَعرِفُ الشَّوقَ إلّا مَن يُكابِدُهُ   وَلا الصَّبابَةَ إلّا مَن يُعانيها

قال عَلِيُّ بْنُ الفُضَيْلِ لأَبِيه: يا أبت! ما أَحْلَى كلامَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ! قال: يا بُنَيَّ، وتَدْرِي لِمَ حَلَا؟ قال: لَا يا أَبت، قال: لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى[1].

وقِيلَ لِحَمْدُونَ القَصَّارِ: ما بالُ كلامِ السَّلَفِ أَنْفَعُ مِنْ كلامِنَا؟ قال: (لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا لِعِزِّ الإِسلام، ونَجَاة النُّفُوس، ورِضَا الرَّحْمَن، ونَحْنُ نَتَكَلَّمُ لِعِزَّةِ النَّفْس، وطَلَبِ الدُّنْيا، وقَبُولِ الخَلْق)[2].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ - وقد سمع متكلّمًا يعظ فلم تقع موعظته من قلبه ولم يرقّ لها-: (يا هذا؛ إنّ بقلبك لَشَرًّا، أو بقلبي)![3]. وقد سبق بعض هذه النقول. وفي هذا يقول الشاعر:

سِرُّ الفَصَاحةِ كامنٌ في المَعْدِنِ   لِخَصائصِ الأرواحِ لا لِلْأَلْسُنِ

٣- الجُرْأة والشجاعة: ومن أهمّ ما ينبغي أن يتصف به الخطيب الجرأة والشجاعة، وهذه الشجاعة منبعها الإيمان بالله تعالى ودافعها الغيرة على دين الله ووقودها موعود الله لعباده الصالحين المضحّين بأموالهم وأنفسهم وأوقاتهم، ومحلّها القلب.

ومن الصعوبة بمكان أن يرى الخطيب المنكرات تستفحل والمعاصي تفشو ولا يهتزّ له شعر ولا يفور له قلب، فإن كان كذلك فهو خوّار جبان لا يصلح لمثل هذا المقام العظيم، فالحقّ يحتاج إلى شجاع ذي

---

(١) شعب الإيمان ٣/ ٣٠١، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣.
(٢) شعب الإيمان ٣/ ٢٩٩، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣١.
(٣) زهر الآداب وثمر الألباب ١/ ١٩٦.

جرأة ونجدة وغيرة ليصدع به ويذود عن حياضه ولا تأخذه في هذا لومة لائم.

ولا محالة أن الخطيب سيجد من يصدّ عن سبيل الله، وسيرى منكرات تخالف شرع الله، فلا بدّ - والحالة هذه - من أن يتصدّى لها، وهذا يحتاج إلى الشجاعة التي تجعله يُقدم ويبادر فلا يجبُن ولا يتلكّأ في إنكار المنكر وردّ الباطل والتصدّي لأعداء الله، لكن بالحكمة والموعظة الحسنة التي أمر بهما شرعنا الحنيف: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وبحسب ضوابطه الشرعية ومراحله المرعية، قال أبو سعيد: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه، وذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمان» أخرجه مسلم.

ومن الأهمّيّة بمكان أن يميّز بين الشجاعة والتهوّر، فالشجاعة وسط بين طرفي الجبن والتهوّر، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ الله: (والشجاعة ليست هي قوةَ البدن، وقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب؛ وإنما هي قوة القلب وثباته؛ فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال، وعلى قوة القلب وخبرته به.

والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة؛ دون التهوّر الذي لا يفكر صاحبه ولا يميّز بين المحمود والمذموم؛ ولهذا كان القوي الشديد [هو] الذي يملك نفسه عند الغضب؛ حتى يفعل ما يصلح، فأما المغلوب حين غضبه فليس بشجاع ولا شديد)(١).

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٥٨.

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأمّا خُلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودّد وأمثالها، وهي أخلاق محمودة. وأما إفراطها وهو التهوّر فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب. وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب)(١).

فالشجاعة لا بدّ من أن تكون مع تفكير ورويّة وحسن تصرّف وتدبير، وإلّا أهلكت صاحبها، فهي وثيقة بالحكمة، وقد قال الشاعر:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وهِيَ المَحَلُّ الثَّانِي

٤- حسن الخُلُق: لا يتقرّب الخطيب إلى الناس بمثل التودّد إليهم ومعاملتهم بالحسنى، وبذل الندى لهم وكفّ الأذى عنهم؛ فإن ذلك بريده السريع إلى الأفئدة ومدخله الواسع إلى النفوس ومفتاحه الذي يفتح به مغاليق القلوب، ولا غَرْوَ فإن دماثة الخلق أعظم أسرار النجاح في كل مناحي الحياة، وله أثره الذي لا يُنْكَر أيًّا كانت ملّة صاحبه ومشربه وموقعه؛ وقد كان غاية البعثة النبوية إتمام مكارم الأخلاق، وما ذاك إلّا لعظيم أثرها وكبير أهميّتها، فقد رفع الإسلام ذكرها، وأعلى الشرع الحنيف قدرها؛ لأنها حجر الزاوية في بناء المجتمعات، والأساس المتين في نشأة الحضارات، عن أبي هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاق**»(٢).

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٥٤-٥٥.

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٥٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والبزار (٨٩٤٩) والبيهقي (٢١٣٠١)، وصحّحه محقّق المسند شعيب الأرناؤوط، وصحّحه الألباني.

ولن يعلو مبدأ ولن تنتصر عقيدة بغير أخلاق نقيّة ومُثُل مرضيّة، ولقد أحسن من قال:

صلاحُ أمْرِكَ للأخلاقِ مَرْجِعُهُ فقَوِّمِ النفسَ بالأخلاقِ تَسْتَقِمِ

ولهذا كان النبي ﷺ أحسن الخَلق خُلقًا مع صغيرهم وكبيرهم، وغنيّهم وفقيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وبرّهم وفاجرهم، فعن صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالَتْ: (ما رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ)(١).

وعن سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قال: قُلْتُ - يعني لعائشة -: يا أُمَّ الْمُؤْمِنِين، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قُلْتُ: بلى! قالَتْ: «فإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»(٢)، ومعناه: العمل به والوقوف عند حدوده والتأدّب بآدابه والاعتبار بأمثاله وأخباره وتدبّره وحسن تلاوته.

هو واحدُ الدُّنيا فلم يوجدْ له نِدٌّ ولا حتى القيامة يُوجَدُ

فكان ﷺ - بسيرته الحميدة وشمائله المجيدة - مغناطيس أفئدة الرجال، يجذبهم إليه بحسن أخلاقه وطيب معشره، وجذبُه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو الأولى بقول القائل:

مَحَاسِنُهُ هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ ومِغْنَاطِيسُ أَفْئِدَةِ الرِّجَالِ

وقد قسم الله تعالى الأخلاق بين الناس كما قسم الأرزاق بينهم، والخطيب أولى الناس بالفوز بهذه القسمة.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، وحسّنه الحافظ في فتح الباري ٦/ ٥٧٥.
(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦).

فإذا رُزِقتَ خَليقةً محمـودةً   فقد اصطفاكَ مُقسِّمُ الأرزاقِ
والنَّاسُ هذا حظُّه مـالٌ وذا   علمٌ وذاكَ مكـارمُ الأخلاقِ

ورسـول الله ﷺ هـو قـدوة كلّ خطيب بل كلّ مسلم، ولا شكّ في أن الخطيب الداعية إلى الخير والفضيلة أحرى الناس بالاقتداء به ﷺ؛ لأنه صاحب الكعب الأعلى والقِدْح المُعلَّى في هذا المضمار، وقد زكّاه ربه سبحانه وتعالى في هذا وأثنى عليه به فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. والخطيب إنما يرجو باقتدائه وفعلِه الخيرَ ما عند الله والدار الآخرة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن حسن خلق الخطيب أن يكون سَلِس القِيَاد طَوْع الزِّمَام، يعامل الناس بالرحمة والمودّة واللين والتواضع، ويشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، ويخالطهم بالقدر الذي ينفعهم ولا يضرّه، ويعاشرهم بعلم العلماء وحكمة الحكماء وخصال النبلاء، فيوقّر كبيرهم ويعطف على صغيرهم، ويضع الناس مواضعهم كلًّا بما يليق به، ويُنزلهم منازلهم، ويعينهم ويواسيهم ويمشي في حوائجهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ويكفّ الأذى عنهم ويبذل الندى لهم، ويصلح ذات بينهم ويراعي حقوقهم، ويعود مريضهم ويتبع جنائزهم، ويحفظ أسرارهم ولا يهتك أستارهم، ويعفو عن زلاتهم ولا يتتبع هفواتهم، يفي فيما وعد ويسامح إن توعّد، وفيًّا لهم ومخلصًا، يحب لهم الخير ويبعد الشرّ عنهم، ولا ينسى معروفًا ولا يجحد إحسانًا.

وإِنَّ أَوْلَى البَرَايَا أَنْ تُوَاسِيَهُ   عِنْدَ السُّرُورِ لَمَنْ وَاسَاكَ في الحَزَنِ

إِنَّ الكِـرَامَ إِذَا مَـا أَيْسَـرُوا ذَكَـرُوا   مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ في المَنْزِلِ الخَشِنِ

فإذا كان على مثل هذا معهم، استحوذ على قلوبهم وهيمن على عقولهم وانجذبت له نفوسهم كما ينجذب الحديد للمغناطيس، ووفّر على نفسه - بحسن أخلاقه وطيب معشره -كثيرًا من الجهد والمحاضرات القولية؛ لأن الفعل أبلغ من القول وأشدّ تأثيرًا، وهو المحكّ في صدقه وإخلاصه؛ إذ الأخلاق ليست نظرياتٍ تُرَى ولا حكاياتٍ تُروى، وإنما هي أقوال تصدّقها الأفعال، وقيمٌ تترجمها الأعمال.

وما كان مطبوعًا عليه من الأخلاق الفاضلة غذاها ونمّاها، وما كان يفتقدها أو بعضها سعى في طلبها ودرّب نفسه عليها حتى ترسخ وتكون طبعًا وسجيّة؛ إذ الأخلاق منها ما هو فطري وما هو مكتسب، عن زَارِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان في وفد عبد القيس - أنّ النَّبِيَّ ﷺ قال لأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ والأَنَاةُ**». قال: يا رسولَ اللهِ، أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قال: «**بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا**». قال: الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ[(١)].

وعن أبي الدَّرْدَاءِ وأبي هريرة] قالَا: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وإِنَّمَا الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) وحسّنه الألباني. وأخرجه وأحمد (١٧٨٢٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٣٠٦)، بنحوه من حديث أشج بني عَصَر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد والطبراني في الأوسط والخطيب وأبو خيثمة في كتاب العلم وحسّنه الألباني.

فتسلّح - أيها الخطيب - بالأخلاق النبيلة، وتأدّب بالآداب الجميلة، وتحلَّ بالخصال الأصيلة؛ فإنها رأس الحربة في ساحتك، والسهم الرابح في تجارتك، والسبيل الأوفى في نجاح دعوتك.

٥- **الصبر والاحتساب:** إن طريق الخطيب الذي يسلكه في الدعوة إلى الله تعالى ليس مفروشًا بالورود والرياحين والأحلام؛ بل مليء بالأشواك والمنغّصات والآلام، فهو طريق الأنبياء عليهم السلام، وقد لقُوا من أقوامهم أصنافًا من الصدّ والتكذيب، وألوانًا من الأذى والتعذيب، فهي سبيل تصهر أتباعها لتطهّر معادنهم وتفتّق قرائحهم وتنشئهم نشئًا آخر، لا يبالون بما يواجهون ولا يكترثون بما يَلْقَون، ما دام ذلك في سبيل الحق ومرضاة الله، فهم وأتباعهم أشدّ الناس بلاء وامتحانًا؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وعن سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يا رسولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قال: «**الأنبياءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فإنْ كَانَ في دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ في بَلائِهِ، وإنْ كَانَ في دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، ومَا يَزَالُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١) واللفظ له، والترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٤٨١)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وهكذا سنّة الله في عباده الصالحين، يبتليهم ليصبروا وينالوا ثمرة صبرهم في الدنيا: عزًّا وثباتًا وانتصارًا، وفي الآخرة: جنّات ودرجات وأنهارًا.

ولا بدّ من مجاهدة النفس في الصبر على البلاء في السرّاء والضرّاء، وطلب الأجر من الله على ما يلقاه من الأذى، وكلّ داعية إلى الله يأخذ عُدّته من الصبر والاحتساب؛ ليستطيع إكمال مسيرته وإنجاح دعوته، فيبدأ بالعلم، ثم يعمل بعلمه ليكون أسوة لمن يدعوهم، ثم يسلك سبيل الدعوة بعد هذين، ثم يصبر على الأذى الذي لا ينفكّ عنه وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ لأن هذه الدعوة ستكون على خلاف هوى الناس وتجري عكس رغباتهم، وهم لا ينفكّون عن مألوفاتهم إلّا بشقّ الأنفس، وقليل من يغالب هواه ليتبع دين مولاه، قال ابن القيّم رَحِمَهُ الله: (جهاد النفس أربعُ مراتب: إحداها: أَنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى، ودين الحقّ الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلّا به، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدَّارين.

الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلَّا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم يَنفعْها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَنْ لا يعلمه، وإلّا كان مِن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الهُدى والبيّنات، ولا ينفعه علمُه، ولا يُنجِيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كلّه لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع؛ صار من الربَّانِيين؛ فإن السلف مُجمعون على أن العالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمَّى ربَّانيًّا حتى يعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه، فمَن علم وعَمِلَ وعَلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيمًا في ملكوت السموات)[1].

٦- الترفّع عن الأغراض الشخصية، والتنزّه عن الأطماع الدنيوية:

إن الدعاة إلى الله - والخطباء في مقدّمتهم - هم ورثة الأنبياء والرسل، وهم عليهم السلام يدعون إلى دين الله تعالى لا يرجون بدعوتهم دنيا يجمعونها، ولا جاهًا يكسبونه، ولا مالًا أو مكاسب عاجلة يحقّقونها، فهم لا يرجون شيئًا من ذلك ولا يسألون الناس أجرًا على دعوتهم ولا جزاء ولا شكورًا، وإنما غايتهم الله سبحانه وتعالى ووجهتهم الدار الآخرة: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقال تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

إن نبل الغاية عند الخطيب وسموّ الوسيلة والهدف تختصر له كثيرًا من جهود الدعوة ونَصَبِ المشاقّ، وتهوّن عليه ما يلقاه في سبيلها من أذًى ومحن، وتُعْظم شأنه في أعين المدعوِّين حين يرون بأمهات أعينهم صدقه واستقامته وتنزّهه عن الأغراض الشخصية وترفّعه عن المطامع الدنيوية.

فإن كان الداعية يستتر وراء دعوته لتحقيق مصالح ذاتية له فلا بركة في جهوده ولا ثمرة لمساعيه؛ إذْ سرعان ما ينكشف أمره ويَبِين عواره

(١) زاد المعاد ٣/ ١٠.

وتنجلي حقيقته - ولو بعد حين - فيضرّ نفسه ويؤذي سمعته ويسيء إلى دعوته.

فالعبد الصالح قد يسعده المال ولكنه لا يستعبده، وتخدمه الدنيا ولكن لا تستخدمه، ومن طمع في الدنيا واستخدم الدين لخدمتها فقد أساء إساءة عظيمة، وهو شرّ على الدين من أعدائه.

ولو أنّ أهل العلم صانوه صانَهمْ ... ولو عظّموه في النفوس لَعُظِّما
ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا ... مُحيّاهُ بالأطماع حتّى تجهّما

لكن إن جاءته الدنيا بلا حرص عليها ولا طلب لها فلا بأس، وما أحسن ما قال الشاعر في هذا:

لا تَخْضَعَنَّ لِمَخْلَوقٍ على طَمَعٍ ... فإنَّ ذلك وَهْنٌ منك في الدِّينِ
واسْتَرْزِقِ اللهَ مِمَّا في خَزائِنِهِ ... فإنَّمَا هِيَ بَيْنَ الكَافِ والنُّونِ[1]
إنّ الَّذي أنتَ تَرْجُوهُ وتأمُلُهُ ... مِنَ البَرِيَّةِ مِسْكِينُ ابْنِ مِسْكِينِ
ما أَحْسَنَ الدِّيْنَ والدُّنْيا إذا اجْتَمَعَا ... لا بَارَكَ اللهُ في دُنْيا بِلا دِيْنِ

فالمرجوّ من الخطيب - وهو يدعو الناس إلى الله - ألّا يظهر منه ما يشفّ عن مطامع ذاتية أو مصالح شخصية من دعوته، بل إنما يفعل ذلك قيامًا

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (واشتهر بين العوامّ أنهم يقولون: (يا من أمره بين الكاف والنون) وهذا خطأ، ليس أمر الله بين الكاف والنون، بل بعد الكاف والنون؛ لأن الله قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] متى؟ بعد كن، فقولهم: بين الكاف والنون خطأ، يعني: ما تمّ الأمر بين الكاف والنون، لا يتمّ الأمر إلا بالكاف والنون، لكنه بعد الكاف والنون فورًا كلمحٍ بالبصر). لقاء الباب المفتوح ١٠/ ١٨٦.

بالواجب الشرعي في النصح والإرشاد، وحبّ الخير والهداية للعباد، وليس ثَمّ مطمع شخصي ولا غرض دنيوي.

المطلب الرابع: الصفات العلمية:

من الضروري للخطيب أن يكون عالمًا بما يدعو الناس إليه، وبأحوال من يدعوهم، وبأسس الدعوة وشروطها ومتطلّباتها، وبالأحوال والظروف التي تكتنف الدعوة وتؤثّر في الحياة، وأهمّ ما ينبغي عليه في هذا المضمار:

١- **التعمّق**: بمعنى سَبْر تخصّصه وإتقانه وفهمه فهمًا كاملًا والإحاطة به من كلّ جوانبه، ومن لم يَفْهم ما يدعو الناس إليه فلن يستطيع أن يُفهمه لهم؛ إذْ (فاقد الشيء لا يعطيه)، وعلى هذا فالخطيب مكلَّف أن يتعمّق في دراسة العلوم الشرعية بَدْءًا بالقرآن الكريم حفظًا - إن استطاع - وفهمًا، بمعرفة ألفاظه ومعانيه، وأسباب نزوله، ومكّيّه ومدنيّه، ومُحكَمِه ومُتشابِهه، وعامّه وخاصّه، ومُطلَقِه ومُقيَّدِه، ومُجمَلِه ومُفصَّلِه، وناسخه ومنسوخه.

ثمّ بمعرفة السّنّة الشريفة وحجّيّتها، وأقسامها من متواتر ومشهور وآحاد، وما يتبع ذلك.

ثم بمعرفة الإجماع وحجّيّته ونوعيه الصريح والسكوتي، وما يتعلق به من المسائل.

ثم بمعرفة القياس وحجّيّته وأركانه وأقسامه وشروطه وضوابطه، والحكمة وأنواعها، والعلّة ومسالكها... إلخ.

فيكون على معرفة تامة بهذه الأدلة أو المصادر التشريعية الأربعة

المتفق على حجيّتها، وكذا المصادر التشريعية الأخرى التي اختلف الأصوليون في حجّيّتها؛ كقول الصحابي والاستصحاب وشرع من قبلنا، والمصالح المرسلة والاستحسان والعرف وسدّ الذرائع.

وعليه أن يعرف مواطن التعارض والترجيح والترتيب بين الأدلة، ودلالات الألفاظ وطرق الاستنباط... إلخ.

٢- **الشمول:** والمراد بالشمول هنا أن يكون الخطيب واسع الاطّلاع متضلِّعًا من العلوم والمعارف الأخرى التي تعينه على أداء خطبته والقيام بحق الدعوة إلى الله تعالى، فيبدأ من أراد أن يكون خطيبًا مثقّفًا حاذقًا بمعرفة علوم الشريعة ثم بالاطّلاع على سائر الفنون والمعارف الأخرى؛ لأنه يتحدّث إلى أقوام شتّى وذوي اتجاهات متعدّدة وأفكار مختلفة وميول وثقافات متنوّعة، فهو مضطرّ إلى أن يراعي تلك الميول المختلفة والثقافات المتنوّعة؛ ليتمكّن من إيصال رسالته إلى المخاطبين الذين تنوّعت مشاربهم وتعددت مآربهم؛ ليأخذ كلّ فريق منهم حاجته المعرفية والعاطفية ويجد عنده ضالّته وينال بغيته.

ومن المعلوم أن الخطيب إذا كان واسع الاطلاع ثَرَّ المعارف ذا أسلوب مؤثّر فإنه سيؤثر في قلوب المخاطبين ويستميل نفوسهم؛ لأنه سيشبع رغبة كلّ منهم بما يناسبه من الإقناع العقلي بالأدلة والبراهين، ومن التأثير الوجداني والاستمالة العاطفية، وهذا كلّه يستلزم أن يكون الخطيب ذا ثقافة واسعة وشاملة، وعلى قدر كبير من الاطّلاع على شتّى العلوم والمعارف والثقافات فيكون موسوعيًّا ولا يقتصر على ما هو فيه من الفنّ أو التخصّص؛ لأن العلوم والمعارف الأخرى روافد

لعلمه الشرعي لا يستغني عنها؛ كعلوم الكون والعلوم الإنسانية من التاريخ واللغة والأدب والفنون ونحوها، فيأخذ من كل علم بطرف ليلمّ بها، ولا يُقْصَد هنا أن يتعمّق في العلوم كلّها إذ ذاك بعيد المنال، وإنما المقصود الإلمام بها وخاصة ما يحتاج إليه منها، كما قيل: (تعلّمْ شيئًا عن شيء لتكون مثقّفًا، وتعلّم كلّ شيء عن شيء لتكون عالمًا).

وينبغي أن يكون على علم راسخ متين، ووعي تامّ مكين بمحيطه وبيئته والتيارات الفكرية وبالأديان والمذاهب والملل والنِّحَل المعاصرة الموافقة للإسلام والمخالفة له على حدّ سواء؛ لينطلق في الدعوة إلى الإسلام والردّ على المغالطين بعلم راسخ وفهم ثاقب وإدراك تامّ، وهذا ما دعانا إليه ديننا الحنيف؛ كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وكما في حديث مُعاوِيةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(١).

وتحصيل هذا العلم والفهم والإلمام بهذه الثقافة يحتاج إلى همّة لا تَفْتُر وعزيمة لا تَقْصُر، ونَهَم في القراءة والمطالعة لا ينقطع، فحقيق بالخطيب أن يكون مُلمًّا بالعلوم والمعارف، وجدير به أن تكون ثقافته جامعة بين العلوم الدينية والدنيوية.

٣- الجمع بين المثالية والواقعية، والمواءمة بين الأصالة والمعاصرة: من نعمة الله عزّ وجلّ علينا أن جعل هذا الإسلام دينًا وسطًا في كل شيء،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) مطوّلاً.

يأخذ بأوساط الأمور المحمودة ويذر أطرافها المذمومة، فليس دينًا يتعامل مع النظريات المثالية أو الخيالية، فلا يُغْرِق في المثاليات أو يحلّق في الخياليات العصيّة على التحقيق بمنأًى عن واقع الناس ودنيا البشر، أو بعيدًا عن هموم الأفراد والمجتمعات ومشكلاتها، وإنما هو دين يتعامل مع الواقع البشري المَعِيش، يوازن بين تحقيق المصالح ودرء المفاسد، بلا جفاء ولا غلوّ، ولا إفراط ولا تفريط، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: خِيارًا عُدولًا.

والخطيب يجمع في علمه وعمله بين المثالية المطلوبة التي لا تستعصي على التنفيذ والتطبيق، وبين الواقعية التي يعيشها هو ومن معه من أفراد المجتمع، ويتأصّل في تحصيله العلمي على هذا التوازن الفعّال.

ولا يحمل الناس في خطبه على المثالية المُوغلة في الصعوبة الجافية عن الواقع، وفي الوقت نفسه لا يتنكّر لها، ولا يغالي في الواقعية بحيث يخضع لها خضوعًا أعمى ويغضّ الطرف عمّا يراه من سلبيات؛ بل يوائم بينهما؛ لأن دين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، والمُنْبَتُّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

فيوازي بين مصادر التلقّي والمعرفة، ويوفّق بين صحيح المنقول وصريح المعقول، وعالَمَي الغيب والشهادة، ويُعْمِل النصوص ويحكّمها، ويُعْنَى بحِكَم الشريعة وأسرارها ولا يهملها، ويرعى المقاصد ويستجلي القواعد، ويوازن بين تحقيق المصالح ودرء المفاسد، ويجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويميّز بين الثبات والمرونة، ويحسن التعامل بين الثوابت والمتغيّرات، بلا تهوين ولا تهويل، فهو بتمسّكه بأصوله

وثوابته يستعصي على التميّع والذَّوَبان، وبمرونته يستطيع التكيّف مع التطوّر بلا جمود ولا طغيان، وبالنتيجة يكون قد واءَمَ بين ما هو كائن فعلًا وما ينبغي أو يجب أن يكون.

المطلب الخامس: الصفات البيانية:

إن من نعم الله تعالى على الإنسان أنْ ميّزه بالعقل والبيان، ووهبه اللسان ليكون آلة البيان، على الرغم من وجود هذا العضو لدى الحيوانات لكنّها لا تُعرب به عن مرادها ولا تفصح به عنها، فالبيان باللسان من خصائص الإنسان على هذه الأرض، وهو يعبّر في العادة عمّا في ضمير الإنسان وتفكيره؛ كما قيل:

إنَّ الكَلَامَ لَفِي الفُؤَادِ وإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلَا

قال الله سبحانه يبيّن فضله ومنّته على بني الإنسان: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾. قال القرطبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (البَيان على هذا: الكلام والفَهْم، وهو مِمَّا فُضِّلَ به الإِنسانُ على سائر الحَيَوان)[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال الحَسَنُ: يَعْنِي: النُّطْقَ. وقال الضَّحَّاكُ وقَتَادَةُ وغَيْرُهُما: يَعْنِي الخَيْرَ والشَّرَّ. وقَوْلُ الحسن هاهنا أَحْسَنُ وأَقْوَى)[2].

وقال السعديّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي: التبيين عمّا في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقيّ والتعليم الخطّيّ، فالبيان الذي ميّز الله به الآدميّ على غيره من أجلّ نعمه، وأكبرها عليه)[3].

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١٥٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٨٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٨٢٨.

وقال سهل بن هارون الكاتب: (العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم)[1].

ومعنى البَيَان: إظْهَارُ المَقْصُود بأبْلَغ لفظ، وأصلُه الكَشْف والظُّهور، وهُوَ مِنَ الفَهْم وذَكَاءِ القلْب. وقِيلَ: مَعْنَاهُ أنَّ الرجُل يَكُونُ عَلَيْهِ الحقُّ وهُوَ أقْوَمُ بحُجَّته مِنْ خَصْمه فيَقْلب الحقَّ بِبيانه إِلَى نفْسه؛ لأنَّ معنَى السِّحْرِ قلْبُ الشَّيْءِ في عَيْن الإنسان، ولَيْسَ بقَلْب الأعْيان، ألَا تَرى أنَّ البَلِيغَ يَمْدَح إنسانًا حَتَّى يَصْرِف قُلوبَ السَّامعين إلَى حُبِّه، ثُمَّ يَذُمُّه حَتَّى يَصْرِفَها إِلَى بُغْضِه[2]، ويدل لهذا حديثُ النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا، أَوْ: إِنَّ بَعْضَ البَيَانِ لَسِحْرٌ**»[3]؛ أيْ إن للبيان والفصاحة أثرًا يشبه السحر من حيث جذب القلوب والغلبة على النفوس والتأثير فيها.

وهذا البيان أحد سبيلَي الهداية؛ إذ الهداية إمّا أن تكون بالدلالة وهي الدليل والحجّة والبرهان، وإمّا بالبيان وهو يأتي من لفظ حسن ومنطق فصيح وأسلوب جذّاب، ومن قوّته قد يقلب الحق إلى باطل أو العكس، أو يُرِي الحُسْن قبحًا أو القُبح حُسنًا.

ولمثل هذا أشار النبي ﷺ كما في الحديث عن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**» أخرجه البخاري

(١) سر الفصاحة ٥٩.
(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ١٧٤.
(٣) أخرجه البخاري (٧١٦٩)، ومسلم (١٧١٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

ومسلم؛ لأن أحد الخصمين قد يكون أفطن وأفصح ببيان حجته وإظهار أن الحق له فيقضي له القاضي بذلك بناءً على ظاهر القول.

وقال عَمْرُو بنُ مَرْزُوق: رأيت الأَصْمَعِيَّ وسِيبَوَيْه يتناظران، فقال يونس: الحَقُّ مع سيبويه، وهذا يغلبه بلسانه[1].

والمقصود من هذا كلّه أن البيان من ألصق الصفات للخطيب ومن أهمّها؛ ليستطيع التعبير عن مراده وإيصاله إلى المخاطَبين، وهو شديد الوقع حتى إن من العرب من قال: (رُبَّ قَوْلٍ أَشَدُّ مِنْ صَوْلٍ).

ومن أبرز الصفات البيانية للخطيب:

أوّلًا: الفصاحة: تطلق الفصاحة في اللغة على معانٍ كثيرة، منها: البيان والظهور، قال الله تعالى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾، أي أبينُ منِّي منطقًا وأظهر منّي قولًا.

يقال: رَجُلٌ فَصِيحٌ وكَلَامٌ فَصِيحٌ أَيْ بَلِيغٌ. ولِسَانٌ فَصِيحٌ أَيْ طَلْقٌ. فهي مأخوذة من قولهم: (أَفْصَحَ اللَّبَنُ) إِذَا أُخِذَتْ عَنْهُ الرَّغْوَةُ.

وأما الفصاحة اصطلاحًا: فهي البيان والطَّلَاقة وسلامة الألفاظ من الإبهام وسوء التأليف[2]. والخطيب الفصيح هو الذي يكون طلق اللسان سليم النطق في ألفاظه حسن التعبير عن مراده، لا يَلْحن في اللغة، ولا يتعثّر في الحروف، ويكون بيانه واضحًا.

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٠.
(٢) لسان العرب ٢/ ٥٤٤، مختار الصحاح ٢٤٠، المعجم الوسيط ٢/ ٦٩٠، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ١٦، أحمد الهاشمي المتوفى: ١٣٦٢هـ.

وعلى هذا فالفصاحة صفة لا بدّ منها في الخطيب؛ ليقدر على إيصال مراده وإظهار مكنون ضميره وفؤاده لمن يخاطبهم، ومن لم يكن فصيحًا فلن يستطيع أن يبلّغ دعوته بشكل صحيح إلى الناس.

ويكون الخطيب فصيحًا في خطبته إذا تحقق في كلامه ما يأتي:

١- أن تكون كلّ كلمة فيه موافقة للميزان الصَّرْفي المستنبط من كلام العرب، ومتى خالف هذا فيها خرج عن الفصاحة، فقول أبي النجم الفضل بن قُدامة العجلي:

الحَمْدُ للهِ العَلِيِّ الأَجْلَلِ   الواحِدِ الفردِ القديمِ الأوَّلِ

فـ(الأجلل) بفكّ الإدغام مما يخلّ بالفصاحة؛ لأنه مخالف للميزان الصرفي، والفصيح هو الأجلّ وهو القياس.

ومثله قولهم: (هذا كلام مَقْوُول) و(هذا شيء مَبْيُوع)؛ فإن (مقوول) و(مبيوع) غير فصيحتين؛ لمخالفتهما القياس، وفصيحهما: مَبِيع ومَقُول.

٢- سهولة الكلمة وسلاستها: ومرجع ذلك إلى الذوق السليم، فكلمة (المُزْنة، والدِّيْمة) للسحابة الممطرة: أسهل من كلمة (البُعَاق) مع أنها تعطي المعنى نفسه، لكنها مستقبحة تصكّ الآذان.

٣- السلامة من ضعف التأليف: وضعف التأليف هو خروج الكلام عن قواعد اللغة المُطّردة، كرجوع الضميرِ على متأخِّر لفظًا ورتبةً في قول الشاعر:

ولو أنَّ مَجدًا أخلَدَ الدَّهْرَ واحِدًا   مِنَ النَّاسِ أبْقى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطعِما

فإنَّ الضمير في (مَجدُه) راجع إلى (مُطعِما) وهو متأَخر في اللفظ كما ترى، وفي الرتبة؛ لأَنه مفعول به، فالبيت غير فصيح.

٤- السلامة من تنافر الكلمات: فتنافر الحروف يُلجئ إلى صعوبة النطق وثقلها على السمع؛ بسبب تقارب مخارج الحروف؛ كما في لفظة: الخُعْخُع أو العُهْخُع، وجاءت في جواب أعرابي سُئِلَ عن ناقَتِه، فقال: تَرَكْتُها تَرْعَى العُهْخُع (وهُوَ شَجَرةٌ يُتَداوى بها وبورقِها)، و(اجتزت سَجْسًا)؛ أي أرضًا صلبة. وكقول امرئ القيس:

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العُلَا   تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مُثَنًّى ومُرْسَلِ

أي خصلات الشعر مرتفعات. فلفظة (مستشزرات) غير فصيحة لتنافر حروفها، ومما يقبح استعمالها؛ لأنها تثقل على اللسان ويشق النطق بها.

٥- ظهور المعنى: فلا تكون اللفظة فصيحة إذا كانت غريبة الاستعمال بحيث يحصل تناقض بين المعنى واللفظ، والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها، فيحتاج في معرفتها إلى البحث عنها في كتب اللغة؛ وذلك كقول عيسى بن عمرو النَّحوي وقد سقطَ عن دابّته فالتفَّ حوله الناسُ فقال: (ما لَكُمْ تَكَأْكَأْتُم عليَّ تَكَأْكُؤكُم على ذِي جِنَّةٍ؟ افْرَنْقِعُوا عنّي) فكلمتا (تكأكأتم) و(افرنقعوا) غريبتان، ومعناهما: مالكم اجتَمَعْتم! تنَحَّوْا عنِّي. وكقول المتنبي:

ومَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُلْمٍ   إذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكَا

توهّمه: يعني العذب الرُّضاب، والابْتِشاكُ: الكَذِبُ.

ومن أمثلته أيضًا استعمال: الحِقْلِد، أي السَّيِّئ الخُلُقِ الثَّقيل الرُّوحِ، بدلًا من سيّئ الخلق. والطُّرْمُوق بدل الخُفَّاش، والطِّين. والاستمصال بدل الإسهال، وفَدَوْكَس بدل الأسد، وخَنْدَرِيس بدل الخمر. والاطرغشاش والابرغشاش بدل الشفاء.

تنبيه: وينطبق على التركيب فيما يخلّ بالفصاحة ما ينطبق على المفردات.

ثانيًا: البلاغة: وهي حسن البيان وقوة التأثير به. وعند علماء البلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[1]، وفي لسان العرب: (والبَلاغةُ: الفَصاحةُ. ورَجُلٌ بَلِيغٌ...: حسَنُ الكَلَامِ فَصِيحُه يُبَلِّغُ بِعِبَارَةِ لِسَانِهِ كُنْهَ ما في قَلْبِه). (فالبلاغة تعني تأدية المعنى الجليل واضحًا بعبارة صحيحةٍ فصيحة، لها في النفس أَثَرٌ خلّاب، مع ملاءَمة كلِّ كلام للموطن الذي يُقالُ فيه، والأشخاصِ الذين يُخاطَبون)[2].

وتوسع الجرجاني فعرّفها بنسبتها إلى المتكلم وبنسبتها إلى الكلام فقال: (البلاغة في المتكلم: مَلَكة يقتدر بها إلى تأليف كلام بليغ. والبلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال. والمراد بالحال: الأمر الداعي إلى التكلّم على وجه مخصوص مع فصاحته، أي فصاحة الكلام)[3].

والفصاحة يوصف بها الكلمة والكلام والمتكلّم. فيقال: كلمة فصيحة، وكلام فصيح، ومتكلّم فصيح، والبلاغة في اللغة تنبئ عن الوصول والانتهاء

(١) المعجم الوسيط ١/ ٧٠.
(٢) البلاغة الواضحة ٨.
(٣) التعريفات للجرجاني ٤٦.

والإتقان والجودة، ويوصف بها الكلام والمتكلم فقط. فيقال: كلام بليغ، ومتكلم بليغ، ولم يسمع كلمة بليغة إلا أن يقصد بالكلمة خطبة أو قصيدة.

وعلماء العرب يزعمون أن الفصاحة في الألفاظ، والبلاغة في المعاني، ويستدلّون بقولهم: لفظ فصيح، ومعنًى بليغ. ومن الناس من استعمل الفصاحة والبلاغة بمعنًى واحد في الألفاظ والمعاني، والأكثرون عليه[1].

والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفًا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنًى يفضل عن مثلها: بليغة، وإن قيل فيها: إنها فصيحة. وكلّ كلام بليغ فصيحٌ وليس كلّ فصيحٍ بليغًا؛ كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه[2].

وكلام الخطيب ينبغي أن يكون بليغًا ليبلغ قلوب السامعين وأذواقهم، فيدركوا جمال اللغة وعذوبتها وسحر بيانها ودقّة معانيها.

ثالثًا: السلامة من اللَّحْن: والمراد باللحن هنا الخطأ والميل عن الصواب، يقال: لحن في كلامه: أخطأ الإعراب وخالف وجه الصواب في النحو. وقد قالوا: (النَّحْو في الكلام كالملح في الطَّعام).

وأفحشه ما كان في آية من القرآن أو في حديث نبوي شريف، ثم يليه ما غَيَّر المعنى. وهو عند أهل فنّ التجويد قسمان:

لحن جليّ: وهو خطأ ظاهر يطرأ على اللفظ فيُخلّ بمبنى الكلمة وإن

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ٧/ ٦-٧، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ).
(٢) سرّ الفصاحة ٥٨ لابن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ).

لـم يخلّ بمعناها، مثل أن يغيّر حركة مكان أخرى؛ كما لـو قرأ قولـه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بفتح الدال أو بكسرها، وهذا مثال الذي يخلّ بالمبنى دون المعنى. وهو حرام بالاتفاق إذا تعمّده أو تساهل فيه.

ومثال ما يخلّ بالمعنى: كسر التاء أو ضمّها في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ولحن خفيّ: وهو خطأ يطرأ على اللفظ فيُخلّ بعرف القراءة دون المعنى، وهو ترك أحكام التجويد - كالإظهار والإدغام والإخفاء والإقلاب... - أثناء قراءة القرآن. وهو مختلَفٌ في حرمته أو كراهته عند العلماء.

وأيًّا كان فإن اللحن بنوعيه مذموم في الخُطب وفي غيرها، (مرّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على قوم يُسيئون الرمي، فقرعهم، فقالوا: إنا قوم «متعلّمين»، فأعرض مُغضَبًا، وقال: واللهِ لَخَطؤُكم في لسانكم أشدُّ عليَّ من خطئكم في رميكم)[1]. وقال عبد الملك بن مروان: الإعراب جمال للوضيع، واللّحن هُجنة على الشريف، والعُجب آفَة الرَّأْي. وقال: اللّحن في المنطق أقبح من آثار الجُدَريّ في الوجه. وقال: تعلّموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض. وقال رجل للحسن: إن لنا إمامًا يلحن. قال: أميطوه[2].

وإذا كان اللحن مذمومًا فهو عيب في المتحدِّث بالعربية وهو أشدّ في الخطيب، فالواجب عليه إذن أن يتعلّم من العربية ما يقوّم به لسانه ويتحاشى به عن اللحن الذي يُخِلّ بمباني العربية ومعانيها، وهو أمر لا بدّ منه، قال

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١/ ١.

(٢) العقد الفريد ٢/ ٣٠٨.

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (تعلّموا العربية فإنها تُثبّت العقل، وتزيد في المروءة)[1].

ذكر أبو حيّان في (كتاب محاضرات العلماء) حدّثنا القاضي أبو حامد أحمد بن بشر قال: كان الفرّاء يومًا عند محمّد بن الحسن، فتذاكروا في الفقه والنحو، ففضّل الفرّاء النحو على الفقه، وفضّل محمد بن الحسن الفقه على النحو، حتى قال الفرّاء: قلّ رجلٌ أنعم النظر في العربية وأراد علمًا غيره إلّا سهل عليه، فقال محمّد بن الحسن: يا أبا زكريّا قد أنعمت النظر في العربية وأسألك عن باب من الفقه، فقال: هات على بركة الله تعالى، فقال له: ما تقول في رجل صلّى فسها في صلاته، وسجد سجدتي السهو فسها فيهما؟ فتفكّر الفرّاء ساعة ثم قال: لا شيء عليه، فقال له محمّد: لم؟ قال: لأن التصغير عندنا ليس له تصغير، وإنما سجدة السهو تمام الصلاة وليس للتمام تمام، فقال محمد بن الحسن: ما ظننت أنّ آدميًّا يلد مثلَك[2]، وقال بعضُ الشعراء (إسحاقُ بنُ خلف):

النَّحْوُ يُصْلِحُ مِنْ لِسَانِ الأَلْكَنِ ... والمَرْءُ تُعْظِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ
وإذا التمستَ من العلوم أجلّها ... فأجلّها حقًّا مُقِيمُ الأَلْسُنِ
لَحْنُ الشَّرِيفِ يَحُطُّهُ عَنْ قَدْرِهِ ... وتَرَاهُ يَسْقُطُ مِنْ لِحَاظِ الأَعْيُنِ

فحريٌّ بالخطيب أن يتصف باستقامة اللسان وملازمة الصواب وتجنّب اللحن في حديثه إلى الناس.

رابعًا: طلاقة اللسان: وهي خلاف عُقدة اللّسان أو الحُبْسة التي تعني

(١) التاريخ الكبير ٩/ ٦٨، معجم الأدباء ١/ ٢٢، صبح الأعشى ١/ ٢٠٥.
(٢) معجم الأدباء ت إحسان عباس ١/ ٢١.

ثِقَلًا في اللِّسان يمنع من الإبانة، فالطلاقة تعني فصاحةَ اللسان وانطلاقَه من غير عيّ ولا حَصَر ولا هَذَر.

وهي ثمرة الفصاحة والبلاغة اللتين سبق الحديث عنهما قريبًا.

وطلاقة اللسان شرط مهمّ فيه، فالخطيب إذا ما حباه الله ذَلاقة اللسان، وعذوبة البيان؛ فقد ملّكه ناصية القول، وأورده مناهلَ عذبةً تشنّف الآذان وتأْسِر الجَنَان. وقد سبق أن مطالع علم الأدب من ثلاثة أوجه: قلب مُفكِّر، ولسان مُعبِّر، وبيان مُصوِّر.

ويلزم أن يكون للخطيب من الطّلاقة حظّ ونصيب وافران؛ لأن اللسان هو أداته الأولى في الدعوة، ووسيلته الأقوى في التوجيه والاستمالة والتأثير، وهو شيء مبيَّن في كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾، وفي الحديث الشريف: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»، ومشهور عند العرب أيضًا؛ فإن من الكلام ما هو أشدّ من الحَجَر، وأنفذ من الإِبَر، وأمرّ من الصَّبِر، وأحرّ من الجمر. قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعدما ذهب بصره:

إنْ يأخُذِ اللهُ مِنْ عينيَّ نُورَهُما ... فِفي لِساني وقلبي مِنْهُما نورُ
قلبي ذَكيٌّ وعَقلي غَيْرُ ذي دَخَلٍ ... وفي فمي صارمٌ كالسَّيفِ مأثورُ

وقال معاوية في ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُم:

إذا قال لم يَترك مقالًا ولم يقفْ ... لِعِيٍّ ولم يَثنِ اللِّسانَ على هُجْرِ
يُصرِّفُ بِالقَوْلِ اللِّسَانَ كَمَا انْتحَى ... ويَنْظُرُ في أعْطَافِهِ نَظَرَ الصَّقْرِ

ويحكى عن واصل بن عطاء المعتزليّ - وكان من المُفْلِقين في طلاقة اللسان وذَلَاقته- أن رجلًا قال له يمتحنه بالفصاحة وقد عرف أنّ في لسانه لثغة في مخرج الراء، قل: رجل ركب فرسه وجرّ رمحه، فقال له: غلام اعتلى جواده، وسحب ذابله، فما أجاب به أفصح وأسلس مما امتحن بنطقه، وما ذاك إلا لأجل الطلاقة في اللسان، والبراعة في جودة الذكاء والفطنة(١).

خامسًا: السلامة من العيوب: والمراد هنا سلامته من عيوب النُّطْق والبيان، فإن اللسان لمّا كان آلةَ الخطيب وأداةَ صنعة الخطابة؛ كانت سلامته من الأهمّيّة بحيث لا تتمّ الآلة ولا تُحْكَم الصنعة إلّا بصحّة النطق بالحروف وسلامة المباني والمعاني.

ويمكن حصر العيوب التي تتصل بالبيان في ثلاثة أقسام وهي: عيوب تتعلق ببيان المراد، وعيوب النطق، وعيوب الصوت.

القسم الأوّل: العيوب التي تتعلق ببيان المراد: وسببها عدم السير على قوانين الخطابة، وعدم العناية بفنّ الإلقاء، فينتج منها عدم قدرة الخطيب على الوصول إلى غرضه واستعصاؤه عليه؛ كعدم مراعاة مقتضى الحال، أو ضعف إثارة حماس السامعين، والسرعة غير الطبيعية في الإلقاء بحيث تتداخل الألفاظ ببعضها وقد يشقّ على السامع متابعتها وفهمها، واستعمال الصوت أثناء إلقاء الخطبة على وتيرة واحدة بدون مراعاة للمعاني المَسُوقة في الألفاظ التي تقتضي نبرات متفاوتة.

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ١/ ١٧٥، يحيى بن حمزة الملقب بالمؤيد بالله المتوفى ٧٤٥هـ.

فينبغي على الخطيب أن يراعي الألفاظ ومعانيها بحيث يعبّر اللفظ عن معناه ويصوِّره تصويرًا متمازجًا، فيشدّد على الكلمات المهمّة من حيث الصوتُ ومخارجُ الحروف، ولا يفعل ذلك في غيرها، ويغيّر من طبقات صوته فلا يستقرّ على طبقة واحدة، فيبدأ بصوت منخفض ثم يرفعه قليلًا قليلًا وهكذا، ثم يرفع صوته أو يخفضه حيث اقتضى المقام ذلك، ويغيّر أيضًا من معدّل سرعة صوته؛ حتى يبعث على القبول والارتياح لدى السامعين. ومن المهمّ أيضًا أن يتوقّف برهة يسيرة عند الأفكار المهمّة؛ ليلفت الأنظار ويوقظ من كان غافلًا أو سارحًا ويشدّه للانتباه.

ما علاج هذه العيوب؟

يستطيع الخطيب أن يتغلب على هذه العيوب بمراعاة قوانين الخطباء وطرق فنّ الإلقاء، وقراءة خطب مشاهير الخطباء، والاستماع لما سُجِّل منها بالصوت، ومشاهدة ما صُوِّر منها، والاسترشاد بكتب الخطابة التي عُنيت بالخطب المتميِّزة، مع ممارسة الخطابة - ولو منفردًا - بأصولها وقواعدها عمليًّا.

القسم الثاني: عيوب النطق: قد يصاب اللسان بعيوب تنقص من قدرته على النطق بالحروف كما هي، أو تذهب بقدرته على النطق ببعضها بالكلّيّة، ومن هذه العيوب:

١- **اللُّثْغَة**: وهي أن يُعْدَلَ بحرفٍ إلى حرف. والأَلْثَغُ: الذي يصيّر الراء لامًا والسين ثاءً وما شاكل ذلك. والحروف التي تدخلها اللثغة أربعة أحرف: القاف، والسين، واللام، والراء[1].

---

(١) لسان العرب ٨/ ٤٤٨، تهذيب اللغة ٨/ ١٠٤.

فاللثغة التي تعرض للقاف يجعل صاحبُها القافَ طاءً، فإذا أراد أن يقول: قال لي، قال: طال لي.

واللثغة التي تَعرِض للسين تكون ثاءً؛ كقولهم باثم الله إذا أرادوا باسم الله.

وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياءً فيقول بدل قوله: اعتلك: اعتييك، وبدل جمل: جمي. وآخرون يجعلون اللّام كافًا، كالذي عرض لعمر أخي هلال، فإنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلة في هذا؟ قال: مكعكة في هذا.

وأمّا اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام، لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف: فمنهم من إذا أراد أن يقول عمرو، قال: عمي، فيجعل الراء ياء. ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو، قال: عمغ، فيجعل الراء غينًا. ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو، قال: عمذ، فيجعل الراء ذالًا. ومنهم من يجعل الراء ظاء معجمة فيقول إذا أنشد هذا البيت:

واسْتَبَدَّتْ مرّةً واحدةً   إنّما العاجزُ مَنْ لا يَستَبِدّ

قال:

واستبدت مظة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

ومنهم من يجعل الراء غينًا فيقول إذا أنشد البيت السابق: (مغة) بدل: مرّة. وربّما اجتمعت في الواحد لثغتان في حرفين؛ كنحو لثغة شَوْشَى، صاحب عبد الله بن خالد الأموي، فإنه كان يجعل اللام ياء والراء ياء.

قال مرة: مَوْيايَ وَيِيُّ ايِّي. يريد مولاي وَلِيُّ الرَّي.

٢و٣- الفأفأة والتمتمة: وهما من عيوب النطق أيضًا، قال الأصمعي: إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام، وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء.

لستُ بفأفاءٍ ولا تمتام ولا كثيرِ الهُجْرِ في الكلامِ

٤- اللَّفَف: يقال: رجلٌ أَلَفُّ بيِّن اللَّفَفِ، أي عَيٌّ بطيء الكلام، إذا تكلم ملأ لسانُه فمَه. وقال أبو عبيدة: إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو أَلَفُّ. وقال الراجز:

كأنّ فيه لَفَفًا إذا نطقْ من طُول تَحْبِيس وهمٍّ وأرَقْ

٥- الحُبْسَةُ: وهي ثِقَل في اللِّسَان يَمْنَع من الإبانَة، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء والتمتام[1].

كيف يتخلّص الخطيب من هذه العيوب؟

لكلّ داء دواء، ومن ذلك هذه العيوب التي تصيب اللسان فتسلبه سلامة النطق ببعض الحروف، فإذا عَرَف سبب علّته فربّما هان عليه علاجه، وعيوب النطق لها أسباب خِلْقية وأخرى طبّيّة، فما كان منها خاضعًا للطبّ عولج به؛ كالعيوب التي تكون بسبب سقوط بعض الأسنان، أو بسبب إنهاك الأعصاب، أو لخلل في تلك الأعصاب والأوتار، أو بسبب الهمّ والأرق، أو لقلّة الكلام وكثرة السكوت، أو للحياء والخجل، أو بسبب السرعة وقلّة التدقيق، وهذا النوع من العيوب تمكن معالجته طبيًّا، والأخيرة منها يتولاها الطب النفسي، والتأنّي والتدقيق عند الكلام، والعناية بالرياضة البيانية.

(١) المصادر: لسان العرب، الصحاح، تهذيب اللغة، شمس العلوم، المعجم الوسيط: الموادّ السابقة، البيان والتبيين ١/ ٥٢ فما بعد، نهاية الأرب في فنون الأدب ٣/ ٧٨.

وما لم يكن منها خاضعًا للطبّ فبعضها يمكن التغلب عليه بالتدريب على النطق السليم وكثرة الدُّرْبَة والممارسة، وبعضها يصعب جدًّا كاللثغة التي تكوّنت في الصغر واستمرّ عليها ولم يعالجها حتى نمت وتصلّبت مع كبر السنّ. وكان عبد الملك بن مروان رَحِمَهُ اللهُ قد شَدَّ أسنانه بالذهب لما كَبِرت سِنُّه وقال: لولا المنابرُ ما باليتُ متى سَقَطَتْ. وقد كان عمرو بن سعيد بن أبي العاص في أول أمره لا يتكلَّم إلّا اعْتَرَتْه حُبْسَةٌ في مَنْطِقِه، فلم يزل يَتَشَادقُ ويُعالِج إخراج الكلام حتى مال شِدْقُه مِنْ كثرة ذلك، ولُقِّب لذلك بـ (الأشدق) فقال فيه الشاعر:

تَشَادَقَ حتى مَالَ بالقَوْلِ شِدْقُهُ ... وكلُّ خطيبٍ لا أبا لكَ أَشْدَقُ

وقد اعتقد الناس فيه حين انتقل من الحُبْسَة إلى الفصاحة أن الجِنَّ لطَمَتْهُ على وجهه ليتعلّم الفصاحة، فقال في ذلك الشاعر:

وعمرٌو لَطِيمُ الجِنِّ وابنُ محمَّدٍ ... بأسوأ هذا الرَّأيِ مُلْتَبِسَانِ[1]

وكما فعل (ديموستين) حيث كان ألثغ بالراء فكان يضع حصًى في فمه عند الكلام حتى تغلّب على عيبه وأضحى خطيب اليونان المُقدَّم.

ومثله واصل بن عطاء الذي كان ألثغ فاحش اللَّثَغ، ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة: أسقط الراء من كلامه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هُجنته، حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمّل[2].

(١) أصول الإنشاء والخطابة، محمد الطاهر عاشور ١٤٠.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٦-٣٧، الخطابة لأبي زهرة ٤٩-٥١.

القسم الثالث: العيوب الصوتية: إن للصوت أثرًا كبيرًا في الأداء بل هو العمدة فيه، وهو عنصر جمالي أصيل للخطيب، إذ يعدّ كالمترجم عن مقصده والكاشف عن بغيته والشارح لمعاني ما يريده، فالصوت الحسن يزيد الألفاظ حُسنًا ويكسوها زخرفًا، فإذا اتصف الصوت بصفات الجمال والكمال كان مقبولًا في قلوب السامعين ونفوسهم وكانوا مقبلين عليه غير معرضين عنه، فإذا خلا من تلك الصفات ولحقته العيوب عاد تأثيره ضعيفًا أو معدومًا. ومن العيوب التي تعتري الصوت فتُذهِب بهاءه ورُوَاءه وتأثيره:

أ- **ضعف الصوت:** فضعف الصوت وتهدّجه يُضْعِف الانتباه ويشتّت الأذهان، وقد يعسر على بعض المخاطَبين سمعه أو فهمه، ومن لوازم الخطيب المؤثّر أن يكون جَهْوَرِيّ الصوت؛ ولذا كان النبي ﷺ إذا خطب علا صوته، وذلك إما لأن موضع الخطبة موضع قوّةٍ وفخامةٍ عامّةٍ، وإما أن يكون اشتداد غضبه عند إنذاره أمرًا عظيمًا وتحديده خَطْبًا جسيمًا.

ب- **اضطراب الصوت:** والمقصود باضطرابه عدم اتّزان رنّاته ونبراته - لعلل صحية أو خِلْقية - وعدم اعتداله وموافقته لظروف المكان والزمان والجمهور، فقد يكون قويًّا إلى درجة الإزعاج، وقد يكون خافتًا إلى حدّ عدم الوضوح. ويكون هذا إذا لم يراعِ الخطيب الأحوال والظروف وضيق المكان أو سعته وقلة الجمهور أو كثرتهم، فقد يرفع صوته في موطن لا يقتضي منه ذلك، وقد يخفضه في حال يستدعي منه رفعه، وقد يرفع صوته في مكان ضيق أو صغير فيسبب الإزعاج للسامعين، وقد يرفع صوته في جمهور قليل، أو يخفضه في جمهور كثير.

ومن أسباب اضطرابات الصوت: **التهاب الحَنْجَرة**، ووجود عُقد وتكيّسات على الأحبال الصوتية، وشلل الأحبال، والضغط النفسي والحساسية والتهابات الجهاز التنفسي، وتعاطي الخمر والمخدِّرات والدخان، وجفاف الحلق وإجهاد الصوت.

ت- عوارض الصوت: وهي تغييرات تعتري الصوت، وقد تكون دائمة أو تزول بالمِران أو بالمعالجة، فمن الخطباء من يكون صوته أَجَشّ، والأجشّ هو الصوت الغليظ. وهذا النوع من الصوت إذا صَحِبه قوة زائدة عن الحدّ الطبيعي سبّب للسامعين نفورًا شديدًا وإزعاجًا أكيدًا.

ومما يعتري صوت الخطيب أيضًا: **البُحَّة**: وهي غِلَظٌ فِي الصَّوْتِ وخُشُونة من دَاء أَو كَثْرَةِ صياح... ورُبَّمَا كَانَ خِلْقَةً. ومنها: كثرة الكَحْكَحَة: يقال: كحكح الشَّخصُ: إذا كحَّ؛ أي سعَل سُعالًا مُتقطِّعًا جافًّا. ومنها: النَّحْنَحَة وَهي أَسهل مِن السُّعال. وهذه العوارض أو الأعراض تسلب الصوت جاذبيته.

ث- النَّمَطية: وهي أن يكون الصوت على طبقة واحدة أو وتيرة ثابتة لا يزيد ولا ينقص، فلا يعلو ولا ينخفض ولا تتغير نبرته ولا تتبدل رنّته، فهو يُؤدَّى بشكل رتيب يدفع إلى الملل والسآمة، والصحيح من جهة الخطيب أن يغيّر من مستوى صوته ارتفاعًا وانخفاضًا وتفخيمًا وترقيقًا بحسب ما يتطلبه الظرف والحال والمقام. والأنسب أن يبدأ خطبته بصوت هادئ أو قريب من الهدوء - إن لم يكن ظرف أو مناسبة تستدعي البدء بقوة - ثم يتدرّج في رفع صوته إلى أن يصل إلى حدّ مناسب، ثم يتموّج بصوته ويغيّر في طبقاته ويبدّل من معدّل سرعته

وبُطئه بحسب المقتضى، ولا يظنّنّ أحد أن البدء بصوت منخفض ثم رفع وتيرته شيئًا فشيئًا إلى نهاية الخطبة، أو البدء بصوت مرتفع ثم خفضه إلى آخر الخطبة لا يظننّ أن هذا هو المناسب، بل المناسب أن يبدأ بحسب المقام وتغيير حركات الصوت ونبراته وتعبيراته وَفْق المقتضي ارتفاعًا وانخفاضًا وبحسب ما يعبّر عن المعاني والأحوال.

ج- **عدم التفنّن فيه**: وذلك أن بعض الخطباء يكون أداؤه الصوتي واحدًا لا يتغير، ومن المؤكَّد أن هذا الأسلوب يبعث على الملل، فلا مناص من التفنّن بأداء الصوت بحيث يكون معبِّرًا عن المعاني التي يريد إظهارها وإيصالها للسامعين، فالألفاظ تصوّر المعاني والصوت يمثّلها، ودلالات الصوت تعبّر تعبيرًا صادقًا عن معاني الألفاظ وتهبها قوة وحيوية؛ إذْ كيفية الصوت في الاستفهام تختلف عنها في التقرير، وتفترق في التعجب والإنكار والتوبيخ عنها في الرضا والإقرار، وتختلف في اللّوم والتقريع والتهويل عنها في الاستلطاف والاستعطاف والاستمالة، وكيفية الصوت في التحزّن والندم والحسرة تختلف عن كيفيته في الفرح والبهجة والسرور، والإقدام عن الإحجام والوعد عن الوعيد، وهلمّ جرًّا، فكل هذه معانٍ تحتاج إلى نغمة صوت تناسبها.

فإذا تكلّم في حالة من هذه الحالات جمع مشاعر المستمع وعاطفته وهواه ليكون تبعًا لمشاعر الخطيب إنْ في الفرح أو الحزن، أو الفخر والمديح والثناء، أو ما يقابلها من الذمّ والهجاء، وكلّما كان صوت الخطيب معبِّرًا عما يجيش في نفسه من ألم وأسًى، أو ينتشي فيها من فرح وسرور: كان ذلك أكثر تأثيرًا في مخاطَبيه ومستمعيه، وقد يبلغ تأثير الخطيب إلى أن يبكي بنفسه ويُبكيَ السامعين معه، أو يفرح فتنتقل

نشوة الفرح إلى نفوسهم، وهكذا تكون كيفيات الصوت وانفعالاته وتشكيله بتشكيلات متنوّعةً تتناسب مع المعنى الذي يقصده والهدف الذي يرصده.

ح- **ضيق نَفَس صاحبه:** ومن معايب الصوت أن يكون نفَس الخطيب ضيّقًا فيقطع عليه إتمام المقاطع التي تبرز المعاني، وهذا العيب يحرم الخطيب من الوقوف المناسب في خطبه ويُلجئه إلى الوقوف الذي لا ينبغي بل قد يتغيّر المعنى بسببه.

ومن وسائل معالجة ضيق التنفّس: الوقوف باستقامة لتتسع الرئتان وتتمدّدا، وسحب نفَس طويل، والتحدّث بسلاسة وسهولة بدون دفع الهواء كلّه من المعدة من خلال جملة واحدة وبشكل تدريجي على دفعات.

وبوسع الخطيب أن يتغلّب على تلك العيوب ويتخلص منها بمعالجتها بالتدريب والممارسة والرياضة الجسدية والخَطابية (الصوتية)، وقراءة الخطب المكتوبة والوقوف فيها على المقاطع المناسبة، وتقوية الصوت بتدريب الحنجرة على اكتسابها، ولو بأن يخلو المرء بنفسه ويتمثّل كأنّ أمامه جمهورًا يخطب فيهم فيُرغي ويُزبد حتى تتكوّن لديه مَلَكة الصوت وتتّزن نبراته وتظهر براعته، كما فعل ديموستين في معالجة عيوبه حتى غدا خطيب اليونان، فقد كان ضعيف الصوت فأخذ بالرياضة الصوتية بالصياح والصراخ، وكان يصعد الجبال الوعرة لتقوية رئتيه، ومخاطبة أمواج البحر ليكون صوته أعلى من صخب الأمواج، فكان له ما أراد.

وكما فعل شيشرون - أخطب خطباء الرومان - الذي كان يتمرّن على إلقاء خطبه قبل أن يلقيها على جمهور السامعين.

المطلب السادس: الصفات الخِلْقية والشَّكْلية:

لدى كل إنسان صفات خِلقية تميّزه عن غيره، ومن هذه الصفات ما يكون مفطورًا عليها أي خُلِق عليها لم يملك لها جلبًا ولا يملك لها ردًّا؛ كالطول أو القصر، والجمال أو الدمامة... وهذه الصفات ليس في مقدور الإنسان أن ينفكّ منها ولا أن يبدّلها، ولا شأن لنا في بحثها، وإن كان لها أثر كبير في تأثير الخطيب في المخاطَبين بَيْدَ أنه لا يد له فيها.

قيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورَحْب الشِّدق، وبُعْد الصوت[1].

ومنها ما يكون مُكتَسَبًا، للإنسان يد في جلبها أو دفعها، وهذا هو الذي أعنيه في هذا المطلب.

أَلَا إن من عظمة الإسلام أنه يُعْنَى بكلّ كمال صغيرًا كان أو كبيرًا، ويحثّ على كل جمال جوهريًّا كان أو مظهريًّا؛ ما دام في حدود المباح. وممّا عُنِي به هذا الدين العظيم: مظهر الإنسان الخارجي؛ لأنه يُعبِّر عن قيمة داخلية في الإنسان، وهي حب النظافة والتنزّه عمّا يُستقذَر ويعاب؛ إذ النظافة من الإيمان، وقد أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ بذلك فقال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]. وأحد وجوه تفسير هذه الآية ما قال محمد بن سيرين: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أي اغسلها بالماء، وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهّر ثيابه، وهذا القول اختاره ابن جرير.

وأثنى ربنا جل في علاه على المتطهِّرين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]: أي المتنزّهين عن الأقذار والأذى.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٨.

وأنكر عز وجلّ على من تعنّت وحرّم ما أحل الله من الطيبات من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق من مأكل ومشرب بجميع أنواعه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

والخطيب الداعية أولى الناس بهذه الصفة المحبَّبة إلى النفوس؛ لأنه محطّ الأنظار ومطمح الأبصار، إذ إنّ بروزه بمظهر حسن وهيئة جميلة يضفي عليه هيبة وجمالًا، ويزيده محبة في أعين ناظريه وكمالًا، والنظر -كما قيل- يفعل في القلب كما يفعل الكلام في السمع، فحقيق بالخطيب أن يكون أحرص الناس على كسب الكمالات والفضائل، وأبعدهم عن اكتساب النقائص والرذائل.

فحسن المظهر وجمال الملبس يعينه في دعوته، ويجمّله في هيئته، ويزيد في وقاره وهيبته، فتجلّه العيون وتنجذب له النفوس، بل يجلب له حسنُ المظهر راحةً نفسية وقوة معنوية؛ فإن الله جميل يحب الجمال، ففي الحديث عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**». قال رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قال: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ**»[1] (بطر الحق): هو دفعه وإنكاره ترفُّعًا وتجبُّرًا. (غمط الناس): احتقارهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

وهو من إظهار نعمة الله عليه، وباب من أبواب شكرها والتحدّث بها؛ فعن عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عن أَبيه، عن جَدِّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»(١).

وقد حثّ النبي ﷺ على ذلك؛ فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوِ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، سِوَى ثَوْبِ مِهْنَتِهِ**» وفي رواية عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ**»(٢).

وهو في حقّ الخطيب آكد. قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: (وأُحِبُّ لِلإمام من حسن الهيئة ما أحبّ للناس وأَكْثَرَ منه)(٣). وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: (ويستحبّ للإمام أكثر مما يستحبّ لغيره من الزينة وغيرها، وأَنْ يَتَعَمَّمَ ويَرْتَدِيَ، وأفضلُ ثيابه البِيضُ كغيره، هذا هو المشهور)(٤).

ومن حسن الهيئة والمظهر لكلّ من يأتي الجمعة عامّة وللخطيب خاصة: التنظّف والتطيّب والسواك... لما رواه سَلْمَانُ الفارِسيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «**لا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فلا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨١٩) وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ، والحاكم (٧١٨٨) وصحّحه ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (٨١٠٧) من حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجهما ابن ماجه (٩٠٥و ١٠٩٦)، والأول أبو داود أيضًا (١٠٨٠) وصحّحهما الألباني.
(٣) الأم ١/ ١٩٧.
(٤) المجموع شرح المهذب ٤/ ٥٣٨.

الجُمُعَةِ الأُخْرَى»[1]. (ما استطاع من طهر): ما أمكنه من تنظيف كقص الظفر والشارب وحلق العانة. (يمس من طيب بيته): يتطيب من طيب زوجته.

ولكن ليحذر الإسراف والمخيلة في ذلك، وليدفعه هذا إلى الوقار والتواضع أكثرَ؛ إقرارًا بنعمة الله عليه، عن عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عن أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**كُلُوا واشْرَبُوا وتَصَدَّقُوا في غَيْرِ سَرَفٍ ولَا مَخِيلَةٍ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»[2].

وليتجنّب من اللباس ما يُزري به وما يستهجنه الناس، وما يكون لباس شهرة؛ فإنه مذموم ومُتوعَّد عليه بالعقاب، وينبغي أن يكون متّسقًا مع قامته وبدنه، وموافقًا للهدي النبوي بلا إسبال ولا قِصَر فاحش؛ فعنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ في الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[3]. وزاد ابن ماجه: «**ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ نَارًا**». (ثوب شهرة) أي: من لبس ثوبًا يَقصِد به الاشتهارَ بين الناس سواء كان الثوب يَلبَسه تفاخرًا بالدنيا، أو إظهارًا للزهد والرياء.

وممّا ينبغي التنبيه إليه أن الصفات الخلقية - وإن كانت مهمّة للخطيب - لا يعني عدم توافرها في الخطيب أنه لن يفلح ولن ينجح في هذا الميدان، كلَّا! بل ثَمّة مؤهّلات وصفات أهمّ وألزم للخطيب، وما كان فقدانها أو

---

(١) أخرجه البخاري (٨٨٣).
(٢) أخرجه أحمد (٥٦٦٤)، وأبو داود (٤٠٢٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٥٦٠)، وابن ماجه (٣٦٠٧)، وحسّنه الألباني. (ثوب شهرة) أي: ثوب يقصد به الاشتهار بين الناس.
(٣) أخرجه أحمد (٥٦٦٤)، وأبو داود (٤٠٢٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٥٦٠)، وابن ماجه (٣٦٠٧)، وصحّحه أحمد شاكر.

نقصانها لِيَضيرَ أو يمنع من الإبداع والتميُّز والقدرة على تجييش الجيوش وإثارة النفوس وإلهاب العواطف والتأثير في الناس برباطة الجَنان وقوة البيان.

فهذا ضَمْرَةُ بْنُ ضَمْرَةَ الضَّبِّيُّ كَانَ دَمِيمًا قَصِيرًا، وكَانَ يُغِيرُ عَلَى مَسَالِح النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِر، فأُتِيَ بِهِ إِلَيْهِ أَسِيرًا، فلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْه، قال النُّعْمَانُ حَيْثُ نَظَرَ إِلَيْه: (تَسْمَعُ بِالمُعَيدِيِّ لَا أَنْ تَرَاهُ) فصَارَتْ مَثَلًا، فقَالَ لَهُ ضَمْرَةُ: (مَهْلًا أَيُّهَا المَلِكُ، فإِنَّمَا المَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ قَلْبِهِ ولِسَانِهِ، إِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِبَيَان، وإِنْ قَاتَلَ قَاتَلَ بِجَنَان). قال: (للَّهِ دَرُّكَ يا ابْنَ ضَمْرَةَ)! وكان ضمرة خطيبًا، وكان فارسًا شاعرًا شريفًا سيّدًا[1]. وفي المنظوم:

وما المَرْءُ إِلَّا الأَصْغَرَانِ لِسَانُهُ ... ومَعْقُولُهُ والجِسْمُ خَلْقٌ مُصوَّرُ

ودخل النَّخّار بن أوس العُذريّ على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عباءةٍ؛ فاحتقره معاويةُ، فرأى ذلك النخار في وجهه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنّ العباءة لَا تكلّمك، إِنَّمَا يكلّمك مَنْ فِيها، فأقبَلَ عَلَيْه، ثم تكلّم فملأ سمعه، ثم نهض ولم يسأله، فقال معاوية: ما رأيت رجلًا أحقرَ أوّلًا ولا أجلّ آخرًا منه[2]. ولله درّ القائل:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحيفَ فتزدَريهِ ... وفي أَثوابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ

(١) الدلائل في غريب الحديث لقاسم بن ثابت بن حزم العوفي السرقسطي المتوفى: ٣٠٢هـ، البيان والتبيين ١/ ٢٠١.

(٢) الكامل في اللغة والأدب ٢/ ١٢٥، عيون الأخبار ١/ ٤١٤.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تصدير إدارة الشؤون الفنية	٥
المقدمة	٧
الباب الأول **الخطابة وتاريخها واتجاهاتها وأنواعها وخصائصها وأهميتها**	١٩
الفصل الأول: تعريف علم الخطابة وعلاقته بالعلوم الأخرى وتاريخه	٢١
المبحث الأول: تعريف علم الخطابة	٢٣
المبحث الثاني: تعريف الخطابة في اللغة والاصطلاح	٢٥
المبحث الثالث: علاقة الخطابة بالعلوم الأخرى	٣٥
المبحث الرابع: طرق تحصيلها	٣٨
المبحث الخامس: نشأة الخطابة	٤٥
المطلب الأول: الخطابة عند اليونان	٤٥
المطلب الثاني: الخطابة عند الرومان	٤٧
المطلب الثالث: الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي	٤٨
المطلب الرابع: الخطابة في صدر الإسلام	٥٨
المطلب الخامس: الخطابة في العصر الأموي	٦٤
المطلب السادس: الخطابة في العصر العباسي	٧٠
المطلب السابع: الخطابة في العصر الحديث	٧٦
الفصل الثاني: اتجاهات الخطابة	٨١
المبحث الأول: اتجاهات الخطابة عند غير العرب	٨٤

الموضوع	الصفحة
المبحث الثاني: اتجاهات الخطابة عند العرب	٨٥
الفصل الثالث: أنواع الخطابة	٨٩
المبحث الأول: الخطابة السياسية	٩١
المبحث الثاني: الخطابة الاجتماعية	٩٣
المبحث الثالث: الخطابة العسكرية	٩٦
المبحث الرابع: الخطابة القضائية	١٠١
المبحث الخامس: الخطابة الدينية	١٠٤
الفصل الرابع: خصائص الخطابة وأهميّتها	١٠٩
المبحث الأول: خصائص الخطابة	١١١
المبحث الثاني: أهمية الخطابة	١٢١
الباب الثاني أصول الخطابة والخطيب	١٢٧
الفصل الأول: تكوين الخطبة	١٢٩
المبحث الأول: كيفية تكوين الخطبة وتحضيرها	١٣١
المبحث الثاني: مراحل إعداد الخطبة	١٤٠
المبحث الثالث: مصادر الخطابة	١٥٠
المبحث الرابع: تقسيم الخطبة	١٧٣
المطلب الأول: المقدمة	١٧٣
المطلب الثاني: الموضوع	١٨٠
المطلب الثالث: الخاتمة	١٨٤

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني: الإنشاء الخَطابي (التعبير)	١٨٧
المبحث الأوّل: الألفاظ	١٩٧
المبحث الثاني: الأسلوب	٢٠٦
المطلب الأول: تعريف الأسلوب	٢٠٦
المطلب الثاني: أنواع الأسلوب	٢٠٧
المطلب الثالث: اختلاف الأساليب	٢١١
المطلب الرابع: خصائص الأسلوب الخطابي	٢١٢
المطلب الخامس: صياغة الأسلوب	٢١٨
المبحث الثالث: المقاطع	٢٢٠
الفصل الثالث: آداب الخطيب وثقافته وصفاته	٢٢٥
المبحث الأول: آداب الخطيب	٢٢٨
المبحث الثاني: ثقافة الخطيب (العلوم الدينية والدنيوية)	٢٤٣
المبحث الثالث: صفات الخطيب	٢٦١
المطلب الأول: الصفات العقلية (الصفات الفطرية والصفات المكتسبة)	٢٦١
المطلب الثاني: الصفات النفسية	٢٧٤
المطلب الثالث: الصفات الخُلُقية	٢٨٧
المطلب الرابع: الصفات العلمية	٣٠٣
المطلب الخامس: الصفات البيانية	٣٠٧
المطلب السادس: الصفات الخِلْقية والشكلية	٣٢٦
الفهرس	٣٣١

تمت بحمد الله